يوكيو ميشيما

اعترافات قناع

رواية يابانية

ترجمة
أسامة الغزولي



اعترافات قناع

* يوكيو ميشيما: اعترافات قناع.

* الطبعة العربية الأولى، ١٩٨٣.

* جميع الحقوق محفوظة.

دار التنوير للطباعة والنشر.

ص. ب ٦٤٩٩ ـــ ١١٣ بيروت ـــ لبنان.

* الناشر: الصنوبرة ـــ أول نزلة اللبان ـــ بناية عساف.

دار ابعاد للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ص . ب ١١٢/٦٠٤٢ هاتف : ٢٤٨٩٧٧ _ ٢٤٥٥٤٧

يوكيو ميشيما

اعترافات قناع

ترجمة: أسامة الغزولي





.. الجمال شيء رهيب ومروِّع! إنه رهيب لأنه لم يحدث أبداً، ولا يمكن أن يحدث، أنْ يُسبَر غوره، لأن الرب لم يعطنا إلاّ الألغاز؟ وفي الجمال تلتقي الضفتان معاً، وتُتَجاوَز كل التناقضات. لست أنا بالرجل المثقف، يا أخي ، لكني فكرت في هذا كثيرا. والحقيقة أن هناك ألغازاً لا حدّ لها، ألغازاً بالغة الكثرة، تهوي بالانسان إلى الأرض ، ونحن نخمّن فيها قدر استطاعتنا، ونخرج من الماء دون بلل. الجمال ! لا أستطيع احتمال فكرة أن رجلاً نبيل القلب وسامي العقل يبدأ بمثال العذراء، وينتهي بمثال سدوم. والأكثر فظاعة أن الرجل الذي يحمل في روحه مثال سدوم لا ينكر مثال العذراء، كما كان في أيام براءته الشابة، أجل، فقلب الانسان واسع، بالغ الاتساع حقا، كنت أتمنى لو كان أضيق. فالشيطان وحده يعلم ما يمكن أن نفعل به! ولكن ما يعتبره العقل مخجلا، يبدو في الغالب رائع الجمال للقلب. هل هناك جمال في سدوم صدقني، إن معظم الرجال يجدون جمالهم في سدوم هل كنت تعرف هذا السر؟ الشيء المخيف هو أن الجمال ليس رهيباً فحسب بل وغامض أيضاً. فالرب والشيطان يتقاتلان هناك، وميدان معركتهم هو قلب الانسان، ولكن قلب الانسان يريد فقط أن يتحدث عن لواعجه. أنصتْ ، سأروي لك الآن ما يقول..

(دوستويفسكي، الأخوة كرامازوف)



الفصل الأول

كنت أدّعي لسنوات طويلة أن بوسعي تذكر أشياء شاهدتها وقت ميلادي. وكلما قلت ذلك، كان الكبار يضحكون في البداية، لكنهم بعد ذلك، يتساءلون عما إذا كانت هناك خدعة وهم ينظرون إلى الوجه الشاحب للطفل الذي ليس كالأطفال. وكان يحدث أحياناً أن أقول ذلك في حضور زوّار ليسوا من الأصدقاء المقرّبين للعائلة، وعندها كانت جدتي تقاطعني بصوت حاد وتطلب مني الانصراف لألعب في مكان آخر، خشية أن يحسبوني أحمقا.

وبينما كانت الابتسامات لا زالت باقية بعد الضحك، كان الكبار عادة يمضون في محاولة لضمد ما قلت بنوع من التفسير العلمي وفي محاولة ابتكار تفسير يمكن أن يستوعبه عقل طفل، كانوا دائما يبدأون ثرثرة فيها غير قليل من الحمية الدرامية، قائلين إن عيون الوليد لا تكون قد انفتحت عند الميلاد، وأنه حتى لو انفتحت عيناه بالكامل، فإن ذلك الطفل الحديث الولادة لا يكون بوسعه أن يرى الأشياء بالوضوح الكافي لتذكرها.

ويتساءلون أليس ذلك صحيحا؟ ويهزّون الكتف الصغير للطفل الذي لم يقتنع بعد. ولكن حتى في تلك اللحظة يبدو أنهم تساورهم فكرة مؤدّاها أنهم على وشك الوقوع في خدعة الصبي: فحتى وإن ظننا أنه طفل، فلا يجب أن نتخلّ عن حذرنا. فالأفاق الصغير يسعى بالتأكيد، إلى خداعنا لنروي له « ذلك »، ثمّ ما الذي يمنعه من أن يسأل، بمزيد من البراءة الأكثر طفولية « من أين جئت؟ كيف ولدت؟ » وفي النهاية يتفحصونني بنظراتهم مرة أخرى، في صمت، بابتسامة خفيفة متجمدة على شفاههم. ولسبب لم استطع أبداً أن أفهمه يظهرون أن مشاعرهم جرحت جرحا عميقا..

ولكن مخاوفهم كانت بلا أساس، فلم تكن لدّي أدنى رغبة في السؤال عن « ذلك » . وحتى لو أردت أن أسأل، فقد كنت شديد الخوف من جرح مشاعر الكبار لدرجة أن فكرة اللجوء للخداع لم تكن لتخطر لي أبداً.

ومهما شرحوا لي، ومهما ضحكوا مني، فلم أكن أستطيع إلاّ أن أعتقد أني أذكر مولدي، وربما كان أساس ذكرياتي شيئاً سمعته من شخص كان حاضراً في ذلك الوقت، وربما كان أساس ذلك مجرد تخيلات متعمدة تخصني، ومهما كان ذلك، فقد كان هناك شيء واحد كنت واثقاً أني رأيته بوضوح، بعيني هاتين، كانت تلك حافة الحوض الذي حصلت فيه على أول حمام. كان حوضاً جديدا تماماً وسطحه الخشبي مسوّى لدرجة النعومة الحريرية والطازجة، وعندما نظرت من الداخل، كان شعاع من الضوء يرسل بقعة على حافته. وكان الخشب يلمع في تلك البقعة الواحدة فقط، وبدا كأنه مصنوع من الذهب، وتدلّت أطراف ألسنة من الماء مترددة كأنها توشك أن تلعق البقعة، دون أن تصل إليها أبداً. وسواء بسبب الانعكاس أو لأن شعاع الضوء كان يفيض على الحوض أيضاً، فقد كان الماء تحت تلك البقعة على الحافة، يلمع بنعومة، وبدا أن موجات صغيرة لامعة تتخابط رؤوسها هناك. .

وكانت أقوى قرينة ضد هذه الذكرى هي حقيقة أنني ولدت، لا في النهار، بل في التاسعة مساء: فلم يكن يمكن أن يكون هناك ضوء متدفق من الشمس. ورغم ضيقي بالقول « إذنْ فلا بدّ أنه كان ضوءا كثيرا » فقد كان بوسعي دون صعوبة كبيرة، أن أواصل عبث الاعتقاد بأنه، ولو كان منتصف الليل، فلا شك أن شعاعاً من نور الشمس كان ساقطاً على تلك البقعة، على الأقل، فوق الحوض. وهكذا ظلّت حافة ذلك الحوض والضوء المرتعش عليه قائمين في ذاكرتي كشيء رأيته يقينا، وقت حمّامي الأول. .

ولدت بعد عامين من الزلزال الكبير. قبل ذلك بعشر سنوات، ونتيجة لفضيحة حدثت عندما كان جدي في الخدمة كحاكم مستعمرة، تحمّل جدي كل اللوم عن أخطاء واحد من مرؤوسيه واستقال من منصبه . (أنا لا أنتقي ألفاظي: فحتى الآن لم أر أبداً ثقة تامة الغباء كتلك التي كان يثقها جدي في الكائنات البشرية) منذ تلك اللحظة بدأت أسرتي تنزلق على منحدر بسرعة لا مبالية لدرجة أني أستطيع القول إنهم ــ تقريباً ــ كانوا يدندنون بمرح وهم ينزلقون: ديون ضخمة، مصادرة عقارات مرهونة، بيع ضيعة الأسرة، ثمّ ، ومع تضاعف المصاعب المالية، غرور مريض

يشتعل أكثر فأكثر كدافع شريد..

نتيجة لذلك ولدت في منطقة ليست ممتازة للغاية من طوكيو، في منزل قديم مؤجر. كان منزلا عليه سمة الادعاء، يقع على ناصية وله مظهر مختلط وحقير وداكن. كانت له بوابة حديدية مهيبة، وحديقة في المدخل، وغرفة استقبال على النمط الأوروبي، كبيرة كأنها قاعة كنيسة من كنائس الضواحي. كان هناك طابقان على المنحدر العلوي، وثلاثة في السفلي، وغرف عديدة معتمة، وست خادمات. وفي هذا المنزل، الذي كان يصرّ كأنه خزانة قديمة، كان عشرة أشخاص يقومون ويرقدون صباح مساء ـ جدي وجدتي وأبي وأمي والخدم.

وقد كان مصدر متاعب الأسرة عشق جدي للمشروعات، ومرض جدتي وميلها للبذخ، وغالباً ما كان جدي يسافر إلى أماكن قصية، تحت اغراء المشاريع التي كان يجيء بها المأفونون، وهو يحلم أحلاما ذهبية. كانت جدتي سليلة أسرة عريقة، وكانت تكره جدي وتحتقره. كانت ضيقة الأفق وروحها جامحة، تميل إلى أن تكون شاعرية بشكل وحشي، كانت حالة من العصاب في دماغها، تنهش بشكل ثابت وإنْ كان غير مباشر، في أعصابها، مضيفة في الوقت ذاته حدة لا طائل من ورائها، إلى ذهنها. ومَنْ يدري ربما لم تكن نوبات الاكتئاب التي ظلت تراودوها حتى موتها سوى ذكرى الخطايا التي انغمس فيها جدي في فتوته؟

إلى هذا البيت جاء أبي بأمي، عروساً جميلة وضعيفة.

وفي صباح ٤ يناير ١٩٢٥ نزلت بأمي آلام المخاض. وفي التاسعة من ذلك المساء ولدت طفلا صغيرا يزن خمسة أرطال وست اونصات.

وفي مساء اليوم السابع لفوا الطفل في ملابس داخلية من الفانلة ومن الحرير بلون الكريم، وكيمونو من الحرير الكريب ذي النقوش الصارخة. وأمام أهل البيت جميعاً رسم جدي اسمي على شريط من ورق الاحتفالات ووضعه فوق قائم القرابين في «التوكوغما».

كان شعري أميل إلى الشقرة لفترة طويلة، لكنهم ظلوا يضعون عليه زيت الزيتون حتى مال إلى السواد أخيراً.

وعاش والداي في الطابق الثاني من المنزل. وبدعوى أنه من الخطر تنشئة طفل في دور علوي، اختطفتني جدتي من ذراعي أمي في يومي التاسع والأربعين. كان فراشي قائمًا في غرفة جدتي المريضة، المغلقة أبداً والمختنقة بروائح المرض

والشيخوخة، وقد نشأت هناك بجوار فراش مرضها.

وعندما أكملت العام الأول تقريباً، سقطت من فوق الدرجة الثالثة من السلم وجرحت في جبهتي. كانت جدتي قد ذهبت إلى المسرح وكانت بنات عمومة أبي ومعهن أبي يستمتعن استمتاعا صاخبا بهذه الاستراحة. وانتهزت أمي فرصة سنحت لتحمل شيئاً ما إلى الطابق الثاني. وعندما تبعتها، تعثّرت في ذيل تنورة الكيمونو وسقطت..

استدعيت جدتي بالتليفون من مسرح كابوكي. وعندما وصلت، خرج جدي للقائها. وقفت في المدخل دون أن تخلع نعليها، مستندة على العصا التي كانت تحملها في يدها اليمنى، وهي تحدِّق في جدي. وعندما تكلمت، كان ذلك بنغمة غريبة الهدوء، كأنهاتنحتٍ كل لفظ:

« هل مات؟ »

« كلا »

وبعد ذلك، خلعت نعليها وصعدت داخلة ومشت بخطوات واثقة كأنها كاهنة..

وفي صباح العام الجديد، قبيل عيد ميلادي الرابع، تقيأت شيئاً له لون القهوة. واستدعي طبيب الأسرة، وبعد أن فحصني، قال إنه ليس واثقاً أنى سأشفى، وحُقِنت بالكافور والجلوكوز حتى أصبحت كوسادة الدبابيس، وصار النبض في رسغي وأعلى ساعدي لا يكاد يبين.

مرت ساعتان، وقفوا ينظرون خلالها إلى جثماني.

جرى تحضير الكفن، وجمعت لعبي المفضلة، واجتمع كل أقاربي، ومرت ساعة أخرى تقريباً، وفجأة ظهر البول وقال خالي، الذي كان طبيبا، : « إنه حي » ! وقال إن ذلك أظهر أن القلب استأنف نبضه.

وبعد ذلك بقليل ظهر البول مرة أخرىٰ. وبالتدريج انبعث في وجنتي ضوء الحياة الغامض.

وأصبح ذلك المرض ــ التسمم الذاتي ــ مزمناً معي. كان ينزل بي مرة في الشهر، خفيفاً مرة، وشديداً مرة. ومررت بأزمات كثيرة. ومع اقتراب المرض كنت أستطيع من وقع خطواته، أن أتبين ما إذا كانت النوبة حريّة بأن تقترب من

الموت أم لا.

أقدم ذكرياتي، تلك التي لا يمكن أن تكون موضع تساؤل ، والتي تطاردني بصورة غريبة الحيوية، يعود تاريخها إلى ذلك الوقت تقريبا.

ولا أدري ما إذا كانت أمي، أو الممرضة، أو الخادم أو إحدى العمات هي التي أخذتني من يدي. ولا أميّز حتى ذلك الفصل من السنة. كان ضوء شمس ما بعد الظهر يسقط باهتاً على المنازل بطول المنحدر، وكنت أنا ـ تقودني يد المرأة التي لا أذكرها ـ ، أصعد المنحدر تجاه البيت. كان شخص ما يهبط المنحدر، وجذبت المرأة يدي بشدة، وانحرفنا عن الطريق ووقفنا ننتظر على أحد جانبيه.

لا شك أن صورة ما رأيته عندئذٍ كانت تكتسب معنى جديدا كل مرة من المرات التي لا تُحصى والتي استعرضتها وكثفتها وركّزت عليها. ذلك أنه في المحيط القائم للمشهد لا يظهر إلاّ شكل ذلك « الشخص الذي يهبط المنحدر » بوضوح غير ملائم. وليس ذلك بلا سبب، فتلك الصورة ذاتها هي الأبكر بين الصور التي ظلّت تعذبني وتخيفني طوال حياتي.

كان شاباً ذلك الذي كان يهبط باتجاهنا، ذا وجنتين جميلتين متوردتين وعينين برّاقتين، يرتدي خرقة قذرة فوق رأسه كعصابة، كان ينزل المنحدر وهو يحمل نيراً به دلوان من القاذورات على أحد كتفيه وهو يوازن ثقليهما بمهارة مع خطواته. كان جامع قاذورات، نازح فضلات. كان يرتدي ملابس العمال، وينتعل حذاء مشقوقا من أمام بنعل من المطاط ووجه من القنّب الأسود، وسروال من القطن الكحلي الضيق من النوع المسمى « نازع الفخذ ».

وكانت النظرة التي ألقيتها على الشاب فاحصة بشكل لا يتناسب مع طفل في الرابعة، ورغم أني لم أدرك ذلك حينئذٍ، فقد كان يمثل بالنسبة لي التجليّ الأول لقوة معينة، النداء الأول الصادر إليّ من صوت معين، سري وغريب ومما له مغزاه أن ذلك قد تجسّد لي لأول مرة في شكل جامع القاذورات: فالغائط رمز للأرض، ولا شك أن الحب الشرير للأرض الأم هو الذي كان يناديني.

وقد كان لدّي عندئذٍ شعور مبكر بأنه في هذا العالم يوجد نوع من الرغبة كالألم اللاذع، فعندما تطلّعت إلى ذلك الشاب القذر، خنقتني الرغبة، وأنا أذكر « أريد أن أتحول إليه » وأفكر: « أريد أن أكونه »، وبوسعي أن اتذكر بوضوح أن

ذاكرتي كانت لها بؤرة، من نقطتين. كانت الأولى سرواله الكحلي «نازع الفخذ» والأخرى مهنته. فقد كان الجينز اللاصق به يحدد بوضوح النصف الأسفل من جسمه، الذي كان يتحرك حركة لدنة وكأنه يمشي تجاهي مباشرة. وتولّد فيّ عشق لا يمكن التعبير عنه لهذا السروال. ولم أفهم السبب.

مهنته.. في تلك اللحظة، وبنفس الطريقة التي يرغب بها الأطفال الآخرون، بمجرد أن تكون لديهم ذاكرة، أن يصبحوا جنرالات، تملكني طموح أن أجد جامع قاذورات، وقد يكون أصل هذا الطموح، في جزء منه، في الجينز الكحلي، ولكن بالتأكيد ليس ذلك كل شيء، فقد أصبح هذا الطموح بمرور الوقت أكثر قوة، ومع اتساعه بداخلي، شهد تطوراً غريباً.

وما أعنيه هو أني كنت أشعر تجاه هذه المهنة بشيء كالحنين إلى أسى محرق، أسف يعصف بالبدن، فقد كانت مهنته تعطيني الاحساس بـ «المأساة» بأكثر معانيها حسية. نوع من الشعور كأنه «انكار الذات» نوع من الشعور باللامبالاة، نوع من الشعور بالإلفة مع الخطر، شعور يشبه خليطا رائعا من اللاشيئية والقوة الحيوية ــ كل هذه المشاعر انبثقت من حرفته، ونزلت عليّ وأسرتني، في سني الرابعة. وربما كان لدّي تصور خاطىء عن عمل جامع القاذورات. وربما ذكرت لي مهنة مختلفة، وعندما ضللتني ملابسه، كنت أفتعل التناسب بين وظيفته وبين اطار ما سمعته. ولا أستطيع أن أفسّر ذلك بشكل آخر.

ولا شك أن الأمر كان كذلك، لأن طموحي قد تحول الآن، وبنفس هذه العواطف ذاتها، إلى عمال الـ«هانادينشا» تلك العربات المزينة بكل بهجة بالزهور لأيام الأعياد ــ أو تحولت مرة أخرى إلى مفتشي تذاكر المترو. فكلتا الوظيفتين أعطياني احساساً قويا بـ «الحياة المأساوية» التي كنت أجهلها والتي بدا أني محروم منها إلى الأبد. وكان ذلك صحيحا بشكل خاص، في حالة مفتش التذاكر: صفوف الأزرار الذهبية فوق سترات زيهم الأزرق اختلطت في ذهني بالعبق الذي كان يحلّق خلال عربات المترو في تلك الأيام ــ كان أشبه برائحة المطاط أو النعنع البستاني ــ والذي كان يثير على الفور تداعيات عقلية عن «أشياء مأساوية». وبشكل ما شعرت بأنه كان «مأساويا» لشخص ما أن يسعى وراء رزقه في مثل هذا العبق، فالحيوات والأحداث التي كانت تقع دون أي علاقة بذاتي، تقع في أماكن لها جاذبيتها بالنسبة لحواسي، وفي الوقت نفسه محرّمة عليّ ــ هذه، ومعها الناس المتورطون فيها، كانت تمثل ما أعرّفه بأنه «الأشياء المأساوية» وكان يبدو

أن حزني بسبب حرماني الأبدي كان يتحول دائمًا في أحلامي التي مرت من أجل هؤلاء الأشخاص وطرائق حياتهم، وأنه من خلال حزني فقط كنت أحاول أن أشاركهم وجودهم.

ولو كان الأمر كذلك، فإن ما يسمى بـ « الأشياء المأساوية » التي أصبحتُ مدركاً لها، لم تكن سوى ظلال ألقاها توهج شعور مبكر بالحزن الأكبر في المستقبل، بنفي أكثر عزلة كأنه سيأتي..

هناك ذكرى مبكرة أخرى، تشمل كتابا مصورا. ورغم أني تعلمت أن أقرأ وأكتب عندما كنت في الخامسة، فلم يكن بوسعي بعد أن أقرأ الكلمات في الكتاب، وهكذا فلا بدّ أن هذه الذكرى تعود أيضاً إلى سن الرابعة.

كانت لدّي عدة كتب مصورة ، حوالي ذلك الوقت، ولكن ما أسر خيالي بشكل كامل، هو هذا الكتاب فقط ـ وفقط تلك الصورة المذهلة فيه. كان بوسعي أن أزجي الأصائل الطويلة والمملّة حالما أحدِّق فيها، ورغم ذلك فقد كنت، إذا جاء أحد، وبدون سبب ، أشعر بالذنب، وانتقل سريعا إلى صفحة أخرى، وكانت يقظة الممرضة أو الخادم تضايقني بما يتجاوز احتمالي. كنت أحنّ لحياة تسمح لي بأن أحدِّق في تلك الصورة طوال النهار. وكلما عدت إلى تلك الصفحة تسارعت دقات قلبي. ولم تكن أي صفحة أخرى تعني أي شيء لي.

كانت الصورة عبارة عن فارس يعتلي حصاناً أبيض، ويدفع السيف عاليا، وكان الحصان، وقد اتسع منخراه، يضرب الأرض بقائميه الأماميين، وعلى الدرع الفضي، الذي تدرّع به الفارس، شعار نبالة جميل، كان وجه الفارس الجميل يطل من تحت حافة الخوذة وهو يلوح بسيفه المجرد، بشكل يبعث الرهبة، تحت السماء الزرقاء في مواجهة الموت، أو على الأقل شيء موذٍ مليء بقوة الشر. كنت موقناً أنه سيقتل في اللحظة التالية: إذا قلبت الصفحة سريعا، فمن المؤكد أني سأراه وهو يقتل. ومن المؤكد أن هناك ترتيباً ما، يمكن بواسطته، وقبل أن يدرك أحد، أن تتحول الصور في كتاب مصور إلى اللحظة التالية..

ولكن حدث أن ممرضتي فتحت الكتاب ذات يوم على تلك الصفحة. وبينما كنت أسترق نظرات جانبية سريعة إليها قالت لي:

« هل يعرف السيد الصغير قصة هذه الصورة؟ »

« كلا، لا أعرفها »

« إنها تبدو كرجل، لكنها امرأة. حقاً. واسمها جان دارك وتقول القصة إنها ذهبت إلى الحرب ترتدي ملابس رجل وخدمت بلادها »

« امرأة. . . . . ؟

شعرت كأن ضربة طرحتني أرضاً. الشخص الذي ظننته « هو » كان « هي ». إذا كان ذلك الفارس الجميل امرأة لا رجلاً ، فماذا تبقّى؟ (وحتى اليوم فإني أشعر بالنفور، العميق الجذور والذي يصعب التعبير عنه، إزاء المرأة التي ترتدي ملابس الرجال) كان ذلك أول « انتقام بالحقيقة » قابلني في حياتي، وبدا لي قاسيا، خاصة فيما يتعلّق بالخيالات العذبة التي تعلّقت بها، فيما يختص بمصرعه. منذ ذلك اليوم أدرت ظهري لذلك الكتاب المصور. ولم أكن أعبأ حتى بأن أحمله في يدي ثانية. وبعد ذلك بسنوات اكتشفت تمجيد الموت لفارس جميل في نظمٍ لأوسكار وايلد:

جميل هو الفارس الذي يرقد ذبيحاً

بين الأسل والدغل

وفي رواية « هناك » يناقش « هويزمان » شخصية « جيل دوري »، الحارس الشخصي لجان دارك بأمر ملكي من شارل السابع، قائلاً إنه وإنْ انحرف بعد ذلك مباشرة إلى « أعند أعمال القسوة وأكثر الجرائم ترويعاً » فإن الدافع الأصلي لصوفيته جاء من أنه رأى بعينيه كل أنواع الخوارق التي أتت بها جان دارك ، ورغم أن تأثيرها عليّ كان معاكساً، مثيراً لدّي شعورا بالنفور، فقد لعبت عذراء أورليانز أيضاً، دوراً هاماً في حالتي. .

وذكرى أخرى بعد ذلك : إنها رائحة العرق، رائحة كانت تدفعني للأمام، توقظ حنيني، وتسيطر عليّ. .

وعندما كنت أرهف سمعي، كنت أسمع صوت تحطم مكتوم وبالغ الضعف، ويبدو كأنه الوعيد. ومن حين لحين يصحبه بوق. ويقترب صوت غناء بسيط ومنتحب بشكل غريب. أتعلّق بيد خادم، وأحثّها على أن تسرع وتسرع، ملهوفا على أن أقف بجوار البوابة، محاطاً بذراعيها.

كانوا جنودا يمرون أمام بوابتنا عائدين من التدريب. الجنود مغرمون بالأطفال، وكنت أتطلّع دائمًا إلى الحصول على بعض الطلقات الفارغة منهم.

ولأن جدي قد حظّر عليّ قبول هذه الهدايا، قائلاً إنها خطيرة ، فقد كان ذلك التطلّع يزداد حدة بفرحة السرقة. الوقع الثقيل للأحذية العسكرية، والزي المموه، وغابة البنادق المعلقة على الأكتاف كافية لأن تسحر أي طفل تماماً. لكن رائحة عرقهم هي التي كانت تسحرني، مكونة الدافع الذي يكمن مختبئا وراء أملي في الحصول على الخراطيش منهم.

رائحة عرق الجنود، تلك الرائحة كنسمة بحرية، كالهواء الذي يتحوّل بالاحتراق إلى ذهب فوق الساحل ـ كانت تضرب منخري وتسكرني. ربما كانت هذه أول ذكرياتي عن الروائح، ولا حاجة بي إلى القول بأن الروائح لم يكن يمكن أن يكون لها، في ذلك الوقت، اي ارتباط مباشر بالأحاسيس الجنسية، لكنها كانت تثير بداخلي تدريجياً وباصرار، حنيناً حسياً لأشياء مثل مصير الجنود، والطبيعة المأساوية لمهنتهم، والبلاد البعيدة التي يمكن أن يروها، وكيف يموتون. .

هذه الصورة الغريبة كانت أول الأشياء التي قابلتها في الحياة. وكانت تنتصب أمامي منذ البداية، في كمال بارع حقا. لم يكن ينقصها شيء، وفي السنوات التالية كنت أبحث فيها عن منابع مشاعري وأفعالي، ومرة أخرى لم يكن ينقصها شيء. . .

منذ الطفولة وأفكاري عن الوجود البشري لم تنحرف مرة واحدة عن النظرية الاوغسطينية عن القدرية. ومرة بعد مرة كانت تعذّبني الشكوك العقيمة ـ بل ولا تزال تعذبني ـ لكني كنت أعتبر مثل هذه الشكوك نوعاً آخر من الاغراء بالخطيئة، وبقيت راسخاً في آرائي القدرية. . لقد تسلّمت ما يمكن أن يُسمَى « بالقائمة » الكاملة لكل متاعب حياتي بينما كنت أصغر من أن أقرأها. ولكن ما توجّب عليّ عمله كان أن أفرش منديلي وأواجه المائدة. بل إن حقيقة أني أكتب الآن كتابا غريبا كهذا، كانت مسجلة بدقة في القائمة، حيث كان يجب أن تكون أمامي من البداية.

عهد الطفولة هو مرحلة يتشابك فيها الزمان والمكان. وعلى سبيل المثال، فقد كانت هناك الأخبار التي أسمعها من الكبار عن أحداث في مختلف البلاد ـ انفجار بركان، مثلاً، أو تمرد جيش ـ والأشياء التي كانت تحدث أمام عيني ـ نوبات جدتي أو الشجارات العائلية الصغيرة ـ والأحداث الخيالية في عالم الحكايات الخرافية التي كنت قد غرقت فيه عندئذٍ: هذه الأشياء الثلاثة كانت تبدو لي دائمًا متساوية القيمة ومتماثلة في النوعية لم يكن بوسعي أن أصدق أن العالم

أعقد من هيكل مكوّن من أحجار البناء، ولا أن ما يُسمى «المشترك الاجتماعي» الذي يجب عليّ الآن أن أدخله، يمكن أن يكون مبهرا أكثر من عالم الحكايات الخرافية. وهكذا، وبدون أن أدري، بدأ واحد من مقررات حياتي يفعل فعله. وبسبب نضالي ضده، فقد كانت خيالاتي من البداية، مشوبة باليأس، وكاملة بشكل غريب، ومشابهة في ذاتها للرغبة الجامحة..

ذات ليلة رأيت وأنا في فراشي مدينة مضيئة تطفو فوق اتساع الظلمة المحيطة بي. كانت هادئة هدوءا غريبا، ومع ذلك فقد كانت تفيض بالبريق والغموض. كان بوسعي أن أرى بوضوح علامة صوفية موسومة على وجوه الأشخاص في تلك المدينة. كانوا بالغين، عائدين إلى بيوتهم في هدأة الليل، ولا تزال عالقة بحديثهم أو بايماءاتهم بقايا شيء كأنه العلامات السرية والعلامات المقابلة، شيء تفوح منه الماسونية وأكثر من ذلك، فقد كان يلمع في وجوههم ارهاق مضيء يجعلهم يجفلون من أن ينظر إليهم في الوجه مباشرة. وكما يحدث بالنسبة لأقنعة الأعياد التي تترك مسحوق الفضة على أطراف الأصابع عندما يلمسها المرء، بدا لي أني لو استطعت فقط أن ألمس وجوههم، فقد يتسنى لي أن اكتشف لون الصبغة التي دهنتهم بها المدينة.

عندئذٍ يزيح الليل ستاراً أمام عيني مباشرة، ليكشف عن المسرح الذي تؤدّي فوقة «شوكيوكوازي تنكاتسو» أعمالها السحرية (كانت عندئذ تظهر في مرة من المرات النادرة على مسرح في منطقة شنجوكو، ورغم أن عرض الساحر دانتي، الذي رأيته على نفس المسرح بعد ذلك بسنوات، كان أضخم من عرضها بمرات كثيرة، فلا دانتي ولا حتى العرض العالمي لسرك هاجنيك أذهلاني كما أذهلتني مشاهدتي الأولى لتنكاتسو).

راحت تتسكع بتراخٍ على المسرح، وجسدها الوافر مغطى في أردية كأردية المومس العظيمة في سفر الرؤيا. وعلى ذراعيها أساور برّاقة تكوّمت عليها جواهر صناعية، وكان ماكياجها ثقيلا كماكياج منشدة الملاحم، بطبقة من البودرة البيضاء تمتد حتى أطراف أصابع قدميها، وقد ارتدت حلّة مبهرجة أكسبت شخصها بريقا كابيا لا يتأتىّ إلاّ من السلع الرخيصة. ومع ذلك فالغريب حقاً، أن كل ذلك اكتسب تناغمًا حزينا مع ما يحيط بها من تعالي مَنْ يشعرون بأهميتهم الشخصية، الذي يتميز به السحرة والنبلاء المنفيون على السواء، مع سحرها الكئيب وهيئتها البطولية. وقد أنتج الطابع الرقيق للظل الذي ألْقته هذه العناصر المتنافرة وهم

تناسق مذهل وفريد خاص به.

وقد فهمت وإنْ يكن بشكل غامض، أن الرغبة « في أن اكون تنكاتسو » و « أن أكون سائقاً » تختلفان في الجوهر. والتباين الأكثر وضوحا بينهما هو حقيقة أنه في حالة تنكاتسو فإن الحنين إلى تلك « الخاصية المأساوية » كانت تفتقده تماما وفي رغبتي أن أصبح تنكاتسو لم يكن عليّ أن أتذوّق ذلك الخليط المرير من الحنين والخجل. ومع ذلك فقد تسللت ذات يوم، وأنا أحاول جهدي أن أهدّىء ضربات قلبي، إلى غرفة أمي وفتحت أدراج خزانة ثيابها.

ومن بين كومونوات أمي سحبت أفخمها، ذا الألوان الأقوى، واخترت أن أتمنطق بوشاح « اوبي » به ورود قرمزية مرسومة بالزيت ، ولففته وسطي بأسلوب الباشوات الأتراك، وغطيت رأسي بملفعة من الكريب دي شين. تورّدت وجنتاي بهجة وحشية عندما وقفت أمام المرآة ورأيت أن رداء الرأس المرتجل هذا يشبه ما كان يرتديه القراصنة في «جزيرة الكنز».

ولكن عملي كان لا يزال بعيداً عن الاكتمال. فقد كان لابدّ لكل نقطة فيّ، وحتى أطراف أظافري ، أن تصبح جديرة بالابداع السري. ثبّت مرآة يد في الزنار ونثرت على وجهي قليلا من البودرة. ثمّ سلحت نفسي بمصباح يدوي مفضض، وقلم حبر عتيق من معدن منقوش، واي شيء آخر وقعت عليه عيني.

واتخذت هيئة الجد، وأنا على هذه الهيئة، واندفعت إلى غـرفة جلوس جدتي، ورحت أركض في أنحاء الغرفة غير قادر على أن أتم البهجة والسرور المهتاجين:

« أنا تنكاتسو، أنا، أنا تنكاتسو »

كانت جدتي مريضة في فراشها هناك، وكانت هناك أيضاً أمي واحدى الزائرات والخادم المكلفة بغرفة المرض ولكن عيني لم تميزا شخصا واحدا. لقد تركّز هياجي على ادراك أن تنكاتسو، من خلال تشخيصي، قد تجلّت أمام عيون كثيرة، وباختصار، فلم يكن بمقدوري أن أرى إلاّ نفسي.

ثم تصادف أن لمحت وجه أمي. كانت قد شحبت قليلا وكانت تجلس هناك ببساطة كأنها شاردة اللب. التقت نظراتنا، ونكّست عينيها.

وفهمت. غشت الدموع عيني.

ما الذي فهمته في تلك اللحظة، أو كنت على وشك أن أفهمه، هل كانت موضوعة السنوات التالية_ موضوعة « الندم كمدخل للخطيئة » _ تظهر هنا أول بادرة لابتدائها؟ أم كانت اللحظة تعلمني إلى أي مدى تبدو عزلتي مضحكة في عيون الحب، وهل كنت في الوقت ذاته أتعلم، من الجانب العكسي للدرس، مدى عجزي عن قبول الحب؟..

أمسكت بي الخادم وأخذتني إلى غرفة أخرى. وفي لحظة، وكما لو كنت فروجا ينتف ريشه، نزعت عني تنكري الصارخ.

وتفاقمت رغبتي في مثل هذا التزيي عندما بدأت أذهب إلى السينما واستمرت واضحة حتى بلغت حوالي التاسعة..

وذهبت ذات مرة مع خادمنا التلميذ لأرى النسخة الفيلمية من اوبريت «فرا ديافولو» وكان الشخص الذي لعب دور ديافولو يرتدي حلّة لا تُنسَى من حلل البلاط، على أكمامها فيض من الأشرطة. وعندما بينت إلى أي مدى أحب أن ألبس هكذا واعتمر مثل هذه الباروكة، ضحك التلميذ ساخرا، ومع ذلك فقد علمت أنه غالباً ما يسلي الخدم في جناحهم بتقليده لتشخيص كابوكي للأميرة يايجاكي.

وبعد تنكاتسو سحرتني كليوباترة. فذات يوم جليدي قرب نهاية ديسمبر، استجاب طبيب صديق لتوسلاتي، وأخذني لمشاهدة فيلم عنها. ولأننا كنا في نهاية العام فقد كان الجمهور صغيرا. رفع الطبيب قدميه فوق الدرابزين وأغفى ورحت أحدِّق وحيداً بهم، وأنا مسحور تماما: ملكة مصر تدخل روما، وقد حُمِلت عاليا فوق محفة قديمة غريبة الصنع، على أكتاف جمهرة من العبيد. كانت عيناها حزينتان، والجفون مثقلة بطلاء الاي شادو، وملابسها من عالم آخر، وبعد ذلك، جسدها نصف العاري، العنبري اللون وهو يبرز للعيان من داخل سجادة ايرانية.

هذه المرة، وقد أصبحت أجد لذة كاملة في السلوك السيىء، غافلت جدتي وأبوي، واتخذت من شقيقتي وشقيقي الأصغرين شركاء، وكرّست نفسي للتزيي بزي كليوباتره، ما الذي كنت آمله من وراء هذا الملبس الأنثوي؟ ولم أكتشف إلاّ بعد وقت طويل أن آمالا كآمالي كانت تراود هليوجابالوس، امبراطور روما في عهد انحطاطها، ذلك الذي دمّر آلهة روما القديمة، ذلك العاهل المنحل الشهواني.

جامع القاذورات وعذراء أورليانز ورائحة عرق الجنود كونّت فيما بينها نوعا من الفاتحة لحياتي. تنكاتسو وكليوباترا كانا في المقام الثاني. ويبقى ثالث لا بدّ من أن أرويه.

رغم أني كطفل كنت أقرأ كل ما تقع عليه يداي من حكايات خرافيه، فلم أكن أحب الأميرات أبداً. كنت مغرماً بالأمراء فقط. وكنت أكثر غراماً بالأمراء الذين يقتلون أو يقضى عليهم بالموت. كنت أغرق في حب أي شاب يقتل.

لكني لم أفهم لماذا ألقت قصة «عفريت الوردة» لأندرسون، دون غيرها من حكاياته الخرافية، ظلالاً عميقة على قلبي. ذلك الشاب الجميل وحده، ذلك الذي طعن حتى الموت وفصلت رأسه بسكين كبير في يد شرير، بينما هو يقبل الوردة التي منحت له من محبوبته كشاهد على حبها، بل إني لم أفهم لماذا، من بين حكايات وايلد الخرافية العديدة، كان فقط جثمان الصياد الشاب في «الصياد وروحه» وقد قذفت به الأمواج إلى الشاطىء وهو متشبث بعروس البحر، هو الذي أسرني.

طبيعي أني كنت، أيضاً، مولعاً بما فيه الكفاية بأشياء طفولية أخرى. كان هناك «عندليب» أندرسن الذي أحببته كثيرا، وكنت أستمتع بكثير من كتب الأطفال الفكاهية. ولكن ميل قلبي نحو الموت والليل والدم لا يمكن انكاره.

كانت رؤى «الأمراء المذبوحين» تطاردني باصرار. منذا الذي كان يمكن أن يفسِّر لي السبب في تلذذي إلى هذه الدرجة بالخيالات التي اقترنت فيها الملابس الضيقة الكاشفه عن الجسد، التي كان يرتديها الامراء، بمصارعهم العنيفة؟ هناك حكاية خرافية هنجارية أتذكرها بالذات، في هذا الخصوص. وقد ظلّ قلبي لوقت طويل، أسير رسم توضيحي بالغ الواقعية، لهذه القصة...

وقد كان الرسم، المطبوع بألوان أولية، يظهر الأمير مرتدياً ملابس ضيقة سوداء، وسترة وردية اللون، مطرزة بغزل الذهب على الصدر. وعلى كتفيه عباءة كحلية عليها خط قرمزي، وحول خصره حزام من الأخضر والذهبي، كان مجهزا بخوذة من الأخضر المذهب، وبسيف أحمر براق، وجعبة من الجلد الأخضر. وقد أمسكت يده اليسرى، ذات القفاز الجلدي الابيض، بالقوس، واستراحت يده اليمنى فوق غصن واحدة من الأشجار العتيقة في الغابة، وبمحياه المتجهم الآمر

كان ينظر إلى العنق المخيف لتنين هائج يوشك أن يهاجمه. كان على وجهه التصميم على الموت. لو كان مقدّراً لهذا الأمير أن ينتصر في صراعه مع التنين، لكان تأثيره عليّ بالغ الضعف، ولكن الأمير، لحسن الحظ، كان مقضياً عليه بالموت.

ومما أشعرني بالأسف، رغم ذلك، أن الحكم عليه بالموت لم يكن كاملا، فلكي ينقذ شقيقته، وأيضاً لكي يتزوج أميرة جميلة، كان على هذا الأمير أن يحتمل عذاب الموت سبع مرات، وبفضل القوى السحرية لماسة كان يحملها في فمه، قام سبع مرات من الموت ، ليعيش في النهاية حياة سعيدة ودائمة.

وقد أظهر الرسم مشهداً سابقا بشكل مباشر للموت الأول ـ عندما كان يلتهمه التنين. بعد ذلك أمسك به عنكبوت ضخم وبعد أن امتلأ جسمه بالسم، التهمه العنكبوت بنهم، « ومرة أخرى غرق، ثمّ شوي في النار، ولدعته الزنابير، وعضته الأفاعي، وأُلقي بجسده في حفرة مليئة بعدد لا يمكن احصاؤه من السكاكين المشرعة لأعلى، ثمّ سُحِق حتى الموت تحت أحجار لا تُحصَى ، سقطت عليه « كالسيل المتدفق ».

وقد وصف مصرعه بين فكي التنين بجزئياته التفصيلية. .

« دون أن يتأخر لحظة، طحن التنين الأمير، بنهم، إلى أجزاء، كان ذلك تقريباً، أكثر مما يحتمل، لكن الأمير استجمع كل شجاعته واحتمل العذاب بثبات حتى طحن في النهاية إلى مزق بشكل تام. ثمّ، في ومضة، تجمعت أجزاؤه فجأة من جديد، وخرج قافزا بخفة من فم التنين. لم يكن هناك خدش واحد في أي موضع من جسمه. وبرك التنين، ومات للحظته ».

قرأت هذا المقطع مئات المرات. لكن الجملة « لم يكن هناك خدش واحد في أي موضع من جسمه »، بدت لي عيبا لا يمكن أن يمر. وعندما قرأتها، شعرت أن المؤلف خانني وارتكب خطأ جسيما، في آنٍ واحد.

وقبل مضي وقت طويل وقعت على اكتشاف . كان ذلك هو قراءة المقطع وقد أخفيت تحت يدي : « تجمعت أجزاؤه فجأة وخرج قافزا بخفة من فم التنين. لم يكن هناك خدش واحد في أي موضع من جسمه . التنين. »

عندئذ أصبحت القصة مثالية:

« دون أن يتأخر لحظة، طحن التنين الأمير بنهم، إلى أجزاء. كان ذلك تقريبا، أكثر مما يحتمل، لكن الأمير استجمع كل شجاعته واحتمل العذاب بثبات حتى طحن في النهاية إلى مزق بشكل تام. ثمّ ، في ومضة، برك ومات للحظته ».

ولا شك أن أي واحد من الكبار كان يمكن أن يرى عبثية هذا النوع من القطع، وحتى ذلك الرقيب الصغير والمغرور كان يميز التناقض الجوهري بين « أن تطحن إلى مزق بشكل « تام » وبين « أن تبرك » - لكنه وقع بسهولة في غواية أوهامه. ووجد أنه لا يزال من المستحيل أن يسقط أيّاً من العبارتين.

من ناحية أخرى، فقد استمتعت بتخيل مواقف كنت أنا نفسي أموت خلالها أثناء المعارك أو أُقتَل. ومع ذلك فقد كان لديّ خوف من الموت قوي بشكل غير عادي. دات يوم كنت أضايق خادما حتى أبكيها، وفي الصباح التالي كنت أراها تقدم الافطار بوجه مرح، وكأن شيئاً لم يحدث. عندئذٍ كنت أقرأ في ابتساماتها كل المعاني الشريرة، فلم أكن أستطيع إلّا أن اعتبرها ابتسامات شيطانية مصدرها أنها واثقة من النصر. كنت واثقاً أنها تتآمر لتسممني بدافع الانتقام، وكانت أمواج الخوف تضطرم في صدري. كنت متيقناً من أن السم دُسّ في وعاء حسائي، ولم أكن لألمسه أبداً. وقد كنت أنهي مثل هذه الوجبات بالقفز بعيداً عن المائدة والتحديق في الخادم كأني اقول « هكذا! » كان يبدو لي أن المرأة أمرّها احباط خطتها لتسميمي حتى أنها لم تعد قادرة على النهوض، وإنْ كانت تحملق عبر المائدة في الحساء، الذي برد تماماً، وقد طفا على سطحه بعض الغبار، قائلة لنفسها إني لم آكل ما يكفي لجعل السم مؤثرا.

وبسبب القلق على صحتي الضعيفة، وأيضاً لمنعي من تعلم أشياء رديئة، منعتني جدتي من اللعب مع أبناء الجيران وكان رفاق لعبي الوحيدون، خلاف الخدم والممرضات ثلاث فتيات اختارتهن جدتي من بين بنات الجيرة. فقد كانت أقل ضجه تؤثّر على الألم العصبي الذي تعاني منه جدتي - فتح الباب أو اغلاقه بعنف أو تغير لعبة أو المصارعة أو أي صوت أو ذبذبة بارزة - وكان يجب أن يكون لعبنا أهدأ من المعتاد حتى بين الفتيات. وقد كان الأفضل بكثير من هذا، بالنسبة لي،

أن أقرأ كتاباً أو أن ألعب بمكعبات البناء أو أن أغرق في خيالاتي الإرادية أو أن أرسم اللوحات. وعندما ولدت شقيقتي وشقيقي لم يُعهَد بهما إلى جدتي كما حدث معي، وحرص أبي على أن ينشآ بالحرية التي تناسب الأطفال. ومع ذلك فلم أحسدهما كثيراً على حيويتهما وفظاظتهما.

ولكن الأشياء بدت مختلفة عندما مضيت لزيارة بيوت أبناء أعمامي. وقد وقعت حادثة، لا بدّ أن تروى، في أوائل ربيع عامي السابع، قبيل دخولي المدرسة الابتدائية، خلال زيارة لابنة عم معينة سوف أدعوها سوجيكو. فلدى وصولنا هناك ـ كانت جدتي تصحبني ـ امتدحتني عمتي الكبرى حتى السموات ـ «كم نما؟ كم أصبح كبيرا؟ »ـ وأخذت جدتي بهذا الاطراء حتى أنها أصدرت تنازلا خاصاً فيما يتعلّق بالوجبات التي تناولتها هناك. فحتى ذلك الوقت كانت شديدة الخوف من تكرر نوبات الاختناق الذاتي التي سبق بالفعل أن ذكرتها، حتى أنها حظّرت عليّ أن آكل جميع الأسماك «ذات الجلد الأزرق» وكان طعامي محددا بعناية: فمن الاسماك، سمح لي فقط بأنواع من ذوات اللحم الأبيض كالهلبوت أو سمك موسى أو النهاش الأحمر، ومن البطاطس ما كان مهروسا ومصفى بالمصفاة فقط. أمّا عن الحلوى فقد منعت كل أنواع المربى البذرية ولم يسمح لي إلاّ بالبسكويت الخفيف ورقائق الشيكولاته وغير ذلك من الحلوى الجافة. ومن الفواكه، التفاح فقط بعد تقطيعه شرائح رقيقة، أو القطع الصغيرة من اليوسفي، ولهذا فقد أكلت في تلك الزيارة في اول فرصة لي من السمك ذي الجلد الازرق ـ ذي الذيل الأصفر ـ الذي التهمته برضى عظيم. وكانت نكهته الرقيقة تعني بالنسبة لي أنني منحت في النهاية، أول حقوقي كبالغ، وإنْ كان في النهاية، ترك لمسة مريرة من الاضطراب على طرف لساني ـ اضطراب مبعثه أني بلغت ـ لا تزال تعدني إلى الشعور بالارتباك كلما تذّوقت تلك النكهة.

كانت سوجيكو فتاة متمتعة بالصحة، وتفيض بالحيوية. ولم أكن أنا نفسي أستطيع النوم بسهولة ، أبداً، وعندما أقمت بمنزلها ورقدت في نفس الغرفة على الحشية المجاورة لحشيتها، كنت أرقب بمزيج ُمن الحسد والاعجاب كيف كانت سوجيكو تغرق في النوم بمجرد انزال رأسها على الوسادة، كالآلة تماما.

وفي منزل سوجيكو كانت لي من الحرية أضعاف ما كان لي في منزلي، وحيث أن الأعداء الخياليين الذين لا بدّ وأنهم يريدون اختطافي ـ وهما أبواي باختصار ـ لم يكونا موجودين. فلم تعد جدتي تتردد في اعطائي مزيداً من

الحرية. فلم تكن هناك حاجة للاحتفاظ بي تحت ناظريها، كما هو الأمر ونحن بالبيت.

ولكني لم أكن قادرا، رغم ذلك، على الاستمتاع بهذه الحرية التي أُتيحت لي استمتاعا عظيما. فكالمريض الذي يخطو أولى خطواته أثناء النقاهة كان لدّي شعور بالتيبس كأني كنت أتصرّف مجبراً بدافع خيالي ما. وافتقدت فراشي الكسول. كما أنه في هذا المنزل كان يُطلَب مني، دون كلام، أن أتصرّف كغلام. وبدأت حفلة التنكر بشيء من التردد. في ذلك الوقت تقريباً، كنت بدأت أفهم بغموض، ميكانيزم حقيقة مؤدّاها أن ما كان يعتبره الناس تظاهراً من جانبي، كان في الحقيقة تعبيراً عن حاجتي إلى تأكيد طبيعتي الحقيقية، وأن ما اعتبره الناس بالتحديد ، ذاتي الحقيقية، هو التنكر.

ذلك التنكر القهري هو الذي دفعني إلى القول:

« لنلعب لعبة الحرب ».

وحيث أن رفيقتي كانتا بنتين ـــ سوجيكو وابنة عم أخرى ـــ فلم تكن لعبة الحرب هي المناسبة حقا. والأكثر من ذلك أن الفارستين المعاديتين لم تظهرا أي علامة من علائم الحماس. وكان دافعي إلى اقتراح لعبة الحرب يكمن أيضاً في احساسي المغلوب بالواجب الاجتماعي: وباختصار فقد شعرت بأنه لا يجب أن أتودد إلى البنتين بل يجب أن اضايقهما بشكل ما.

ورغم أن شعورنا بالملل كان متبادلا، فقد واصلنا لعبتنا الحربية المرتبكة داخل وخارج المنزل الغارق في الغسق. ومن وراء إحدى الشجيرات كانت سوجيكو تقلّد صوت بندقية آلية:

« بانج! بانج! بانج! »

وأخيراً قررت أنه قد آن الأوان لانهاء هذه المسألة ، وانطلقت راكضاً إلى داخل المنزل. وجاءت الفتاتان العسكريتان تطارداني مطلقتين رصاصهما دون انقطاع. بانجـ بانج .ـ بانج. أمسكت قلبي بيدي وسقطت متخشباً وسط البهو.

وسألتني الفتاتان وقد اقتربتا مني بوجهين مضطربين:

« ماذا جرى يا كوتشان؟ »

قلت « إني أموت في الميدان » ولم أفتح عيني أو أحرِّك يدي. غمرتني

السعادة لرؤية جسدي راقداً هناك، مكّوماً وساقطا. كانت هناك سعادة لا توصف في أن يُطلَق عليّ الرصاص وأن أكون على حافة الموت.

وبدا لي أنه ما دام الأمر يتعلق بي، فحتى لو أصابتني رصاصة فعلا، فمن المؤكد أنه لن يكون هناك ألم..

سنوات الطفولة..

تندفع ذاكرتي رأساً نحو مشهد كأنه رمز لتلك السنوات. فبالنسبة لي كما أنا الآن، يمثل هذا المشهد الطفولة ذاتها، كشيء لا يمكن استرجاعه، وعندما رأيت المشهد شعرت باليد المودّعة التي تستأذنني بها الطفولة للانصراف عني. كان لدّي شعور في تلك اللحظة بأن احساسي بالزمن الذاتي، أو باللازمن، سوف يتدفق ذات يوم من داخلي ليفيض في اطار ذلك المشهد، ويصبح تقليدا دقيقا لأشخاصه وحركاته وأصواته، وأنه يرادف اكتمال هذه النسخة ذوبان الأصل في المنظور البعيد للزمن الموضوعي الحقيقي، وأنه قد لا يبقى لي إلاّ مجرد محاكاة، أو بتعبير آخر، مجرد نموذج منسوج باتقان لطفولتي.

وكل انسان يمر بمثل هذه التجربة في طفولته. ولكنها في معظم الحالات تكتسب شكلا بالغ البساطة، حتى أنها لا تكاد تستحق أن تُسمَى ولو حادثة، وبالتالي فهي حرية بأن تمرّ دون أن تُلاحَظ..

وقد حدث المشهد الذي أتحدث عنه عندما جاء حشد من المحتفلين بمهرجان الصيف، واندفع من خلال بوابتنا. ومن أجلي أنا، وبسبب مرض ساقها، أقنعت جدتي رجال الأطفاء بالترتيب لمرور المواكب الاحتفالية بالمنطقة من الطريق الذي تقع عليه بوابتنا. وقد كان هناك طريق آخر محدد للمهرجانات من قبل، ولكن كبير رجال الاطفاء تعهّد بأن ينحرف عن الطريق قليلا، كل عام، وصار من المعتاد أن يمر ببيتنا.

في ذلك اليوم بالذات كنت أقف أمام البوابة مع آخرين من أهل الدار، وكانت درفتا البوابة الحديدية اللتان لهما شكل ورقتين من أوراق الكروم، مفتوحتين على اتساعهما. ونثر الماء بعناية على أحجار الرصيف أمام البوابة. وراح صوت الطبول المتردد يقترب.

واخترق الضجة المشوشة للمهرجان لحن انشاد باك، بدأت ألفاظه تتضح تدريجياً، معلنة ما يمكن ان يُسمَى المعنى الحقيقي لهذه الضجة التي لا معنى لها في

الظاهر ـ نواح ظاهر للتزاوج البالغ الفجاجة بين الانسانية والأبدية والذي لا يمكن أن يكتمل إلّا من خلال فجور ديني من هذا النوع. وفي كتلة الصوت المختلطة أمكنني أن أميز بالتدريج الرنين المعدني للحلقات المحمولة فوق عصا الكاهن على رأس الموكب، وزئير الطبول المتلعثم، ومزيج الصيحات التوقيعية لشباب يحملون على أكتافهم الكفن المقدس. كان قلبي ينبض بشكل خانق، حتى لم أكد أستطيع الوقوف (منذ ذلك الحين صار التوقع العنيف بالنسبة لي دائمًا عذابا أكثر من بهجة).

الكاهن الذي كان يحمل العصا كان يرتدي قناع ثعلب، وثبتت العينان الذهبيتان لذلك الوحش الغامض عليّ باصرار زائد، وكأنهما تريدان أن تسحراني، وأثار فيّ الموكب الذي يمر أمام عيني بهجة قريبة من الرعب. وقبل أن أعرف ذلك، شعرت بنفسي أجذب تنورة مَنْ كانت بجواري من أهل منزلنا. كنت مستعداً للجري بعيداً بأي عذر (منذ تلك الأيام كان هذا الموقف الذي واجهت به الحياة دائمًا من الأشياء التي يطول انتظارها، والتي تتزين بكثير من أحلام اليقظة المشوبة بالتوقع، لا أجد في النهاية ما أفعله إلّا أن أجري هارباً منها).

ووراء الكاهن جاءت مجموعة من رجال الاطفاء، يحملون على أكتافهم صندوق الهبات، مرتدين الاكاليل المقدسة المصنوعة من القش المفتول، ثم حشد من الاطفال يحملون كفنا صغيرا يتأرجح بخفة، وأخيراً اقترب الكفن الرئيسي للموكب، الأوميكوش الاسود والذهبي الجليل. ومن بعيد كنا قد رأينا العنقاء الذهبية على قمته، تتأرجح وتهتز بشكل مبهر فوق الضجيج والصخب، كطائر يطفو بين الأمواج ذهابا وايابا، وكان المشهد قد ملأنا بنوع من الاثارة القلقة. والآن ظهر الكفن نفسه، وسادت حالة سامة من الهدوء الميت، كهواء المناطق المدارية، أحاط بالكفن وحده. وبدا الكفن كسولا بشكل شرير، وهو يرتعد بسخونة على الأكتاف العارية للشباب الذين يحملون الاميكوشي، وبين الحبال السميكة الملونة بالقرمزي والأبيض وبين الحواجز المطلية باللك الأسود الذهبي. ووراء تلك الأبواب الموصدة باحكام ذات الأوراق الذهبية، كان مكعب حالك السواد طوله أربعة أقدام.

المكعب الكامل من الليل الفارغ الذي يتأرجح ويقفز دون توقف جيئة وذهابا، لأسفل وأعلى، كان يسيطر بجسارة على الظهيرة الصافية للصيف المبكر.

واقترب الكفن أكثر وأكثر وكان الشباب الذين يحملونه يرتدون كيمونو صيفيا، بنفس التفصيل، والقماش القطني الخفيف يكاد يكشف أجسامهم بكاملها، وجعلت حركاتهم الكفن يبدو كأنه يترنح من السكر، وبدت أرجلهم كتلة عظيمة متشابكة، وبدت أعينهم وكأنها تنظر إلى أشياء ليست من هذه الأرض، وكان الرجل الذي يحمل مروحة السلطة العظيمة المستديرة يركض حول أطراف الجماعة، يحثهم بصيحات عالية بشكل عجيب، ومن وقت لآخر كان الكفن يميل بشكل مجنون ثم، بمزيد من الصيحات المجنونة يستوي ثانية.

عند هذه النقطة ـ وربما لأن الكبار في أسرتي أدركوا بالبديهة أنه رغم أن الشباب بدوا وكأنهم يمضون في الاستعراض ، ظاهرياً، كما كانوا في الماضي، كانت فيهم قوة ما تبحث عن متنفس ـ جذبتني فجأة إلى الخلف يد الشخص الذي كنت متشبثاً به.

وصاح أحدهم « حذار ! »

لم أعرف ما حدث بعد ذلك، فعندما جذبتني اليد، ركضت هارباً عبر حديقة المدخل واندفعت داخل المنزل من باب جانبي.

اندفعت صاعداً إلى الطابق الثاني، مع شخص ما، ثمّ إلى الشرفة. من هناك أطللت على المشهد، مبهور الأنفاس. في تلك اللحظة كانوا يتدافعون في حديقة المدخل، يحملون كفنهم الأسود.

وحتى بعد ذلك بوقت طويل، كنت أتساءل عن القوة التي أجبرتهم على مثل ذلك العمل. ولا زلت لا أعرف، كيف كان بوسع هذه العشرات من الشباب أن يصلوا فجأة إلى قرار، في وقت واحد وبعقل واحد، للاندفاع خلال بوابتنا؟

لقد وجدوا لذة في التدمير الأهوج للنباتات. كانوا دهماء بكل ما للكلمة من معنى. أمّا حديقة المدخل، التي فقدت منذ زمن كل اهتمام بها فقد تحوّلت فجأة إلى عالم مختلف. وراحوا يستعرضون الكفن فوق كل بوصة منها، والشجيرات التي انتزعت بشكل ماحق، وديست تحت الأقدام. كان الأمر بالنسبة لي أصعب من أن أحدد إزاءه ما كان يجري. كانت الأصوات يحيد بعضها بعضا، وبدا وكأن أذنّي تصفعها موجات متلاحقة من الصمت المتجمد والزئير الذي لا معنى له. وكذلك بالنسبة للألوان : الذهبي والقرمزي والأرجواني والأخضر

والأصفر والكحلي، كانت جميعها تضطرم وتغلي وبدت كأنها لون واحد يسوده اللون الذهبي مرة واللون القرمزي مرة أخرى.

خلال ذلك كله كان هناك شيء واحد واضح بشكل حي، شيء أرعبني وعذبني معا، مالئاً قلبي بعذاب لا يُحكَى. كان ذلك هو التعبير الذي على وجوه الشباب الذين يحملون الكفن ـ تعبير عن أقذع وأفضح سكر في العالم..



الفصل الثاني

لأكثر من عام ظللت أقاسي عذاب طفل أعطوه لعبة غريبة. كنت في الثانية عشرة.

كانت تلك اللعبة يكبر حجمها في كل فرصة، مع الاشارة إلى أنه إذا استخدمت استخداما صحيحا، فسوف تكون شيئاً باعثا على السرور تماما. ولكن تعليمات الاستخدام لم تكن مدّونة في أي مكان، وهكذا فعندما كانت اللعبة، تأخذ المبادرة بأن ترغب في اللعب معي، كانت اثارتي محتمة. وفي بعض الأحوال كانت مهانتي وقلة صبري تتضاعف حتى أنني كنت أفكر في أني أرغب في تحطيم اللعبة. وفي النهاية لم يكن هناك، على أية حال، سوى أن أستسلم من ناحيتي للعبة التي لا يمكن التغلب عليها، بما تعبر عنه من لذة عذبة، وأن أنتظر مستسلما لأرى ما سيحدث.

ثم ألّحت عليّ فكرة أن أحاول الاصغاء بهدوء إلى رغبات اللعبة. وعندما فعلت ذلك، وجدت أنها قد امتلكت في الحال ذوقاً محددا وواضحا، أو ما يمكن أن يُسمى « الميكانيزم » الخاص بها. وقد ارتبطت طبيعة ميولها، ليس فقط بذكريات طفولتي ولكنها ارتبطت، الواحد بعد الآخر، بأشياء مثل الأجساد العارية للشبان الذين يُشاهدون على سواحل الصيف، وفرق السباحة عند حوض ميجي، والشاب الأسمر الذي تزوجته إحدى بنات عمومتي، والأبطال الشجعان لكثير من قصص المغامرات. حتى ذلك الوقت كنت أظن خطأً أنـي كنت منجذباً بشكل شعري إلى تلك الأشياء، وهكذا فقد خلطت بين رغباتي الحسية ونظام جمالي.

وكذلك كانت اللعبة ترفع رأسها نحو الموت وبرك الدماء واللحم القوي. مشاهد المبارزة المثيرة على أغلفة مجلات المغامرات التي كنت أستعيرها سرا من الخادم التلميذ، صور شباب الساموراي يشقون بطونهم بأنفسهم، أو صور الجنود وقد أصابهم الرصاص، وقد أطبقوا أسنانهم، وتقاطر الدم بين الأيدي التي أمسكت بالصور التي ترتدي الكاكي، صور مصارعي السوموذوي العضلات الصلبة، من الطبقة الثالثة مَمْنْ لم يصبحوا بالغي البدانة بعد، عند مشاهدة مثل هذه الأشياء، كانت اللعبة ترفع رأسها المتسائل (فإذا كان النعت « متسائل » غير ملائم، يمكن استبداله بحيث يكون « شهوانيا » أو « شيقا »).

وعندما فهمت هذه الأشياء، بدأت أسعى إلى اللذة الحسية بشكل واعٍ وقصدي، وأصبحت مبادىء الاختيار والترتيب تفعل فعلها، فعندما كنت أجد أنَّ تكوين صورة في مجلة من مجلات قصص المغامرات ناقصا، كنت أنسخ القصة أولا بالرصاص، ثم أصححها بما يرضيني. عندئذ كانت تصبح صورة لاعب سيرك شاب يركع على ركبتيه واضعاً يده على جرح من رصاصة في صدره، أو واحداً مَمْنْ يمشون على الحبل المشدود بعد أن سقط وانفتحت جمجمته ورقد محتضرا، ونصف وجهه مغطى بالدماء. وغالباً ما كان يستبد بي وأنا في المدرسة، الخوف من أن تُكتشَف هذه الصور المتعطشة للدماء، والتي خبأوها بدرج بخزانة الكتب في المنزل، أثناء غيابي، حتى أني لم أكن أسمع صوت المدرس. كنت أعرف أنه من الواجب أن أتخلص منها بمجرد أن أرسمها لكن لعبتي كانت شديدة الارتباط بها حتى أني وجدت أنه من المستحيل اطلاقاً أن افعل ذلك.

وهكذا قضت لعبتي التي لا يمكن اخضاعها أياماً وشهورا كثيرة عقيمة دون أن تنجز حتى هدفها الثانوي ــ الذي سأسميه عادتي السيئة ــ دع جانباً هدفها الأول والنهائي.

كانت تحولات عديدة تحدث حولي. انقسمت الأسرة أسرتين، تركنا المنزل الذي ولدت فيه وانتقلنا إلى منزلين منفصلين، لا يفصل بينهما أكثر من نصف مربع سكني، جداي وأنا في منزل، ووالداي وشقيقتي وشقيقي في الآخر. في ذلك الوقت أُرسل أبي إلى الخارج في عمل رسمي، وزار عدة بلاد في أوروبا، ثم عاد إلى الوطن. وقبل وقت طويل انتقل أبواي ثانية. وأخيراً وصل أبي إلى قرار متأخر بضرورة المطالبة بعودتي إلى منزله وانتهز هذه الفرصة ليفعل ذلك. ومررت بمشهد فراق جدتي ــ سمّاه أبي ميلودراما عصرية ــ وهكذا ذهبت أخيراً لأعيش مع

أبويّ. والآن صار يفصل بيني وبين المنزل الذي يعيش فيه جداي عدة محطات على الخط الحديدي الحكومي وخط الترام المحلي وصارت جدتي تحتضن صورتي على صدرها ليل نهار، وهي تبكي، وكانت علاتها تشتد بمجرد انتهاكي لما تنص عليه المعاهدة من ضرورة مجيئي لأقضي معها ليلة كل أسبوع. وفي سن الثانية عشرة كانت لي حبيبة صادقة عمرها ستون.

في ذلك الوقت كان أبي قد نقل إلى أوزاكا. ذهب إلى هناك وحده، وبقينا نحن في طوكيو.

وذات يوم، انتهزت فرصة تخلفي عن المدرسة بسبب برد خفيف، وأخرجت بعض مجلدات من صور الأعمال الفنية التي عاد بها والدي كتذكارات لأسفاره الخارجية، وأخذتها إلى حجرتي حيث رحت أطالعها باهتمام. وقد سحرني بشكل خاص الحفر الضوئي للنحت اليوناني في كتب الارشاد السياح للمتاحف الأيطالية، وعندما وصلت إلى صور العري كانت تلك اللوحات، من بين الصور الكثيرة للروائع، بالأبيض والأسود، هي الأنسب لخيالي. وربما كان ذلك راجعاً لحقيقة بسيطة هي أنه حتى في الصور بدا النحت أكثر حياة.

كانت هذه أول مرة أرى فيها تلك الكتب. لقد أبقى أبي البخيل هذه الكتب مخبوءة في الفجوات العميقة لاحدى الخزانات، كارهاً أن يلمس الأطفال ويلوِّثوا هذه الكتب بأيديهم ، وخائفاً أيضاً ــ وكم كان مخطئا ــ من أن تجتذبني النساء العاريات في الروائع الفنية. ومن جانبي، فلم أكن في ذلك اليوم أحلم بأن تكون أكثر تشويقاً من الصور التي في مجلات المغامرات.

هممت بأن أقلب صفحة قرب نهاية أحد المجلدات ، فجأة ظهرت لي من أحد أركان الصفحة التالية صورة كان عليّ أن أعتقد أنها كانت تنتظر هناك من أجلي.

كانت صورة للوحة جويدوروني « سان سيباستيان » المعلّقة ضمن مجموعة بالاتزوروسو في جنوا.

بدا جذع شجرة الاعدام الاسود والمائل قليلا، على خلفية تيتيانيه لغابة مظلمة وسماء مسائية قاتمة وبعيدة، وشاب رائع الجمال مربوط في جذع الشجرة، رُفعَت يداه المتصالبتان عالياً، والسيور الجلدية التي تقيد يديه ربطت في الشجرة. لم تكن تشاهد أربطة أخرى، والغطاء الوحيد لعري الشاب كان قماشا أبيض

خشنا ملفوفا دون احكام حول حقويه.

وخمّنت أن ذلك لا بدّ وأن يكون تصويرا لاستشهاد المسيح. ولكن، لأن الرسام كان رساما جماليا من المدرسة الانتقائية التي استفادت من النهضة، فقد كان في هذا الرسم لموت قديس مسيحي يحمل نكهة وثنية قوية. فجسد الشاب - يمكن تشبيهه بجسد انتينوس محبوب هادزيان، الذي غالباً ما خلّد النحت جماله - لا تظهر عليه أي من آثار المشاق الرسولية أو النشوة التي توجد في صور قديسين آخرين، وبدلاً من ذلك فهناك ربيع الشباب، وليس سوى النور والجمال والمسرّة.

يلمع عريه الأبيض الذي لا شبيه له أمام خلفية غسقية. وذراعاه المفتولان، ذراعا حارس برايتوري اعتاد أن يثني القوس وأن يلاعب السيف، ترتفعان بزاوية رشيقة، ورسغاه المقيدان متصالبان فوق رأسه مباشرة. ارتفع وجهه قليلا لأعلى، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، وهو يحدِّق بهدوء عميق في بحر السماء. وليس هو الألم الذي يحلّق فوق صدره المشدود، وحوضه المتوتر، وردفيه المتقلصين تقلصاً خفيفا، بل هي رقّة من مسرّة قاتمة كالموسيقى ولولا السهام التي انغرست رؤوسها عميقاً في ابطه الأيسر وجنبه الأيمن ، لبدا أقرب إلى رياضي روماني يستريح من عناء، مستنداً إلى شجرة في حديقة أحاط بها الغسق.

أكلت السهام من الجسد المتوتر العبق المليء بالشباب، وهي توشك أن تلتهم جسده من الداخل بشعلات من عذاب ومتعة علويين. لكن لا دَمَ يتدفق هناك، ولا حتى حملة الأسهم التي ترى في صور أخرى لاستشهاد سيباستيان وبدلاً من ذلك، ألقى سهمان وحيدان ظليهما الهادئين الرشيقين على نعومة جلده، كظلال غصن يسقط فوق درج من الرخام.

لكن كل هذه التفسيرات والملاحظات جاءت فيما بعد.

في ذلك اليوم، في اللحظة التي نظرت فيها إلى الصورة، ارتعد كياني كله بهجة وثنية، وارتفع دمي، وانتفخ حقواي كما لو كان بسبب الغضب. ذلك الجزء المتوحش فيَّ، الذي كان يوشك أن ينفجر، كان ينتظر استخدامي لها بلهفه لم يسبق لها مثيل، وهو يعنفني على جهلي، ويلهث غاضبا وبدأت يداي، دون ادراك مطلقا، حركة لم تتعلماها قط. وشعرت بشيء ما، سرّي ومتألق ، ينهض سريعا إلى وضع الهجوم، من داخلي، وفجأة انفجر خارجا، آتياً معه بنشوة غاشية..

مر بعض الوقت ثم نظرت، بشعور تعيس، حول المكتب الذي كنت أواجهه. كانت شجرة قيقب عند النافذة تلقي انعاكاسا مضيئا على كل شيء ـ على دواة الحبر، على كتبي المدرسية وكراساتي وقاموس وصورة سان سيباستيان. كانت هناك زخارف بيضاء غائمة متفرقة ـ فوق عنوان الكتاب المقرر المطبوع بالذهب، على كتف الدواة، على ركن من اركان القاموس، بعض الأشياء كانت تقطر بكسل، والبعض الآخر يلمع بشكل باهت، كعيون سمكة ميتة، ولحسن الحظ، فقد أدّت حركة تلقائية من يدي لحماية الصورة إلى انقاذ الكتاب من التلوث.

كانت تلك أول مرة أقذف فيها. كانت أيضاً البداية المرتبكة وغير المتعمدة بتاتاً لعادتي السيئة.

(من المصادفات الجديرة بالاهتمام أن يضع هيرشفيلد «صور سان سيباستيان» في المرتبة الأولى بين الأعمال الفنية التي يجد فيها اللواطي لذة خاصة. فهذه الملحوظة من هيرشفيلد تؤدّي بسهولة إلى خلاصة مؤدّاها أنه في الغالبية الساحقة من حالات اللواط، خاصة اللواط الفطري، فإن الدوافع اللواطية والسادية متشابكة معاً بشكل لا يقبل الفصل).

وقد جرى العرف على القول بأن سان سيباستيان ولد في حوالى منتصف القرن الثالث، وأصبح نقيباً في الحرس البرايتوري في روما، وأنهى حياته القصيرة ذات البضع وثلاثين سنة بالاستشهاد. ويُقال إنه مات في حوالى سنة ٢٨٨، أثناء حكم الامبراطور ديوقيلتان. ديوقليتان الرجل العصامي الذي خبر الحياة، كان مثار الاعجاب بسبب حبه للخير، ولكن ماكسيميليان شريكه في الامبراطورية، كان يبغض المسيحية وقضى بالموت على الشاب ماكسيميليانوس النوميدي لأنه رفض باسم السلام المسيحي، أداء الخدمة العسكرية المطلوبة منه، وأعدم أيضاً مارسيللوس السنتوري لنفس هذا الموقف الديني الثابت. هذه، إذنْ، هي الخلفية التاريخية التي يمكن في ضوئها أن نفهم استشهاد سان سيباستيان.

تحوّل سيباستيان إلى المسيحية سراً، واستخدم مركزه كنقيب في الحرس البرايتوري لمواساة المسيحيين المسجونين، وهدى عدداً من الرومان بَمنْ فيهم العمدة، وعندما عُرفت هذه النشاطات، حُكِم عليه بالموت. أُطلِقت عليه سهام لا تُحصى، ثم تركوه على أنه ميت، لكن أرملة متدينة، كانت قد جاءت لدفنه،

اكتشفت أن جسده لا يزال دافئا، وظلّت تمرضه حتى عاد إلى الحياة. وعلى الفور ، تحدّى الامبراطور، مهينا آلهته. وهذه المرة ظلّوا يضربونه بالمقارع حتى مات.

وقد تكون الخطوط العريضة لهذه الأسطورة صحيحة حقاً، ومن المؤكّد أن كثيرين استشهدوا هكذا. أمّا عن الشك في أن يعود أي كائن انساني إلى الحياة بعد أن يصاب بكل هذه السهام ، أفلا تكون هذه تزويقات متأخرة، كاستخدام مألوف لموضوعة البعث استجابة للطلب البشري على المعجزات؟

ورغبة مني أن تُفهَم سعادتي أمام الاسطورة، أمام الصورة، بوضوح أكبر كشيء وحشي وحي في حقيقته، فإني أورد القطعة التالية، التي لم أكملها، والتي كتبتها بعد ذلك بعدة سنوات.

سان سيباستيان قصيدة نثرية

من نافذة الصف اختلست نظرة إلى شجرة متوسطة الارتفاع ، تتمايل مع الريح. وبينما كنت أنظر ، بدأ قلبي يرعد، كانت شجرة مذهلة الجمال. نبضت فوق الحديقة مثلثا معتدلا مشوبا باستدارة، وكان الاحساس الثقيل بخضرتها يتركّز على فروعها الكثيرة، المنبثقة إلى أعلى وإلى الخارج بالتماثل المتوازن لشمعدان، وتحت الخضرة ظهر جذع قوي كقائم من الأبنوس. هناك وقفت، تلك الشجرة، كاملة، رائعة السبك، لكنها لم تفقد شيئاً من حلاوة الطبيعة وخلوها من الصنعة، محتفظة بصمتها الرصين كأنها هي خالقة نفسها. ومع ذلك فقد كانت، في الوقت ذاته شيئاً مخلوقا. ربما مؤلّفاً موسيقيا. مقطوعة موسيقى الحجرة لأستاذ ألماني. موسيقى تعطي مسرّة دينية هادئة، حتى أنها لا يمكن إلاّ أن توصف بأنها مقدّسة، حافلة بالرزانة والحنين اللذين تجدهما في سجاد الحائط المهيب.

وهكذا كانت للعلاقة بين شكل الشجرة وأصوات الموسيقى مغزى بالنسبة لي فلا غرو إذنْ أنني عندما هجم عليّ الاثنان معاً، وزاد اتحادهما من قوتهما كـان لا بدّ لعـاطفتي الغـامضـة التي لا تـوصف أن تكـون قـريبـة، لا إلى الغنائية، بل إلى تلك السكرة الشريرة التي تجدها في امتزاج الدين والموسيقى.

فجأة تساءلت في قلبي: « ألَمْ تكن هذه بعينها هي الشجرة ــ الشجرة التي قُيِّد فيها القديس الشاب ويداه وراءه، والتي سال عليها دمه المقدس كالقطرات بعد المطر؟ تلك الشجرة الرومانية التي قضى بجوارها، مشتعلاً بآخر سكرات

الموت، وجسده الشاب يسجحه الإلحاء كآخر برهان له على كل المسرّات والآلام الأرضية؟ »

يُقال في التواريخ التقليدية للاستشهاد إنه خلال الفترة اللاحقة على تتويج ديوقلتيان كان يحلم بسلطان لا حدود له كأنه تحليق عصفور طليق، كان هناك نقيب شاب في الحرس البرايتوري اعتقِل ووجِهت إليه تهمة الخضوع لرب ممنوع، كان نقيبا شابا ذا جسد لدن يذكّر المرء بالعبد الشرقي الشهيد معشوق الأمبراطور « هادريان » وله عينا متآمر خاليتان من العواطف كأنهما البحر. كان متكبراً بشكْل أخّاذ. وعلى خوذته كان يضع سَوسنةً بيضاء، تهديه أيّاها كل صباح عذارى المدينة. وإذْ كانت تميل إلى الأمام، برشاقة، مع انسياب شعره الرجولي، وهو يستريح من مبارياته العنيفة، كانت السوسنة تبدو بالضبط ، كأنها عنق بجعة من الخلف.

ولم يكن أحد يعرف محل مولده. ولا من أين جاء، ولكن كل مَـنْ رأوه شعروا بأن هذا الشاب، الذي له جسد عبد وملامح أمير، عابر سبيل لا بدّ وأنه سيرحل فورا. بالنسبة لهم كان هذا « الأنبديون » بدوياً رحالا، يقود قطعانه، كان هو الشخص المختار ليجد مرعى خضرته أعمق من المراعي الأخرى.

ومرة أخرى كانت هناك عذارى تعتنق فكرة راسخة عن أنه جاء من البحر، لأنه داخل صدره كان يمكن أن يُسمَع صخب البحر. لأنه في انساني عينيه كان يمتد الأفق الغامض والأزلي الذي يتركه البحر كتذكار في عيون كل مَنْ ولدوا على الساحل وأُجبِروا على النزوح عنه. لأن تنهداته كانت رطبة كأنسام المد، عند اكتمال الصيف، عبقة برائحة العشب البحري الملقى على الشاطىء.

كان ذلك سيباستيان، النقيب الشاب في الحرس البرايتوري. أوَلَمْ يكن جمال كجماله منذوراً للموت؟ ألَمْ تشم نساء روما القويات، اللاتي تربّت حواسهن على مذاق النبيذ الجيد الذي يهز العظام وعلى طعم اللحم الذي يقطر دما أحمر، على وجه السرعة، قدرة المنحوس، الذي كان يُعدّ مجهولا بالنسبة له، وأحببنه لذلك السبب. كان دمي يجري بسرعة أكثر وحشية مما هو معتاد داخل جسده الأبيض، يبحث عن ثغرة يتدفق منها خارجاً لحظة تمزق ذلك الجسدُ أشلاء. كيف يمكن أن تعجز النسوة عن الاصغاء للرغبات العاصفة لدم كهذا؟

لم يكن مصيره مثيراً للشفقة. فلم يكن هناك من سبيل للاشفاق عليه، بل

كان يتصف بالكبرياء والمأساوية، كان قدراً يمكن حتى أن يوصف بأنه مضيء.

وعندما يتأمل المرء جيدا، يبدو من المحتمل أنه في مرات كثيرة، حتى أثناء قبلة عذبة، كان مذاق مسبقا لعذاب الموت يغضّن جبينه بظل ألم عابر.

ولا بدّ أنه تنبأ، ولو بشكل غامض، أن ما ينتظره في الطريق لم يكن يقل عن الاستشهاد، وأن هذه العلامة التي تركها عليه الموت كانت، بالضبط الرمز الفارق بينه وبين كل الرجال العاديين على الأرض.

والآن في هذا الصباح المحدد، أزاح سيباستيان الأغطية وهبّ من فراشه عند انبلاج الصبح، تحت ضغط واجباته العسكرية. كان هناك حلم رآه في الفجر. غربان بقعاء مشؤومة تحتشد في صدره، وتغطي فمه بأجنحة خفّاقة ـــ ولم يختف بعد من وسادته. ولكن الفراش الخشن الذي كان ينطرح عليه كل ليلة كان يسكب عبق عشب بحري مُلْقى على الشاطىء. ومن المؤكد أن مثل هذه الرائحة كانت ستبحر به ليال طوالاً إلى أحلام البحر والأفق العريض.

وعندما كان واقفاً وراء النافذة يرتدي درعه ذا الصرير، نظر عبر الطريق إلى معبد محاط بدغل، وفي السماء التي فوقه رأى أفول كوكبة النجوم التي تُدعَى «مازاروث». تطلّع إلى ذلك المعبد الوثني الرائع، وبدت في التقوّس الخفيف لحاجبيه نظرة احتقار عميق، تكاد تكون قريبة من العذاب وشديدة التناسب مع جماله، وعندما ذكر اسم الرب الواحد، أنشد هامساً بعضا من الآيات المهيبة من الكتاب المقدس. عندئذ، وكما لو أن وهن انشاده تضاعف ألف مرة وتردد صداه برنين جليل، سمع أنينا قويا جاء، دون شك، من ذلك المعبد الملعون، من تلك الصفوف من الأعمدة التي تقتسم السماء المليئة بالنجوم. كان صوتا يشبه ذلك الركام الذي ينهار ويتحطم، مجلجلا في وجه قبة السماء المرصّعة بالنجوم.

ابتسم وأنزل عينيه إلى نقطة دون نافذته. كانت هناك مجموعة من العذارى تصعد سراً إلى مسكنه لصلاة الصبح، كما كانت عادتهن في العتمة السابقة على كل فجر. وكانت كل عذراء تحمل في يدها سوسنة لا تزال غافية..

كان ذلك بعد فترة من شتاء عامي الثاني في المدرسة المتوسطة. عندئذٍ كنا قد تعوّدنا على السراويل الطويلة وعلى مخاطبة بعضنا البعض بالأسماء الأولى البسيطة. (في المدرسة الأدنى، لم يُسمَح لنا أبدا بترك ركبنا عارية تحت سراويلنا القصيرة،

ولا في عزِّ الصيف، وهكذا فإن فرحتنا في البداية بارتداء سراويل طويلة ضاعفها علمنا بأننا لن نُلزَم مرة أخرى أبداً بلف أفخاذنا بشكل مؤلم. وفي المدرسة الأدنى أيضاً كان لزاماً علينا أن نستخدم الطريقة الرسمية للتخاطب عندما ينادي بعضنا البعض باللقب) وكنا قد تعوّدنا أيضاً على عادة رائعة هي السخرية من المعلمين، واستضافة بعضنا البعض بالدور في بوفيه المدرسة، وعلى ألعاب الغابة حيث كنا نركض في أرجاء غابة المدرسة، وعلى حياة القسم الداخلي. وقد شاركت في كل هذه المسرات ما عدا حياة القسم الداخلي. فقد استخدم أبواي، الحذران دائمًا، حجة ضعف صحتي للحصول على استثناء لي من القاعدة التي تتطلّب أن يعيش كل تلميذ عاما أو اثنين في القسم الداخلي خلال دراسته بالمدرسة المتوسطة. ومرة أخرى فقد كان السبب الرئيسي لديهما هو أنه يحول بيني وبين تعلم الأشياء الرديئة.

كان عدد الطلاب النهاريين قليلا. وفي الفصل الأخير من عامنا الثاني انضم وافد جديد إلى مجموعتنا ، كان ذلك هو « أومي » كان قد طُرد من القسم الداخلي بسبب سلوك شائن. حتى ذلك الوقت لم أكن أخصّه بالاهتمام ولكن عندما وضع عليه طرده، تلك العلامة التي لا تخطىء بما يُسمَى « الانحراف »، وجدت فجأة أنه من الصعب عليّ أن أبعد عيني عنه.

وذات يوم جاء صديق سمين طيب يركض نحوي، وهو يضحك مظهرا غمازتيه. من هذه العلامات المألوفة علمت أنه وقع على معلومات سرية ما.

قال « لديّ ما أخبرك به »

انصرفت عن الهوائي وخرجت مع صديقي الطيب إلى الدهليز، واستندنا إلى نافذة تطل على الفناء العاصف، كانت تلك النافذة هي مكاننا المعتاد لافشاء الأسرار.

بدأ صديقي: « حسنا، أومي » ثمّ توقف، وقد احمرّ وجهه، وكأنه محرج لدرجة العجز عن الاستمرار.

(عندما كنا جميعاً، في حوالى الصف الخامس بالمدرسة الأدنى، نتكلم عن « ذلك » اختلف معنا ذلك الصبي بصراحة قائلاً بشكل حاسم: هذا محض كذب ــ إني أعرف يقيناً أن الناس لا يفعلون أشياء كهذه، مرة أخرى عندما سمعنا أن

والد أحد الأصدقاء مصاب بالشلل الارتجافي حذّرني من أن ذلك المرض معدٍ، وأنه يحْسن بي ألاّ أقترب كثيراً من ذلك الصديق).

« ها !! ما هو موضوع أومي » ورغم أني كنت لا أزال أستخدم في البيت أساليب الحديث الأنثوي، فقد كنت في المدرسة قد بدأت الكلام كغيري من الصبية.

« هذه هي الحقيقة، ذلك الفتى أومي ــ حسناً، يقولون إنه أتى بالفعل كثيراً من الفتيـات ــ هذا هو الموضوع!»

كان من السهل تصديق ذلك. لا بدّ أن أومي كان يكبرنا بعدة سنوات، بعد أن رسب مرتين أو ثلاثا. وقد كان يتفوّق علينا جميعاً في الجسم، وفي خطوط وجهه يمكن رؤية علامات شباب يتميز بتفوق على شبابنا نحن بكثير. كان لديه أسلوب متعالٍ وغريزي في السخرية التي لا مبرر لها. ولم يكن هناك شيء واحد لا يراه مثاراً للسخرية. وبالنسبة لنا لم يكن هناك من سبيل إلى تغيير حقيقة أن طالب الامتياز طالب امتياز، وأن المعلم معلم، ورجل البوليس وطالب الجامعة والموظف هم بالضبط رجل بوليس وطالب جامعة وموظف، وبنفس الطريقة فقد كان أومي هو أومي، ولا سبيل إلى الهرب من عينيه الساخرتين وضحكته الهازئة.

وقلت « صحيح؟ » ولسبب أجهله فكرت على التوّ في يديْ أومي الأنيقتين وهما تنظفان البنادق التي كنا نستخدمها في التدريب العسكري. وتذكّرت مظهره الجذّاب كقائد فرقة، فقد كان المفضل بشكل خاص لدى المدرب ولدى مدرس التربية البدنية..

« لهذا ــ هذا هو السبب في ــ » وندّت عن صديقي الضحكة الداعرة التي لا يمكن أن يفهمها إلاّ تلاميذ المدرسة المتوسطة. « حسناً يقولون إن ما تعرفه كبير جداً لديه. في المرة القادمة عندما نلعب لعبة « القـذارة » تحسَّس وشاهد بنفسك. هذا سيثبت لك ».

كانت « القذارة » لعبة تقليدية في مدرستنا، دائمة الانتشار بين الصبية في العامين الأول والثاني، وكما هو الحال بالنسبة لأي ولع بتسلية ما، فقد كانت أقرب إلى مرض خبيث منها إلى التسلية. وكنا نلعبها في وضح النهار، جهارا. ولد ما ــ لنسمه « أ » ــ يقف دون انتباه. عند ملاحظة ذلك يندفع ولد آخر ــ

ب ــ من الجانب ويمسك بشكل جيد التسديد، فـإذا نجحت المسكة، ينسحب « ب » منتصراً ويصيح من بعيد:

« اوه، إنه كبير، يا له من واحد كبير لدى .« أ ».

ومهما كان الدافع وراء اللعبة، فقد كان هدفها الوحيد على ما يبدو هو مشاهدة المنظر الكوميدي للضحية وهو يسقط كتب المدرسة، أو أي شيء يحمله، ويستخدم يديه لحماية البقعة المهاجمة. والحقيقة، أن الصبية اكتشفوا في تلك اللعبة ما يخجلهم، وقد أسفرت عنه ضحكاتهم، ثم من منطلق الضحك الأعلى، وهو منطلق آمن، يتوفر لديهم الاشباع بالسخرية من خجلهم المشترك، تجسّـدان وجنتي الضحية المحمرتين.

وكما لو كان الأمر بتدبير سابق، فإن الضحية يصيح:

« آه!! إن « ب » هذا. . قذر »

عندئذٍ يرد عليه الواقفون في كورس موافقين:

« آه إن « ب » هذا. . قذر ».

وكان أومي يتألّق في هذه اللعبة. كانت هجماتـه تنتهي دائمًا بـالنجاح السريع، حتى أنه يمكن التساؤ ل ما إذا كان الأولاد يتطلّعون سراً إلى أن يهاجمهم أومي. وفي المقابل، كان ضحاياه دائمًا يسعون إلى الانتقام. ولكن أيّاً من محاولاتهم معه لم تكلل بالنجاح. فقد كان دائمًا، يتجوّل ويده في جيبه، وفي اللحظة التي يقع فيها كان يستخدم على الفور درعاً مزدوجاً من اليد التي في جيبه واليد الحرة.

هذه الكلمات من صديقي كانت كالسماد الذي صُبَّ على العشب السام لفكرة مغروسة بعمق فيّ. فحتى تلك اللحظة كنت قد انضممت إلى لعبة القذارة بمشاعر بالغة السذاجة كمشاعر الأولاد الآخرين. ولكن كلمات صديقي بدا أنها تربط بين « عادتي السيئة » ــ تلك الحياة المنعزلة التي كنت أحتفظ بها منفصلة بشكل حاسم وغير واعٍ ــ وبين هذه اللعبة برباط لا ينفصم، وتربطها كذلك بحياتي الاجتماعية. وتأكّد لديّ أن تلك الصلة قد قامت في عقلي بسبب حقيقة مؤدّاها أن كلماته « تحسس وشاهـد »، وبرغبتي أو بغـير رغبتي، قد صـارت مشحونة بمغزى خاص بالنسبة لي، مغزى لم يكن لأي من أصدقائي الأبرياء أن يفهموه.

منذ ذلك الحين لم أعد أشارك في لعبة القذارة. كنت أخاف اللحظة التي يمكن أن أهاجم فيها أومي، وأكثر خوفاً من اللحظة التي يمكن أن يهاجمني فيها. كنت دائم اليقظة، ، وعندما كانت هناك اشارات تدل على أن اللعبة توشك أن تبدأ ــ فهي كالشغب أو التمرد يمكن أن تنشأ عن حادث عَرَضي تماماً ــ كنت أتنكّب الطريق، أو أبقي عينيّ مثبّتتين على أومي من مسافة مأمونة..

والحقيقة أن تأثير أومي بدأ يغوينا بالفعل، حتى قبل أن ندرك ذلك. وعلى سبيل المثال كانت هناك الجوارب. ففي تلك الأيام كان فساد النظام التعليمي الذي يهدف إلى تخريج جنود قد وصل حتى إلى مدرستنا، وصية الجنرال اينوكي وهو على فراش الموت «كنْ بسيطاً ورجولياً» ــ كان قد أعيد تسخينها وتقديمها ، والأشياء من قبيل اللفاعات والجوارب المبهرجة كانت «تابو». والحقيقة أن أي لفاع على الاطلاق كان مكروها، وكانت القاعدة أن تكون القمصان بيضاء والجوارب سوداء، أو على الاقل ذات لون رزين. وكان أومي وحده هو الذي لا يتراجع عن ارتداء لفاع من الحرير الأبيض وجوارب ذات نقوش صارخة.

وقد امتلك ذلك المتحدي الأول للتابو مهارة غامضة في أن يسربل هذا الشر باسم التمرد الجميل. فمن خلال تجربته اكتشف ضعف الأولاد إزاء التمرد وأمام المدرب ــ ضابط الصف الريفي الساذج هذا كان الصديق الصدوق لأومي ــ أو كان فيما يبدو تابعاً له ــ كان يتعمّد لف لفاعه في هدوء حول عنقه، ويقلب في خيلاء طيّة صدر سترته ذات الأزرار الذهبية بالأسلوب النابليوني..

وكما هو الحال دائماً، فإن تمرد الجماهير العمياء لم يتجاوز التقليد في أضيق نطاق، فبأمل تجنب ما يجرّنا إليه التمرد من متاعب، ورغبة في أن نذوق مباهجه فقط، لم نأخذ عن مثال أومي الجسور سوى الجوارب. وفي هذه الحالة كنت أنا أيضاً واحداً من الجمهور.

وعند وصولنا إلى المدرسة في الصباح كنا نثرثر بصخب في غرفة الصف قبل أن يبدأ الدرس، دون أن نجلس على مقاعدنا، فقد كنا نجلس فوق مكاتبنا. وإذا جاء أي منا يرتدي جوارب مزّوقة بنقوش، فإنه كان يؤدّي عرضاً عظيما بأن يسحب بنطلونه إلى أعلى وهو يجلس على المكتب. وكان يُكافأ على الفور بصيحات اعجاب مصحوبة بنظرات حادة.

«اوه! الجوارب المبهرجة!»

ولم يكن معجمنا يحتوي صفة من صفات الاعجاب تعلو على كلمة مبهرج. ولم يكن أومي يظهر أبداً حتى آخر لحظة، قبل أن يصطف الطابور مباشرة، ولكن في اللحظة التي نقول فيها «مبهرج» كـانت ترتفـع أمامنـا جميعاً، متحـدثين وسامعين، صورة ذهنية لنظرته المتعالية.

وذات صباح، بعد سقوط الجليد مباشرة ذهبت إلى المدرسة مبكراً للغاية. في المساء السابق كان أحد الأصدقاء قد اتصل بي تليفونيا وقال إنه ستجري معركة قتال بالجليد في الصباح التالي. ولأني أكون بحكم طبيعتي يقظاً طوال الليلة السابقة على حدث عظيم متوقع، وما أن فتحت عيني في وقت مبكر للغاية في الصباح التالي، حتى انطلقت نحو المدرسة غير آبه بالوقت.

كان الجليد يكاد يصل إلى أعلى حذائي. وبعد ذلك، وأنا أطل على المدينة من نافذة القطار المرفوع، بدا مشهد الجليد الذي لم يكن قد نال شيئاً من أشعة الشمس بعد، حزيناً أكثر منه جميل. بدا الجليد كأنه ضماد قذر يغطي جراح المدينة المفتوحة، يغطي الجراح العميقة للشوارع المتناثرة كيفما اتفق والحواري المتعرِّجة والأفنية وقطع الأرض العارية التي تلوح من حين لحين، والتي تمثل الجمال الوحيد الذي يمكن العثور عليه في بانوراما مدننا.

وعندما كان القطار يقترب، وهو خالٍ تقريبا، من محطة مدرستي، رأيت الشمس تشرق وراء منطقة المصانع. وفجأة حفل المشهد بالبهجة والضوء. فالآن تتـراجع أعمـدة المداخن الشـامخة المشؤومـة والأسقف المملّة الاردوازية اللون بارتفاعاتها وانخفـاضاتهـا الكئيبة، وراء الضحـك الصاخب لقنـاع الجليد ذي الاشراقة الوضاءة. مثل هذا المشهد المغطى بالجليد، هو بالتحديد، الذي يصبح غالباً الخلفية المأساوية للشغب أو الثورة. بل إن وجوه المارة، الباهتة بشكل مريب أمام انعكاس الجليد ، ذكّرتني، بشكلٍ ما، بالمتآمرين.

وعندما نزلت في المحطة أمام المدرسة، كان الثلج يذوب بالفعل، وكان بوسعي أن أسمع صوت الماء ساقطا من فوق سطح شركة الشحن المجاورة. ولم أستطع أن أصدِّق وهماً مؤدّاه أن البهاء هو الذي كان ينهمر ساقطاً. كانت خيوط لامعة ومضيئة منه تلقي بنفسها، منتحرة، فيما يشبه المستنقع على الرصيف الذي تلّوث بكامله بوحل الأحذية العابرة. وعندما مررت تحت الميازيب أسقط خيط من الماء نفسه، خطأ في قفاي..

ووراء بوابات المدرسة لم يكن هناك بعد أثر لقدم على الجليد. كانت غرفة

الملابس لا تزال مغلقة باحكام، لكن الغرف الأخرى كانت مفتوحة.

فتحت نافذة غرفة الصف الثاني، وكانت بالطابق الأرضي، وأطللت منها على الجليد في الدغل الذي وراء المدرسة، وهناك في الممر الموصل من البوابة الخلفية، صاعداً منحدر الدغل، منتهياً إلى البناء الذي كنت فيه، استطعت أن أرى آثار قدمين كبيرتين. كانتا قادمتين على امتداد الممر حتى بقعة تحت النافذة التي كنت أطلّ منها مباشرة. ثمّ استدارت آثار الأقدام عائدة، واختفت وراء مبنى العلوم، الذي كان يمكن رؤيته على خط مائل إلى اليسار.

شخص ما كان قد جاء بالفعل. كان واضحاً أنه ارتقى الممر من البوابة الخلفية، أطلّ على غرفة الصف من خلال النافذة، وعندما لم يجد أحداً هناك، مضى وحيداً إلى ما وراء مبنى العلوم. قلة قليلة من طلاب النهار كانوا يجيئون إلى المدرسة عبر البوابة الخلفية. وتقول الشائعات أن أومي، وهو واحد من تلك القلة، كان يجيء كل صباح من بيت امرأة ما. لكنه لم يكن يظهر أبداً حتى اللحظة السابقة على الطابور مباشرة. ومع ذلك، فلم أكن أستطيع أن أتخيل أحداً سواه ترك آثار الأقدام، وبناءً على كبر حجمها فقد اقتنعت بأنها آثار قدميه.

ملت بجذعي خارج النافذة وأمعنت النظر فرأيت لون تراب أسود طازج في آثار الأحذية، يجعلها تبدو أكثر تصميماً وقوة. واجتذبتني قوة لا توصف نحو آثار الأحذية تلك. وشعرت بأني أودّ لو ألقيت بنفسي عبر النافذة لأدفن وجهي فيها، ولكن، أعصابي الحركية البليدة حمتني، كالعادة، من هذا الخاطر المفاجيء، وبدلاً من الغوص خارج النافذة ، وضعت حقيبتي فوق أحد المكاتب ثمّ صعدت بطيئا إلى قاعدة الشباك. وما أن بدأت المشابك والعرى في مقدمة سترة زيي المدرسي تضغط على القاعدة الحجرية للشباك حتى راحت تنخس ضلوعي الهشة، محدثة ألماً مختلطاً بنوع من العذوبة الأسيانه. وبعد أن قفزت من النافذة إلى الجليد، بقي الألم الخفيف كدافع مبهج، يملأني بعاطفة مغامرة مرتعشة. وأدخلت كلوشي بعناية في آثار القدمين.

بدت الآثار كبيرة للغاية ، لكني الآن أجدها بنفس قياسي تقريبا. لقد أسقطت من حسابي أن الشخص الذي خلفّها ربما كان يرتدي هو الآخر كلوشا، كما كانت تقتضي المودة الشائعة بيننا تلك الأيام. وما أن خطرت لي تلك الفكرة، حتى قررت أن القدمين ليسا كبيرين ما يكفي لأن يكونا قدمي أومي.

ومع ذلك، وبرغم شعوري المقلق بأني سأصاب بخيبة في أملي الملح بأن أجد أومي وراء مبنى العلوم، فقد ظلّت تسيطر عليّ، بشكل ما، فكرة متابعة آثار الأقدام السوداء. ربما عند تلك النقطة لم يكن يحركني فقط الأمل في العثور على أومي، ولكن أمام السر المنتهك، كانت تسيطر عليّ بدلاً من ذلك مشاعر يمتزج فيها التلهف بالانتقام إزاء ذلك الشخص الذي جاء قبلي وترك آثار قدميه على الجليد.

وبدأت، وأنا أتنفس بصعوبة، أقتفي الأثر.

ورحت أنقل قدميّ من أثر لأثر كأني أمشي فوق أحجار سلم. وكانت حواف آثار الأقدام تكشف مرة عن طين بللوري فاحم السواد، ومرة أخرى عن عشب ميت، ثمّ عن جليد ملوث وسميك، ثمّ عن أحجار الرصيف.

وعندما كنت أتتبع الآثار إلى ما وراء مبنى العلوم، اجتزت الظل الطويل الذي ألقاه المبنى على الجليد، ثم واصلت السير أعلى الأرض المرتفعة المطلّة على الميدان الرياضي الفسيح. وبسبب غلالة الجليد اللامع التي غطّت كل شيء لم يكن من الممكن تمييز القطع الناقص ذي الثلاثمائة متر للمضمار عن الميدان المتموّج الذي يحتويه. وفي أحد اركان الميدان كانت تقف شجرتـا «زيلكوفا» ضخمتان، قريبتان الواحدة من الأخرى، بينما سقطت ظلالهما التي أطالتها شمس الصباح، على الجليد معطية مغزى للمشهد، وموفرة النقص الموفق الذي تُبرز به الطبيعةَ العظمة دائمًا. كانت الشجرتان المشابهتان لشجر الدردار تشمخان بدقة تشكيلية في سماء الشتاء الزرقاء وسط انعكاس الجليد تحتهما ، وفي أشعة شمس الصباح الجانبية، ومن حين لآخر، كان بعض الجليد ينزلق كأنه تراب الذهب ساقطا من كتل كونتْها الأغصان العارية من الأوراق على جذوع الشجـرتين. وبدت حواف أسطح القسم الداخلي للأولاد، المصطف وراء الميدان الرياضي، والأيكة التي وراءه ساكنة كأنها نـائمة. كـل شيء صامت حتى أن الانـزلاق الصامت لقطع الجليد بدا وكأن رجعه يمتد عاليا وبعيدا.

وظللت لحظة عاجزاً عن رؤية شيء في هذا الوهج الفسيح.

كان مشهد الجليد، بشكل ما، مشابهاً لحطام حصن سقط لتوّه. فهذه الشعوذة كانت غارقة في نفس الضوء والفخامة اللامحدودين واللذين لا يوجدان إلاّ في أطلال القلاع القديمة. وهناك فوق أحد أركان الحطام، في جليد المضمار

الذي يكاد يبلغ عرضه خمسة أمتار، رسمت حروف لاتينية هائلة. كان أقربها إلّي حرف « O » وبعد ذلك جاء « M » وبعدها حرف ثالث كان لا يزال يكتب، حرف « I » طويل وسميك.

كان ذلك أومي، آثار الأقدام التي تتبعتها قادتني إلى « O » ومنها إلى « M » لأصل أخيراً إلى شخص أومي نفسه، وهو في تلك اللحظة يجرّ كلوشه فوق الجليد لينهي حرف « I » وهو يطل من فوق لفاعه الأبيض، ويداه مدسوستان في جيبي معطفه وقد امتدّ ظله متحدياً فوق الجليد، موازياً لظلي شجرتي « الزيلكوفا » في الميدان.

التهبت وجنتاي. صنعت كرة من الجليد في يديّ المغطيين بالقفاز وقذفتها نحوه، فسقطت قبل أن تصل إليه..

عندئذٍ كان قد انتهى من كتابة الحرف « I » ، وربما بالمصادفة، نظر تجاهي:

صحت قائلًا: « هيه »

ورغم أني كنت أخشى أن يكون رد فعل أومي الوحيد هو الاستياء، فقد كانت تسيطر عليّ رغبة لا توصف، وما أن صحت به حتى وجدت نفسي أركض نحوه هابطاً المنحدر الشديد الانحدار، وبينما كنت أعدو، جاءني صوت رنات لم أكن أحلم به ـ صيحة ودودة منه، ملأها بقوته:

« هيه، لا تخط فوق الحروف! »

كان يبدو بالتأكيد شخصا مختلفا ذلك الصباح. وكقاعدة عامة، فلم يكن يؤدّي واجبه المنزلي حتى عندما كان يعود إلى بيته، كان يترك كتبه الدراسية في خزانته ويأتي إلى المدرسة في الصباح وقد دسّ يديه في جيبي معطفه، في الوقت الملائم بالضبط لخلع معطفه في رشاقة والانضمام إلى ذيل الطابور. يا له من تغيير اليوم! لا بدّ أنه كان يمضي الوقت وحيداً منذ الصباح الباكر، بل إنه الآن يرحب بي بابتسامته التي لا مثيل لها، الودودة والخشنة في آنٍ معاً، أنا الذي كان يعاملني دائمًا كطفل أحمر الانف، جدير بالاحتقار، كم كنت أحنّ لهذه الابتسامة، لالتماعة هذه الأسنان الشابة البيضاء!

ولكن عندما اقتربت منه بما فيه الكفاية لأن أرى وجهه المبتسم بوضوح، فقد قلبي عاطفته التي كانت لديه عندما صحت قبل لحظة قائلا « هيه » وفجأة شلّني

الخجل. أوقفني ادراك بارق لحقيقة مؤدّاها أن « أومي » هو في صميمه انسان وحيد. وقد اكتسى بالبسمة ليغطي النقطة الضعيفة في درعه، الـذي فهمته بالمصادفة، ولكن هذه الحقيقة لم تجرحني بقدر ما جرحت الصورة التي كونتُها عنه.

في اللحظة التي رأيت فيها « أومي » هائلة مكتوبة على الجليد فهمت، ربما بنصف ادراك، كل الزوايا والأركان لعزلته ـ وفهمت أيضاً الدافع الحقيقي الذي ربما لم يفهمه هو نفسه بوضوح، الذي جاء به هذا الصباح مبكراً إلى المدرسة.. ولو أن معبودي ركع أمامي، الآن، في عقله، وقدّم لي اعتذارا من قبيل « لقد جئت مبكراً من أجل معركة الجليد » فقد كنت حرّياً بأن أفقد بداخلي شيئاً أهم من الكبرياء الذي سيفقده. وعندما شعرت بأن عليّ أن أتكلم حاولت ـ بعصبية ـ أن افكر في شيء أقوله.

« اليوم موعد معركة الجليد، أليس كذلك؟ »، قلت أخيراً « على كل لقد كنت أظن الجليد سيسقط بغزارة أكبر ».

« همم .. » اتخذ سيما اللامبالاة. وبدا الخط الخارجي القوي لفكه أكثر صلابة على خديه، وعاد إليه نوع من التعالي المليء بالاشفاق عليّ. لا شك أنه كان يبذل جهداً لينظر إلى طفل، وبدأت عيناه تومضان بالاحتقار من جديد.

وفي جزء ما من عقله لا بدّ وأنه كان ممتناً لأني لم أطرح أي تساؤل عن حروفه التي على الجليد، وقد بهرتني الجهود المضنية التي بذلها للتغلب على شعوره بالامتنان.

قال « همم.. أنا اكره ارتداء قفازات الأطفال »

« لكن الكبار أيضاً يرتدون قفازات صوفيه كهذه »

« أيها الشيء التعيس، أراهن أنك لا تعرف حتى ملمس القفازات الجلدية.. هاك ـ»

وبسرعة ألقى بقفازيه الجلديين المشرّبين بالجليد على خدي.

ملت بجذعي لاتفاداهما. واشتعل بداخلي احساس جسماني فج، ألهب خديّ. شعرت بنفسي أحدّق فيه بعينين صافيتين كالبللور..

منذ تلك اللحظة أحببت أومي.

كان ذلك هو الحب الأول في حياتي. وإذا أمكن التغاضي عن هذه الطريقة المباشرة في الكلام، فقد كان من الواضح أنه حب وثيق الارتباط برغبات الجسد.

وبدأت أتطلّع دون صبر إلى الصيف، أو على الأقل إلى بداية الصيف.. وكنت أفكر في أنه من المؤكّد أن الصيف سيأتي معه بفرصة رؤية جسده عاريا. وقد كنت أخفي بداخلي رغبة مخجلة أخرى. الرغبة في أن أرى شيئه الكبير..

على لوحة الاتصالات في ذاكرتي اتصلت أسلاك زوجين من القفازات ـ القفازين الجلديين لأومي مع زوج من القفازات الاحتفالية البيضاء. ولا أبدو قادراً على الاطلاق على أن أقرر أي ذكرى هي الحقيقة، وأي ذكرى هي الزائفة. ربما يكون القفاز الجلدي أكثر انسجاماً مع ملامحه الغليظة. ورغم ذلك، وبسبب ملامحه الغليظة بالتحديد، فربما يكون القفاز الأبيض أليق به.

الملامح الغليظة ـ ورغم أني أستخدم هذه الكلمات فالوصف قد لايعني أكثر من الانطباع الذي خلقه وجه عارٍ لشاب واحد وحيد اختلط بالصبية. ورغم أن بناءه كان لا يُبَارى، فلم يكن اكثرنا طولا بالمرة. والزي المتسم بالادعاء الذي كانت تتطلبه مدرستنا، والذي يشبه زي ضابط بحري، كان يتناسب بصعوبة مع أجسامنا التي لم تنضج بعد، أمّا أومي فقد كان وحده يملأ ذلك الزي معطياً الاحساس بالوزن الراسخ وبنوع من الطابع الجنسي. ولم أكن الوحيد بالتأكيد الذي كان نظر بعيون ملؤها الحسد والحب إلى عضلات كتفيه وصدره، ذلك النوع من العضلات الذي كان يمكن ادراكه حتى تحت الزي الأزرق.

وحول وجهه كان يحلّق دائما شعور غامض بالتفوق. وقد يكون ذلك هو الشعور الذي يزداد اشتعالا كلما جُرح كبرياء المرء. ويبدو أنه بالنسبة لأومي كان سوء الطالع المتمثل في الرسوب في الامتحانات والطرد رمزاً لارادة محبطة. ارادة في ماذا؟ تخيّلت أن الأمر لا يبدو أن يكون غرضا تقوده نحوه «روحه الشريرة» وكنت متيقناً أنه هو نفسه لم يكن يدرك تماماً مغزى هذه المؤامرة الهائلة ضده...

شيء في وجهه كان يعطي الاحساس بالدم الوافر الذي يجري غزيرا خلال جسده، كان وجهاً مستديرا ذا وجنتين عاليتين فوق خدين أسمرين، له شفتان يبدو أنهما خيطتا بخيط دقيق، وفكّان قويان، وأنف عريض لكنه جيد التكوين وليس شديد البروز. كانت هذه الملامح كساء لروح لم تروَّض. كيف يمكن لاي

انسان أن يتوقع أن تكون لهذا الشخص حياة داخلية سرية؟ كل ما كان يأمل فيه المرء هو أن يجد فيه نموذج ذلك الكمال المنسيّ الذي فقده الباقون منا في ماضٍ سحيق.

كانت هناك لحظات يدفعه فيها هاجس إلى النظر في الكتب العميقة والتي تتجاوز سني، التي كنت أطالعها. كنت أرد عليه، في كل الأحوال تقريبا، بابتسامة غامضة وأغلق الكتاب الذي بيدي، أياً كان، لأمنعه من رؤيته. لم يكن ذلك بدافع الخجل. بل الأحرى إنه كان يؤلمني أن تكون هناك أي اشارة إلى اهتمامه بشيء كالكتب، أو إلى اضطرابه أمامها، وإلى ضجره من كماله اللاواعي. كنت أجد مرارة عندما أفكر في أن هذا الصياد قد ينسى، قد يهجر، قد ينكر «آيونيا» مولده.

بلا انقطاع كنت أرقب أومي، سواء في غرفة الصف أو في الملاعب. وعندما كنت أفعل ذلك كنت اصوغ وهما كاملا بدون عيب، حوله. ولهذا فلا أستطيع أن أكتشف ثغرة واحدة في الصورة التي تبقى مطبوعة في ذاكرتي. وفي مقطوعة أدبية كهذه، تبعث الشخصية حية بوصف عيب أساسي مسيطر عليها، عيب محبوب، ولكن ذكراي عن أومي لا يمكن أن أستخرج منها نقصاً واحداً من هذا النوع. ولكن كانت هناك انطباعات أخرى، لا حصر لها، تركها لديّ أومي، متنوعة بلا حدود، ومليئة بالفروق الدقيقة. وفي عبارة واحدة فما أخذته عنه كان تعريفاً دقيقا لكمال الحياة والرجولة، مجسّداً في حاجبيه وجبينه وعينيه وأنفه وأذنيه وخديه ووجنتيه وشفتيه وفكيه، وفي مؤخرة عنقه، وفي عنقه، وفي بشرته، وفي لون جلده، وفي قوته، وفي صدره، وفي يديه، وفي صفاته الأخرى التي لا تحصى.

وعلى أساس هذه الصفات بدأ الاختيار يفعل فعله، وأكملت هيكلا منتظماً مما أحبه ولا أحبه: فبسببه لا أستطيع أن أحب رجلا مثقفا وبسببه لا انجذب إلى شخص يرتدي نظارات. وبسببه بدأت أحب القوة، الشعور بتدفق الدم، والجهل، والايماءات الغليظة، والتحدث بلا مبالاة، والحزن الوحشي الملازم للجسد الذي لم يلوِّثه العقل مطلقاً..

ورغم ذلك فقد كانت هذه الميول تنطوي، منذ البداية على استحالة منطقية بالنسبة لي، تجعل من رغباتي أمراً لا يمكن تحقيقه مطلقا. وعموماً فلا

شيء أكثر منطقية من الدافع الجسدي. ولكن في حالتي فبمجرد أن أبدأ تقاسم التفاهم الذهني مع شخص كان يجتذبني حتى تنهار رغبتي في ذلك الشخص. وحتى أضعف أشكال العقلانية فإن اكتشافها لدى رفيق يكون كفيلا بأن يدفعني إلى حكم عقلاني. وفي علاقة تبادلية كالحب، لا بدّ أن يعطي المرء نفس الشيء الذي يطلبه من الآخر، ومن هنا فإن رغبتي في أن أجد الجهل في رفيق، تطلّبت مني، وإنْ كان ذلك بشكل مؤقت، تمرداً مطلقاً على العقل من جانبي. ولكن مثل هذا التمرد كان مستحيلاً تماما بالنسبة لي.

وهكذا فعندما كنت أواجَهُ مَمنْ يمتلكون الجسد الحيواني الخالص الذي لم يفسده الذهن ـ الشبان الأقوياء، البحارة، الجنود، الصيادون، لم يكن لديّ ما أفعله سوى أن أراقبهم بصفة دائمة من بعيد بلا مبالاة هادئة، حريصاً على ألاّ أتبادل الحديث معهم. وقد يكون المكان الوحيد الذي أستطيع أن أعيش فيه مرتاحاً هو أرض مدارية غير متحضرة، حيث لا أستطيع أن أتحدث لغتهم. والآن وأنا أفكر في ذلك، أدرك أني كنت أشعر منذ طفولتي الباكرة حنينا إلى تلك الأصياف الكثيفة التي تغلي دائمًا في البقاع المتوحشة.

جميل. هناك القفاز الأبيض الذي كنت أهم بالحديث عنه.

في مدرستي تعوّدنا ارتداء القفازات البيضاء في أيام الاحتفالات، ومجرد ارتداء زوج من القفازات البيضاء، بأزرار صدفية تلمع لمعة باهتة عند المعصمين وثلاثة صفوف هادئة من الدرزات على الظهر، كان كافياً لبعث كل رموز الأعياد ـ قاعة الاجتماعات القاتمة التي تقام فيها الاحتفالات، وصندوق حلوى « شيوز » الذي نتلقاه عند الخروج، والسماء الصافية التي تحتشد تحتها تلك الأيام دائمًا بأصوات مدوية في منتصفها ثمّ تصمت.

كان ذلك عيداً قوميا في الشتاء، ولا ريب أنه كان « يوم الامبراطورية ». في ذلك اليوم أيضاً جاء أومي إلى المدرسة مبكراً على غير العادة.

طرد طلاب السنة الثانية طلاب السنة الأولى من فوق الأراجيح التي بالملعب بجوار مباني المدرسة، شاعرين بلذة قاسية وهم يفعلون ذلك، وقد أصبحوا مالكين مطلقين للأراجيح. ورغم أن طلاب السنة الثانية كان يبدو عليهم في الظاهر احتقار مثل هذه الألعاب، إلاّ أنهم كانوا يحملون في قلوبهم ودّاً قديما تجاهها. وباجبار تلاميذ السنة الأولى على تركها، صار بوسعهم أن يدّعوا، انقاذاً لماء وجوههم، أنهم يستمتعون بها بشيء من السخرية دون أية جدية.

كوّن تلاميذ السنة الأولى حلقة عن بعد وراحوا يراقبون اللعب الخشن لتلاميذ الصف الأعلى، الذين كانوا بدورهم يشعرون بوجود جمهور لهم، وراحت الأرجوحة المعلقة بالسلاسل، تتمايل رائحة غادية، في حركة ايقاعية، كالآت الحربية القديمة، وكان الرهان أن يوقع البعض بالبعض الآخر من فوقها.

وقف أومي وقد زرع قدميه بثبات في نقطة المنتصف على اللوح المتأرجح، ناظراً حوله بلهفة بحثاً عن خصم، في وضع جعله يبدو بالضبط ، كقاتل محاصر.

ولم يكن في صفنا من هو نداً له. كان عدة صبية قد قفزوا بالفعل فوق اللوح، الواحد بعد الآخر، لتسقطهم يدا أومي القويتان، ولتتعثر أقدامهم فوق الصقيع على الأرض المحيطة بالأرجوحة، التي كانت تلمع تحت ضوء شمس الصباح الباكر.

بعد كل انتصار كان أومي يعقد يديه فوق رأسه كمصارع منتصر وهو يبتسم ابتسامة فياضة، ويهتف تلاميذ السنة الأولى وقد نسوا أنه كان زعيم العصبة التي طردتهم بعيداً عن الأرجوحة..

وتابعت عيناي يديه في القفاز الأبيض، كانتا تتحركان بقسوة، ولكن بدقة رائعة، كمخلبي حيوان شاب، ربما كان ذئبا. ومن حين لحين يشقان هواء الصباح الشتوي كرياش السهم، إلى صدر الخصم مباشرة. ويقع الخصم، دائمًا على الأرض الجليدية، مرتمياً مرة على قدميه، ومرة على مؤخرته. وفي أحوال نادرة، كان أومي نفسه يوشك على السقوط في لحظة اسقاطه للخصم، وبينما هو يكافح لاستعادة توازن جسمه المترنح، يبدو وهو يعاني العذاب هناك فوق الأرجوحة التي جعلها الجليد ذو الوميض الخافت، زلقة. ولكن قوة فخذية المرنين كانت تجعله يستعيد نفسه، دائمًا ليتخذ من جديد وضع السفاح.

وتتحرك الأرجوحة يمنة ويسرة بشكل غير شخصي وهي تتمايل في أقواس منتظمة...

وبينما كنت أراقب، غمرني فجأة قلق معذب ولا يمكن تفسيره. كان يشبه دواراً كذلك الذي تحدثه مراقبة حركة الأرجوحة، لكنه لم يكن كذلك. ربما كان أقرب إلى الدوار العقلي، قلق يوشك فيه توازني الداخلي أن يتلاشى لمرأى كل حركة من حركاته المدمرة. وقد أصبح هذا الاهتزاز اكثر خطورة بفعل حقيقة

مؤدّاها أنه يحتوي على قوتين متناقضتين تتجاذباني ، وتسعى كل منهما إلى السيطرة. كانت إحداهما غريزة حفظ الذات. القوة الثانية ــ المضّرة بقدر أكبر وبعمق أكبر وكثافة أكبر على التدمير الكامل لتوازني الداخلي ــ كانت ميلاً قهريا للانتحار ، ذلك الميل الخفي والسّري الذي غالباً ما يسلم المرء نفسه إليه دون وعي.

«ماذا بكم يا حفنة من الجبناء! ألا يوجد شخص آخر؟»

تأرجح جسد أومي، برقة، يمينا ويسارا ، وفخذاه ينثنيان مع تحركات الارجوحة، وضع يديه بالقفاز الأبيض فوق فخذيه ولمعت الشارة المذهبة فوق قلنسوته تحت شمس الصباح. ولم أره جميلا كما كان في تلك اللحظة أبداً.

وصمت « سأفعلها أنا! »

زادت دقات قلبي عنفا بشكل مطّرد، واستخدمتها كمقياس لأحدّد اللحظة التي أقول فيها هذه الألفاظ، أخيراً. كان الأمر دائمًا كذلك في اللحظات التي أستسلم فيها للرغبة. بدا لي أن ذهابي ووقوفي أمام أومي فوق اللوح المتأرجح هو قدَر مكتوب، أكثر منه عمل اندفاعي. وفي السنوات التالية، كانت مثل هذه الأفعال تقودني خطأً إلى الاعتقاد بأني « رجل ذو ارادة قوية ».

وصاح الجميع « احترس! احترس! سوف تهُزَم »

ووسط صيحاتهم الساخرة اعتليت أحد طرفي الأرجوحة . وبينما كنت أحاول النهوض بدأت قدماي تنزلقان، ومرة أخرى امتلأ الهواء بصيحات السخرية الصاخبة.

وحيّاني أومي بوجه كوجه البهلوان. راح يلعب دور العبيط بكل ما لديه من قوة متظاهراً أنه ينزلق. ثم إيغيظني بأن يحرك أصابعه ناحيتي، وهي في القفاز. وبدت تلك الأصابع لعيني، الأطراف الحادة لاسلحة خطيرة، توشك أن تخترمني..

والتقت كفوف أيدينا بقفازاتها عدة مرات، لقاءات موجعة، وفي كل مرة كنت أترنّح تحت وطأة الضربة، وكان من الواضح أنه يحتجز قوته عن عمد، كما لو كان يريد أن يلهو بي بما يسرّ قلبه، مؤجلاً ما كان يمكن أن يكون هزيمة سريعة لولا ذلك.

« اوه ! إني خائف ـ كم أنت قوي! ـ لقد هُزِمت. أكاد أسقط ـ انظر إلّي ! » وأخرج لسانه وتظاهر بأنه سيقع.

وكان من المؤلم بالنسبة لي، وبشكل لا يُطاق أن أرى وجهه البهلواني، وأن أراه يدمِّر جماله بغبائه. ورغم أني كنت مجُبَراً على التراجع بطول اللوح، إلاّ أني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أغضّ بصري. وفي تلك اللحظة بالذات، انقضت عليّ يدهُ اليمنى. وكرد فعل آلي، تجنباً للسقوط، أطبقت على الهواء بيدي اليمنى، وبالصدفة تمكنت من التشبث بأطراف أصابع يده اليمنى. وتولّد لديّ شعور حاد بأصابعه وقد ملأت القفاز الأبيض من الداخل.

ونظر كل منا في عيني الآخر للحظة. كانت لحظة واحدة حقا. اختفت نظرة المهرج، وغمر وجهه بدلاً من ذلك تعبير بشوش بشكل غريب. كان شيئاً كاملاً وقاسياً، لا هو بالعداء ولا الكراهية ، ينبض هناك كوتر القوس. وربما كان ذلك خيالي المجرد. وربما لم يكن سوى النظرة الفارغة العارية التي بدا بها في اللحظة التي شعر فيها، وأنا أشدّه من أطراف أصابعه، أنه يفقد توازنه. ومهما كان الأمر فقد حدست أن أومي رأى الطريقة التي نظرت بها إليه في تلك اللحظة وشعر بالقوة النابضة التي سرت بين أطراف أصابعنا، وحدس سريّ ـ أني أحبه، هو دون سواه في العالم.

في تلك اللحظة تقريباً سقطنا معاً من فوق الارجوحة.

وكان هناك مَنْ ساعدني على النهوض. أومي هو الذي ساعدني. جذبني من ذراعي بخشونة، ودون أن ينطق بكلمة مسح الأقذار عن ملابسي. كان مرفقاه وقفازه ملوثة بمزيج من الأقذار والجليد.

أخذ ذراعي ومشى معي بعيداً. تطلّعتُ إلى وجهه وكأني ألومه على هذا التعبير عن المودة.

في مدرستي كنا جميعا زملاء دراسة مذْ كنا في المدرسة الأدنى، ولم يكن هناك شيء في أن نضع أذرعنا على أكتاف بعضنا. والحقيقة أن صفارة الطابور دوّت في تلك اللحظة وانطلق الجميع بنفس هذه الطريقة الودودة. وحقيقة أن أومي سقط إلى الأرض معي لم تكن بالنسبة لهم إلاّ نهاية للعبة كانوا قد ملّوها بالتدريج. بل إن مشهد أومي وهو يمشي معي ، ذراعاً في ذراع، لم يكن جديراً بملاحظة خاصة.

ورغم كل ذلك فقد شعرت بلذة سامية وأنا أمشي متكئاً على ذراعه. وربما بسبب ضعف بنيتي، كنت أشعر دائمًا بنذير الشر مختلطاً بكل بهجة، ولكن في هذه الحالة لم أشعر إلاّ باحساس جاد ووحشي بذراعه: بدا أن ذلك الاحساس انتقل من ذراعه إلى ذراعي، وبعد أن تمكن من الدخول، انتشر في كل جسدي وشعرت بأني أحب أن أمشي معه هكذا، حتى نهاية الأرض.

لكننا وصلنا إلى حيث يصطف الطابور، حيث ترك ذراعي بأسرع مما يجب، واتخذ مكانه في الصف. ولم ينظر تجاهي بعدها. وخلال الاحتفال التالي جلس بعيداً عني بأربعة مقاعد، ومرة بعد مرة كنت أنظر إلى البقع التي على قفازي الأبيض ثم إلى البقع التي على قفاز أومي....

كان عشقي الأعمى لأومي خالياً من أي عنصر من النقد الواعي، بل ولم تكن لديّ وجهة نظر أخلاقية تتعلّق به، وكلما حاولت أن أوقع بـالكتلة غير المنتظمة لعشقي داخل حدود التحليل، كانت تختفي. ولو كان هناك شيء كالحب الذي ليس له زمن ولا تطور، فهذه بالضبط هي عاطفتي. فالعيون التي كنت أرى بها أومي كانت دائمًا عيون «النظرة الأولى» أو، إذا كان لي أن أقول ذلك «النظرة الهمجية». كان موقفاً لا واعيا، بشكل خالص، من ناحيتي، جهداً لا يتوقف لحماية نقائي ذي الأربعة عشر عاما من سياق التدمير.

هل كان يمكن أن يكون ذلك حبا؟ أفترض أنه نوع من الحب، فرغم أنه احتفظ منذ النظرة الأولى بشكله النقي وإلى الأبد، مع مجرد تكرار ذلك الشكل المرة تلو المرة، فقد كان له أيضاً نوعه الفريد في الانحطاط والتحلل، وكان انحطاطاً أكثر شراً من أي نوع معتاد من الحب. والحقيقة أنه من بين كل أشكال الانحطاط في هذا العالم، فإن النقاء المتعفن هو الأكثر خبثا.

ومع ذلك ففي حبي، الذي لم يُكافأ، لأومي، في هذا الحب الذي هو أول ما قابلت في حياتي، بدوت كعصفور وليد يخفي شهواته الحيوانية البريئة حقاً، تحت جناحه، لم يكن يغويه حب الامتلاك، بل كانت تغويه ببساطة، الغواية المجردة ذاتها. وعلى الأقل، فلم أكن استطيع ونحن في المدرسة، وخاصة أثناء درس ممل، أن أحوِّل عينيّ عن المنظر الجانبي لوجه أومي. وماذا كان بوسعي أن أفعل خلاف ذلك وأنا لم أكن أعلم أن الحب هو أن تسعى وأن يُسعَى إليك؟ فبالنسبة لي لم يكن الحب إلاّ حوارا بالالغاز الصغيرة، دون تقديم أية اجابات. أمّا عن عبادتي الروحية، فلم أكن أتصورها أبداً شيئاً يحتاج نوعا من الاجابة.

وقد أُصبْت ذات يوم ببرد، ورغم أنه لم يكن خطيراً بالمرة، فقد احتجبت عن المدرسة. ولدى عودتي إلى المدرسة في اليوم التالي اكتشفت أن اليوم الذي ضيّعته باختياري، لم يكن أقل من يوم فحصنا الربيعي الأول للسنة. وقد تخلّف عدة تلاميذ آخرين مثلي عن الفحص، وذهبنا جميعاً إلى المكتب الطبي.

في المكتب كان موقد الغاز يرسل شعلة زرقاء ضعيفة في ضوء الشمس، حتى لم يكن بوسع المرء أن يتأكد من أن الموقد كان مشتعلا. لم تكن هناك إلاّ رائحة المطهرات. (لم يكن هناك أثر لذلك العبق الأرجواني الشاحب، كاللبن الساخن المحلىّ بالسكر)، المميزة لغرفة احتشد فيها الصبية انتظاراً لفحص طبي، وأجسادهم العارية تتدافع وتتصادم، ولم يكن هناك في الحقيقة إلاّ حفنة منا، تخلع ثيابها في صمت، وترتعش في بؤس..

كان هناك فتى نحيل، يُصَاب بالبرد دائمًا، مثلي أنا. كان يقف فوق الميزان وبينما كنت أنظر إلى ظهره الشاحب البارز العظام، المغطى بالزغب، تذكّرت فجأة رغبتي الدائمة العنيفة في أن أرى جسد أومي عاريا. وأدركت مدى غبائي إذ لم أتوقع أن يكون الفحص الطبي في اليوم السابق فرصة كاملة لاشباع تلك الرغبة. وقد ضاعت الآن تلك الفرصة، ولم يعد لديّ سوى أن أواصل انتظار فرصة عَرَضية في المستقبل.

وشحب لوني. وشعرت في لحم الأوزة الشاحب الذي غطاني فجأة بنوع من الأسف كأنه البرد الذي ينخر العظام. حملقت في الفراغ وأنا أحكّ جروح التطعيم القبيحة على ذراعيّ النحيلتين. ونودي اسمي. وبدا الميزان ، بالضبط كمشنقة تعلن ساعة اعدامي.

« ثمانية وثمانون » نبح المساعد لطبيب المدرسة. كان ذلك المساعد فيما مضى جندياً في مستشفى عسكري ولا زال يحتفظ بتلك الهيئة.

وبينما كان الطبيب يسجّل الرقم في بطاقتي، كان يغمغم لنفسه.

« لو أنه وصل إلى تسعين رطلا على الأقل »

كنت قد تعودّت هذه المعاملة في كل فحص طبي، لكني كنت مرتاحا اليوم لأن أومي لم يكن موجوداً ليشهد مهانتي، حتى أن كلمات الطبيب لم تسبب لي العذاب المعتاد. وللحظة وصل احساسي بالراحة إلى درجة تقارب البهجة..

« حسنا.. الذي يليه »

دفع المساعد كتفي دون صبر. لكني لم أسدد إليه هذه المرة نظرة الكراهية والحنق التي عادة ما كنت أوجهها إليه..

ومع ذلك، فلا بدّ أني كنت أتوقع، ولو بشكل غامض ، نهاية حبي الأول. والاحتمال الأكبر أن القلق الذي خلقه هذا الولع كان نواة للذّتي.

وجاء يوم في أواخر الربيع يشبه عينة الترزي المأخوذة من قماش الصيف أو مثل « بروفة » الثوب للموسم المقبل. كان ذلك اليوم من السنة الذي يأتي كممثل للصيف ليفتش خزانة ثياب كل انسان ويتأكّد من الاستعداد الكامل. كان ذلك اليوم الذي يظهر فيه الناس بقمصان الصيف ليظهروا أنهم اجتازوا الاختبار.

وبرغم دفء اليوم، فقد كنت مصاباً ببرد، وكانت شعبي الهوائية في ضيق. وتصادف أن أحد أصدقائي كان يعاني من اضطراب معوي، وذهبنا معاً إلى المكتب الطبي لنحصل على اذنين مكتوبين يسمحان لنا بمجرد مشاهدة التدريبات الرياضية دون أن نضطر إلى المشاركة.

وفي طريق عودتنا مشينا باتجاه صالة الألعاب الرياضية مباشرة وكأبطأ ما نستطيع. فقد أتاحت لنا زيارتنا للطبيب مبرراً كافيا للتكاسل وكنا حريصين على أن نقلل، ولو بمقدار ضئيل، الوقت الممل الذي سيتعين علينا أن نقضيه في مشاهدة الرياضة.

«أوه، الجو حار، أليس كذلك؟» قلت ذلك وأنا أخلع سترة الزي المدرسي.

« يحُسَن بك ألاّ تفعل ذلك ، وأنت مصاب ببرد. وسوف يجعلونك تلعب، رغم كل شيء، إذا رأوك هكذا »

أسرعت بارتداء سترتي مرة أخرى.

« أمّا بالنسبة لي فالأمر مناسب لأن الامر لا يتجاوز معدتي » وبدلاً من أن أفعلها أنا، قام صديقي بخلع سترته عمداً، وكأنه يضايقني.

ولدى وصولنا إلى صالة الألعاب الرياضية، رأينا بجوار الملابس المعلقة على مشاجب بطول الحائط جميع الأولاد وقد خلعوا صدرياتهم ، بل وخلع بعضهم القمصان. وبدت المساحة المحيطة بمتوازيات التدريب الخارجية، حيث كان الرمل والعشب، مشتعلة بالضوء ونحن ننظر إليها من عتمة صالة الألعاب الرياضية.

وبدر عن بنيتي الضعيفة رد فعلها المعتاد، ومشيت تجاه المتوازيات وأنا أسعل سعلات صغيرة متقطعة.

ولم يكد المدرب الرياضي، عديم الشأن، ينظر إلى التصاريح الطبية التي سلمناها له، وبدلا من ذلك استدار ناحية الأولاد المنتظرين وقال لهم:

« جميل ، والآن دعونا نجرِّب العقلة. أومي، أرهم كيف يكون ذلك. »

وبدأت الاصوات الودودة تنطق باسم أومي خلسة. كان قد تبخر بكل بساطة، كما كان يفعل غالباً أثناء درس الألعاب. ولم يكن أحد يعلم ما يفعله في تلك المناسبات، لكنه جاء هذه المرة أيضاً يتسكع من وراء شجرة كانت أوراقها الشابة الخضراء ترتعد في الضوء.

وعندما رأيته أحدث قلبي ضجيجاً في صدري. كان قد نزع ثيابه دون أن يترك سوى قميص أبيض باهر دون اكمام يغطي صدره. وجعل جلده الداكن البياض النقي قميصه الداخلي يبدو شديد النظافة. كان بياضا يمكن أن تشمّه من بعد كأنه ملاط باريس الأبيض. كان ذلك الملاط الأبيض محفوراً بنعومة مظهرا الحدود الجسورة لصدره وحلمتيه.

« العقلة أليس كذلك؟ » سأل المدرب وهو يتحدث باقتضاب، بلهجة واثقة.

« أجل، هذا صحيح »

ثمّ، وبتلك الوقاحة المتعالية التي غالباً ما يظهرها أصحاب الأجسام الرائعة، مدّ أومي ذراعية بتكاسل إلى الأرض ومرّغ كفيه في الرمل الرطب من تحت السطح مباشرة. وعندما نهض، جلا يديه ببعضهما في خشونة، ثمّ أدار رأسه إلى أعلى تجاه العُقلة الحديدية. ولمعت عينان بتصميم جسور من فرد يتحدى الآلهة ، وعكس انسانهما للحظة السحب وسماء مايو الزرقاء، مختلطة بتعالٍ بارد.

وانتفض بوثبة واحدة، وفي لحظة كان جسمه يتدلّ من العقلة الحديدية معلّقاً هناك بذراعيه القويين. ذراعين لا شك أنهما جديران بالوشم ذي اللهب.

« آآآه ! » صعدت صيحة الدهشة من أترابه وطغت كثيفة في الهواء..

وكان بوسع أي من الأولاد أن ينظر إلى قلبه ليكتشف أن اعجابه لم تثره فقط بادرة القوة من أومي. لكنه كان اعجاباً بالشباب، بالحياة، بالتفوق. كان

دهشة لنمو الشعر بغزارة كما كشفت عنه ذراعا أومي المرتفعتين، في ابطيه.

كانت هذه تقريبا أول مرة نرى فيها الشعر بهذه الغزارة، بدت رائعة كانها نبت مترف لأعشاب صيفية مزعجة. وبنفس الطريقة التي تنتشر بها هذه الأعشاب، غير قانعة بأن تغطي بالكامل، حديقة صيفية، فتنتشر حتى فوق درج حجري، خاصة الشعر فوق الضفاف المحفورة بعمق في ابطي أومي؛ وانتشر كثيفا باتجاه صدره. كان هذان الدغلان الأسودان يلمعان بنعومة، غارقين في الشمس، وكان البياض المذهل لجلده ذاك يشبه الرمل الأبيض الذي يتسلل من خلالها.

وعندما بدأ يرفع جسده ، برزت عضلات ذراعيه بصلابة. وانتفخ كتفاه كسحابات الصيف، وكان الدغلان في ابطيه ينطويان تحت الظلال القاتمة، ليختفيا تدريجياً. وأخيراً احتكّ صدره بالقضيب الحديدي صاعداً لأعلى، وهو يرتعد هناك برقة. وبتكرار هذه الحركات ذاتها، أدّى سلسلة من الرفعات.

قوة الحياة ــ لم يسيطر على الصبية إلاّ مجرد الوفرة الباهظة لقوة الحياة ــ سيطر عليهم الشعور الذي كان يعطيه بأنه يفيض حياة، باحساسهم بالعنف المنزّه عن الغرض الذي لا يمكن تفسيره إلاّ كحياة موجودة لذاتها، وذلك بفضل النوع الخاص به من الثراء العكر المزاج، اللامبالي ودون أن يدرك هو ذلك، تسللت قوة ما إلى جسده وكانت تدبر للسيطرة عليه، لتندفع داخله، ثم تنسكب خارجه، لتغطي على نوره. ومن هذه الناحية كانت القوة تشبه مرضاً ما، وعندما أصيب جسده بهذه القوة العنيفة نزل إلى الأرض لسبب واحد هو أن يصبح أضحية بشرية ليس لديها أي خوف من العدوى، فالناس الذين يعيشون في فزع من العدوى لا يملكون إلاّ أن ينظروا إلى مثل هذا الجسد على أنه تعنيف مرير، وترنّح الصبية إلى الخلف، بعيداً عنه.

أمّا بالنسبة لي فقد كنت أشعر كبقية الأولاد ــ مع اختلافات هامة في حالتي ــ كان ذلك يكفي لأن يجعلني أحمر خجلا ــ كان لديّ انتصاب منذ اللحظة الأولى التي شهدت فيها غناه هذا. كنت أرتدي سروالا ربيعيا خفيفا وكنت أخشى أن يلاحظ الأولاد ما حدث لي. وحتى لو تغاضينا عن هذا الخوف، كانت هناك عاطفة اخرى في قلبي، لم تخفف منها السعادة البتة. فهأنذا أنظر إلى الجسد

العاري الذي طالما اشتقت أن أراه، وأدّت صدمة مشاهدته إلى اثارة عاطفة غير متوقعة بداخلي، كانت عكس البهجة.

كانت الغيرة. .

هبط أومي إلى الأرض بهيئة الشخص الذيَ أنجز عملاً نبيلا. وعندما سمعت ارتطام السقطة، أغمضت عيني، وهززت رأسي. ثمّ قلت لنفسي إني لم أعد أحب أومي. .

كانت هي الغيرة. كانت غيرة عنيفة بما يكفي لتجعلني أتخلّ طواعية عن حبي لأومي.

وربما كانت الحاجة التي بدأت أشعر بها في ذلك الوقت تقريباً إلى برنامج اسبرطي للتدريب الذاتي، لها دخل بهذا الموقف. (حقيقة أني أكتب هذا الكتاب هي بالفعل مثال واحد على استمرار جهودي في هذا الاتجاه) وبسبب مرضي والعناية الفائقة التي أُحطت بها منذ كنت رضيعا كنت دائمًا أخجل، حتى من النظر إلى الناس في عيونهم مباشرة. لكني الآن أصبح يسيطر عليّ شعار واحد: « كن قوياً ».

وبهذا الهدف بدأت تدريباً يتكون من التحديق بثبات في وجه هذا أو ذاك من ركاب الترام الذي كنت أذهب به إلى المدرسة وأعود منها. ولم يكن معظم الركاب، الذين اختارهم اعتباطاً، يظهرون علامة على الخوف، لأن صبيا شاحبا ضعيفا يحملق فيهم، لكنهم كانوا يكتفون بالنظر إلى الجهة الأخرى وكأنهم تضايقوا. وفي أحوال نادرة فقط كان بعضهم يردّ على التحديق بالتحديق. وكلما نظروا بعيداً كنت أعد ذلك انتصاراً. وبهذه الطريقة بدأت أدرِّب نفسي تدريجياً على النظر إلى الناس في عيونهم. . .

وبمجرد أن قررت الاقلاع عن الحب، طردت كل تفكير جديد فيه من عقلي. كان ذلك قراراً متسرعا، يفتقر الى التبصّر، فقد عجزت عن أن أضع في حسابي واحدا من أوضح البراهين القائمة على الحب الجنسي – ظاهرة الانتصاب. وعبر فترات طويلة كان يحدث لي الانتصاب، وكنت أنغمس أيضاً في تلك العادة السيئة التي تسببه كلما كنت وحدي، دون أن أدرك حتى مغزى أفعالي ورغم أني قد توفرت لديّ بالفعل المعلومات المعتادة المتعلقة بالجنس، فلم يكن يزعجني، بعد، الشعور بأني مختلف.

لا أقصد أن أقول إني كنت أرى رغباتي هذه التي انحرفت عن المعايير المقبولة على أنها طبيعية وملتزمة، ولا أقصد أيضاً أنني كنت مثقلا بشعور خاطىء مؤدّاه أن أصدقائي لديهم نفس الرغبات . والمدهش حقاً أني كنت غارقاً في الحكايات العاطفية حتى أني كرّست جميع أحلامي الرقيقة لأفكار الحب بين الرجل والفتاة، وللزواج، تماماً كما لو كنت فتاة عذراء لا تعرف شيئاً عن الدنيا. وألقيت بحبي لأومي في كومة نفاية الألغاز المهملة، دون أن أفتش مرة واحدة بعمق عن مغزاه. وعندما أكتب الآن كلمة الحب، وعندما أكتب الود، يختلف معناها لـديّ عمّا كانت تعنيه لي عندئذٍ، بشكل تام. ولم أكن حتى أحلم بأن يكون لمثل تلك الرغبات التي شعرت بها تجاه أومي صلة هامة بحقائق « حياتي ».

ومع ذلك فقد كانت غريزة ما بداخلي تتطلّب أن أسعى إلى العزلة، أن أبقى بعيداً كشيء مختلف، وقد تجسّد هذا الدافع القهـري كمرض غـامض وغريب. وقد وصفت بالفعل كيف كان يثقلني في طفولتي شعور بالقلق من فكرة البلوغ، وكيف كان شعوري بالنمو يصحبه دائـمًا قلق غريب ونفّاذ.

خلال سنوات نموي كانت لكل سراويلي الجديدة ثنية عميقة بحيث يمكن اطالتها كل عام، وكما يحدث في أي أسرة أخرى تماماً، فقد كان طولي المطّرد الزيادة يُسجَّل بعلامات متتالية بالقلم الرصاص على أحد أعمدة المنزل. وقد كانت الاحتفالات الصغيرة بهذه القياسات الدورية تحدث دائمًا في غرفة الجلوس تحت بصر الأسرة كلها، وكانوا في كل مرة يشاكسونني ويجدون لذة سخيفة العقل في حقيقة أني ازداد طولا. وكنت أرد بابتساماتٍ مغتصبة.

والحقيقة أن فكرة نموي لأبلغ طول شخص بالغ ملأتني بالتوجس من خطر مخيف ما. فمن ناحية، أدّى شعوري غير المحدد بالقلق إلى زيادة قدرتي على الأحلام المنفصلة تماماً عن الحقيقة. ومن ناحية أخرى دفعني ذلك تجاه « العادة السيئة » التي جعلتني أتخذ من تلك الأحلام ملجأ. كان القلق عذري . .

« من المؤكّد أنك ستموت قبل أن تبلغ العشرين». قال لي أحد الأصدقاء ذات مرة مازحاً، مشيراً إلى ضعف تكويني.

ورددت « يا له من قول مزعج ! » ولويت وجهي بابتسامة ممرورة. ولكن توقعه كانت فيه جاذبية عذبة ورومانسية بالنسبة لي.

ومضى يقول: « هل تريد أن تراهنني على ذلك؟ »

« ولكن إذا كنت تراهن على أني سأموت ، فليس لديّ إلاّ أن أراهن على أني سأعيش ».

« هذا صحيح، أليس كذلك؟ هذا مخجل، أليس كذلك ». قال صديقي، وهو يتحدث باندفاع الشباب « لا شك أنك ستخسر، ألن تخسر؟ ».

كان صحيحاً ــ ليس بالنسبة لي فقط، بل بالنسبة لكل التلاميذ الذين من عمري ــ أنه لا يمكن بعد تبين شيء في آباطنا يقارب نضج أومي. وبدلاً من ذلك كان هناك فقط وعد باهت ببراعم قد تتفتح فيها بعد. ولهذا السبب لم ألق من قبل بالاً إلى ذلك الجزء من جسمي. ولا شك أن مشهد الشعر تحت ذراعي أومي في ذلك اليوم هو الذي جعل الابط « فيتشا » بالنسبة لي.

وأصبحت كذلك حتى أنني لم أكن آخذ حماماً إلاّ وأقف طويلاً أمام المرآة. أحدِّق في الانعكاس غير الجميل لجسدي العاري. كانت حالة أخرى لصغير البط القبيح الذي يعتقد أنه سيصبح بجعة، فيما عدا أن تلك الحكاية البطولية كان سيصبح لها، هذه المرة، ختام معاكس تماماً. فرغم أن كتفيّ المهزولين وصدري الضيق لم يكونا يشبهان أومي ، أقل شبه، فقد كنت أدقق النظر إليهما في المرآة، وأفتعل الأسباب التي تجعلني أعتقد أنه سيكون لي يوما صدر كصدر أومي، وأكتاف كأكتافه. ولكن بالرغم من هذا، فقد كانت طبقة رقيقة من القلق الثلجي تتكوّن هنا وهناك فوق سطح قلبي. كان أكثر من قلق: كان نوعاً من الاعتقاد المازوكي، اعتقاداً راسخاً كما لو كان قائماً على الهام مقدس، اعتقاداً جعلني أقول لنفسي: « لن تشبه أومي طوال حياتك ».

وفي الرسوم المطبوعة بالكليشيهات الخشبية في « الجنروكو » غالباً ما يجد المرء ملامح اثنين من العشاق متشابهة بشكل يثير الدهشة، وفيها القليل مما يميز الرجل عن المرأة. ويقترب المثال الكوني اليوناني للجمال بنفس الكيفية من التشابه الوثيق بين الذكر والانثى. ألا يكون الأمر أنه خلال أعمق دخائل الحب ينساب حنين لا يمكن أن يتحقق يرغب الرجل والمرأة معاً أن يكون كل منهما صورة دقيقة للآخر، ألا يمكن أن يدفعهما هذا الحنين إلى الأمام، ليؤدّي في النهاية إلى رد فعل مأساوي يسعيان من خلاله إلى اتيان المستحيل بالمضي إلى الطرف النقيض؟ وباختصار، فما دام حبهما المتبادل لا يستطيع أن ينجز كمال التماثل المتبادل، ألا يوجد إذن سياق عقلي يحاول كلاهما من خلاله ، بدلا من ذلك، أن يؤكد نقاط التباين.

فيؤكّد الرجل رجولته والمرأة أنوثتها ـ ويستخدم هذا التمرد ذاته كنـوع من الاغراء للآخر؟ أو إذا أنجز التشابه، فإنه لا يبقى ، للأسف، إلاّ لحظة الوهم العابرة، لأنه مع أزدياد جسارة الفتاة وحياء الفتى، تأتي لحظة يمر كل منهما بالآخر وهو يمضي في الاتجاه المعاكس، متجاوزين هدفهما، ومنطلقين إلى نقطة يكفّ الهدف عندها عن الوجود.

وبالنظر إلى غيرتي في هذا الضوء ـ غيرة عنيفة بما يكفي لجعلي أقول لنفسي أني أقلعت عن الحب ـ فإنها تبدو مزيداً من الحب. وانتهى بي الأمر إلى أن أحب تلك الأشياء التي تبدو كأشياء أومي والتي كانت تتفتح في ابطي بدرجة ابطأ، وباستحياء، وتنمو وتصبح أكثر قتامة.

وجاءت عطلة الصيف. ورغم أني كنت أتطلّع إليها بفارغ الصبر، فقد ثبت أنها أحد تلك الفواصل التي لا يعرف المرء أثناءها ماذا يفعل بنفسه، ورغم أني كنت جائعاً إليها، فقد ثبت أنها وليمة غير مريحة بالنسبة لي.

ومنذ أصبت بحالة خفيفة من السل في طفولتي، منعني الطبيب من تعريض نفسي للأشعة القوية، فوق البنفسجية. ولم يكن مسموحاً لي على ساحل البحر أبـداً أن أبقى بـالخـارج تحت أشعـة الشمس المبـاشـرة اكـثر من ثـلاثـين دقيقـة كـل مـرة، وأي مخـالفـة لهـذه القـاعـدة كـانـت تـأتي دائـمًا بعقوبة في شكل هجمة سريعة من الحمى. ولم يكن حتى من المسموح لي أن أشترك في تدريب السباحة بالمدرسة. وبالتالي فلم أتعلم السباحة أبداً. وفيما بعد اكتسب هذا العجز عن السباحة مغزى جديداً يتصل بتعلّقي الدائم بالبحر، في المناسبات التي كان له فيها عليّ سلطان باعث على الاضطراب.

ولكن في الفترة التي أتحدث عنها، لم أكن قد شعرت بعد بهذا الاغراء القاهر من جانب البحر. ومع ذلك فمع رغبتي في أن أقضي، بشكل ما، الفصل الممل الذي كان بلا طعم تماماً بالنسبة لي، وهو فصل أيقظ، علاوة على ذلك، حنيناً غير مفهوم بداخلي، قضيت ذلك الصيف على الشاطيء مع أمي وشقيقي وشقيقتي..

وفـجـأة أدركـت أني تـركـت وحـيـداً عـلى الـصـخـرة.

كنت قـد مشيت حتى تلك الصخرة مـع شقيقي وشقيقتي، بحثاً عن السمك الصغير الذي يلمع بين خلجات الصخور ولم يكن صيدنـا طيباً كـما

توقعنا، وشعر شقيقي وشقيقتي الأصغران بالملل. وجاءت خادم تنادينا للعودة إلى المظلة حيث كانت تجلس أمي. وقد رفضت غاضباً أن أعود، وعادت الخادم بشقيقي وشقيقتي، تاركة اياي وحيداً.

كانت شمس ما بعد الظهر الصيفية تضرب سطح البحر دون انقطاع، وكان الخليج بكامله مساحة واحدة هائلة من الوهج. وعلى الأفق وقفت بضع سحابات صيفية خرساء هادئة وقد اغرقت نصف تكوينها الرائع والحزين والنبوي في البحر . وكانت عضلات السحب شاحبة كالرخام.

انطلقت من الشطآن الرملية عدة قوارب شراعية، وقوارب بخارية صغيرة وعدة قوارب صيد وكانت تتجول بكسل فوق البحر الرحب. وفيما عدا الأجسام الصغيرة في القوارب، لم يكن يُشاهَد أي شكل بشري. وكان سكون خفي يعلو كل شيء، وكأن امرأة لعوباً جاءت تحكي أسرارها الصغيرة. هبت نسمة خفيفة من البحر، آتية إلى أذني بصوت خافت كأنه رفّات جناح خفية لحشرة ضعيفة القلب. كان الشاطىء القريب مني مكوناً، بكامله تقريبا، من صخور واطئة سهلة، تميل ناحية البحر. ولم يكن هناك سوى صخرتين ناتئتين أو ثلاث كهذه التي كنت أجلس عليها.

ومن عرض البحر بدأت الأمواج، وجاءت تنزلق فوق سطح البحر في شكل ارتفاعات قلقة خضراء. وكانت مجموعات من الصخور المنخفضة تمتد خارجاً إلى البحر، حيث كانت مقاومتها للأمواج ترسل الرذاذ عالياً في الهواء ، كأيدٍ بيضاء ترجو النجدة. كانت الصخور تغرق نفسها في الشعور البحري بالوفرة العميقة وبدا أنها تحلم بالطوافي التي انطلقت منفصلة عن مراسيها، ولكن في لحظة تجاوزتها الموجة وجاءت تنزلق تجاه الشاطىء بسرعة لا تهدأ. وعندما اقتربت من الشاطىء صحا شيء ما ونهض داخل قبعتها الخضراء. طالت قامة الموجة، وعلى مدى البصر كشفت عن نصل فأس البحر الهائلة، الحادة كالشفرة مُسلَّطة وجاهزة للضرب. فجأة سقط الجيلوتين الداكن الزرقة ، ناثراً إلى أعلى رذاذاً دمويا أبيض، وتتبع جسم الموجة، الساقط المهتاج، رأسه المقطوع ، وللحظة كانت زرقة السماء النقية، تلك الزرقة اللاأرضية ذاتها، التي تنعكس في عيني شخص على حافة الموت. . . وخلال اللحظة القصيرة لهجمة الموجة، أخفت مجموعات الصخور، الناعمة المتآكلة ، نفسها في زبد أبيض، لكنها الآن ، وهي تخرج بالتدريج من البحر، كانت تلمع في البقايا المتراجعة للموجة. ومن قمة الصخرة

حيث جلست أراقب، كان بوسعي أن أرى محارات الناسك تمشي مشية جانبية مجنونة عبر الصخور اللامعة، والسلطعون يكفّ عن الحركة في الوهج.

وفجأة اختلط شعوري بالعزلة بذكريات عن أومي. كانت كالتالي: انجذابي الذي طالما شعرت به نحو العزلة التي كانت تملأ حياة أومي ـ عزلة تولّدت عن حقيقة أن الحياة استعبدته ـ جعلني في البداية أرغب في أن تكون لديّ نفس الخصلة ؟ والآن وأنا أشعر أمام امتلاء البحر بهذا الاحساس بالفراغ، وهي عزلة مشابهة لعزلته من الخارج، فقد أردت أن أتذوقها بالكامل، من خلال عينيه ذاتهما. كنت أودّ أن ألعب الدور المزدوج لأومي ولي أنا نفسي. ولكن لكي أفعل ذلك كان عليّ أولاً أن اكتشف نقطة تشابه معه، مهما كانت ضئيلة. بهذه الطريقة يمكنني أن أصبح بديلاً لأومي، وألعب بوعي كما لو كنت أفيض، وأنا في غاية السرور، بتلك العزلة ذاتها التي ربما كانت غير واعية معه، واصلاً في النهاية إلى ادراك حلم اليقظة الذي تصبح فيه اللذّة التي أشعرها عند رؤية أومي هي نفسها اللذّة التي يشعرها أومي نفسه.

ومنذ سيطرت عليّ صورة «سان سيباستيان»، اكتسبت عادة غير واعية تجعلني أعقد يديّ فوق رأسي كلما تصادف وكنت عارياً. كان جسمي ضعيفاً، دون حتى ظل شاحب لجمال سيباستيان الوافر. لكن اتخذت هذا الوضع الآن، مرة أخرى، وبشكل عفوي. وعندما فعلت ذلك، اتجهت عيناي إلى ابطي وغلت داخلي رغبة جنسية غامضة..

كان الصيف قد جاء، وجاءت معه، تحت ابطي، أول نبتات الدغل الأسود، صحيح أنها ليست مماثلة لتلك التي عند أومي، لكنها كانت هناك دون شك. هنا كانت، إذنْ، نقطة التماثل مع أومي التي كانت مطلوبة لديّ. ولا شك أن أومي نفسه كانت تشمله رغبتي الجنسية، ولكن لا يمكن الانكار أيضاً أن رغبتي تلك كانت موجّهة إلى ابطي أساساً. وتحت تأثير مزيج حافل من الظروف ـ النسمة الملحية التي جعلت منخريّ يرتجفان، وشمس الصيف القوية التي لسعت كتفي وصدري وهي تنهمر عليّ بلهبها، وغياب أي كائن بشري في مدى الرؤية ـ انغمست لأول مرة في حياتي، في عادتي السيئة، في الخلاء هناك تحت الشمس الزرقاء، وكموضوع لها اخترت ابطي..

واهتزّ جسمي بحزن غريب. اشتعلت بعزلة ملتهبة كالشمس، والتصق سروال السباحة المصنوع من الصوف الداكن الزرقة، بشكل غير سار بمعدتي.

هبطت بطيئاً من فوق الصخرة، وخطوت نحو بركة مياه تجمّعت عند حافة الشاطىء وبدت قدماي في الماء كمحارتيْن بيضاوين ميتتين، وخلال الماء أمكنني أن أرى القاع بوضوح مرصّعاً بالمحارات ومرتعشا بالتموجات. وجثوت في الماء وأسلمت نفسي لموجة، انبثقت في تلك اللحظة، وجاءت مندفعة تجاهي بزمجرة عنيفة. لطمتني في صدري وهي تكاد تدفنني في زبدها الساحق..

وعندما تراجعت الموجة كان انحلالي قد انمحى، ومع تلك الموجة المتراجعة، ومع العدد الذي لا يُحصى من الكائنات الحية التي احتوتها ـ الميكروبات، بذور الأعشاب البحرية، بيض السمك ـ غرقت دفقتي المنوية في البحر المزبد وحملت إلى بعيد.

وعندما جاء الخريف وبدأ الفصل الدراسي الجديد لم يكن أومي هناك، عُلِّقت مذكرة بطرده فوق لوحة الاخبار.

وبدأ جميع زملائي بالصف، دون استثناء، يثرثرون فوراً حول أخطاء أومي، وهم يتصرفون كالعامة بعد وفاة طاغية كان يحكمهم.

« ... اقترض مني عشرة ين ولم يكن يريد أن يردّها.. كان يضحك وهو يسرق مني قلمي المستورد.. كاد أن يخنقني... ».

وراحوا، واحداً بعد الآخر، يحصون الأذى الذي لحقهم منه، حتى بدا أني الوحيد الذي لم يجرب شروره. كنت مجنوناً بالغيرة. ولكن يأسي هدأ قليلا لأنه ما من أحد كان يعلم سبب طرده. حتى أولئك التلاميذ المهرة الذين يحيطون علمًا بكل شيء في كل مدرسة لم يستطيعوا أن يخمِّنوا سبباً فيه من المعقول ما يكفي لأن يلقى قبولا عاما. وعندما كنا نسأل المعلمين كانوا بالطبع، يكتفون بالابتسام ويقولون إن ذلك كان بسبب « شيء رديء شره ».

وبدا أني، أنا وحدي، كان لديّ اعتقاد سري في طبيعة « شره » كنت واثقاً أنه كان مشاركاً في مؤامرة كبيرة ما. لم يكن هو نفسه قد فهمها بالكامل، بعد. فالميل القهري للشر الذي كان يثيره بداخله شيطان ما أعطى حياته معناها وشكّل مصيره. وعلى الأقل فهذا ما بدا لي...

ولكن بعد مزيد من التفكير، بدا « شره » يتخذ معنى مختلفاً بالنسبة لي، وقررت أن المؤامرة الواسعة التي ساقه إليها شيطان ما بجمعيتها السرية المنظمة تنظيما معقدا ومناوراتها السرية المخططة بدقة، كانت كلها بالتأكيد من أجل إله

محظور ما. كان أومي يخدم ذلك الإله، ويحاول أن يهدي الآخرين إلى عقيدته، ثمّ راح ضحية خيانة، ثمّ أُعدِم سراً ذات مساء. عند الغسق خلعوا ملابسه حتى تعرّى وأُخِذ إلى دغل فوق التل. وهناك ربطوه إلى شجرة ، ويداه فوق رأسه مكبلتان، واخترم السهم الأول جانب صدره، واخترم الثاني ابطه.

وكلما تذكرت صورته في ذلك اليوم، وهو يمسك بعقلة التدريب استعداداً للرفعة، كلما زاد اقتناعي بالصلة الوثيقة بينه وبين سان سيباستيان.

وخلال عامي الرابع بالمدرسة المتوسطة أُصبت بالانيميا، بل وأصبحت أكثر شحوباً من المعتاد حتى أن يديّ صار لهما لون العشب الميت، وكلما صعدت سلمّا عاليا كان عليّ أن أجلس وأستريح بأعلى الدرج. كنت أشعر كأن دفقة من الضباب الأبيض تعصف نازلة إلى خلفية رأسي، لتحفر حفرة هناك وتجعلني أوشك على الاغماء.

أخذتني أسرتي للطبيب، الذي شخّص متاعبي على أنها فقر دم. كان رجلاً لطيفا وصديقاً للأسرة. وعندما بدأوا يسألونه عن تفاصيل متاعبي، قال:

« جميل، دعونا نر ما يقوله كتاب الاجابات عن فقر الدم ».

انتهى الفحص، وكنت عند مرفق الطبيب، حيث كان بوسعي أن أسترق النظر إلى الكتاب الذي بدأ يقرأ منه عالياً. كانت الأسرة تجلس في مواجهته ولم يكن بوسعها أن ترى صفحات الكتاب.

« ... وإذنْ ، فبعد ذلك هناك علم أسباب الأمراض ـ الاتيولوجيا. ديدان الانسيولوستوما ـ وهي سبب شائع. وهذه على الأرجح هي حالة الصبي. لابدّ لنا من تحليل البراز. ثمّ هناك الشحوب، اليخضوري. لكنه نادر، وهو على أي حال مرض نسائي ـ عند هذه النقطة أعطى الكتاب سبباً آخر لفقر الدم، لكن الطبيب لم يجهر بقراءتها. وبدلاً من ذلك ، تخطاها، هامساً بقية المقطع في حلقه وهو يطوي الكتاب. لكني كنت قد رأيت العبارة التي أغفلها . كانت « التلوث الذاتي ».

كان بوسعي أن أشعر بقلبي يخفق من الخجل. لقد اكتشف الطبيب سري.

ولكن ما لم يكن بوسع أحد أن يكتشفه أبداً هي العلاقة الفريدة والمتبادلة بين فقر دمي وبين شهوتي للدم ذاتها.

لقد أدّى نقص الدم الموروث عندي إلى أن يغرس فيّ دافعاً لأن أحلم بسفك الدماء. وتسبب هذا الدافع بدوره في أن افقد المزيد من مادة الدم في جسمي، مُزيداً بذلك شهوتي للدم. وقد كانت هذه الحياة الحالمة الموهنة تزيد من خيالي حدة ودربة. ورغم أنـي لم أكن قد تعرّفت بعد على أعمال « دي ساد » فإن وصف الكولوسيوم في « كوفاديس » ترك انطباعاً عميقا لديّ، ورحت أحلم أنا نفسي، بفكرة مسرح للقتل.

وهناك في مسرح القتـل الخاص بي كـان الجلادون الـرومانيـون الشبان يضحون بحياتهم لتسليتي. وكل الميتات التي حدثت هناك لم يكن عليها أن تفيض بالدم فحسب، بل كان يجب أيضاً أن تتم بكل المراسيم الواجبة. وقد كنت أستمتع بكافة أشكال عقوبة الاعدام، وكل معدات التنفيذ. لكني لم أكن أسمح باي أدوات للتعذيب أو مشانق، حيث أن هذه الأشياء لا توفر مشهدا للدم المتدفق، كما أني لم أكن أحب الأسلحة النارية ، كالمسدسات أو البنادق. وكلما أمكن كنت أختار أسلحة همجية بدائية ـــ سهام، خناجر، حراب ـــ ولكيْ يطول العذاب كان لابدّ من التصويب إلى البطن وكان لا بدّ أن تصدر عن الضحية ـــ القربان صرخات حزينة طويلة، تجعل السامع يشعر بعزلة الحياة التي لا يمكن التعبير عنها. عندئذٍ كانت بهجتي بالحياة، التي تتوهّج من موضع سري داخل نفسي، كانت في النهاية تصدر صرخة فرحتها، وهي ترد على الضحية صرخة بصرخة. ألم تكن هذه بالضبط مشابهة للفرحة التي كان يجدها الانسان القديم في الصيد؟.

وذبح سلاح خيالي كثيرا من الجنود اليونانيين، وكثيراً من العبيد البيض في بلاد العرب، وأمراء القبائل الهمجية وغلمان المصاعد في الفنادق وجرسونات، وشبانا غلاظا، وضباط جيش، وعمالا في السيرك.. كنت واحداً من أولئك النّهابين المتوحشين الذين لا يعرفون كيف يعبرون عن حبهم، فيقتلون بطريق الخطأ الشخص الذي يحبونه. كنت أقبِّل شفاه مَنْ سقطوا على الأرض ولا زالوا يتحركون متشنجين..

وبسبب وهم أو آخر، تصوّرت آلة للاعـدام مصممة بحيث أن لـوحة

مرصعة بعشرات من الخناجر القائمة، المرتبة على شكل جسم أومي، تنزلق على قضيب لتسقط فوق صليب للاعدام مثبت على الجانب الآخر من القضيب. وكان هناك مصنع للاعدام، حيث تجري تدريبات آلية مستمرة على اختـرام الجسد البشري، حيث عصير الدم يُحَلّىً ، ويُعلَّب، ويُطرَح في الأسواق. وداخل رأس تلميذ المدرسة المتوسطة كان الضحايا الذين يفوقـون الحصر مقيـدين وأيديهم وراءهم وهم يُسَاقون إلى الكولوسيوم.

واشتدّ الدافع بداخلي تدريجياً ليصل ذات يوم إلى حلم يقظة ربما كان أحطّ ما يمكن أن يحلم به الانسان. وكما هو الأمر مع أحلام يقظتي الأخرى، فهنا أيضاً كان الضحية واحداً من زملاء دراستي، وهو سباح ماهر ذو جسد واضح القوة.

كان ذلك في قبو. وكانت هناك وليمة شريرة. لمعت الشمعدانات فوق المفارش النقية البياض، وحول كل طبق اصطفت السكاكين الفضية. وكانت هناك الباقات المعتادة من القرنفل، ولكن الغريب أن المساحة الخالية، في وسط المائدة كانت كبيرة إلى هذه الدرجة الزائـدة. ولا بدّ أن طبق اللحم الـذي سيحضِّرونه ويضعونه هناك كبير بشكل زائد.

وسألني أحد الضيوف: « ليس بعد؟ » كان وجهه في الظل ولا يمكن أن يرى. وبدا من صوته الرصين أنه رجل مسن. .

والآن وأنا أفكر في ذلك تخفي الظلال وجوه جميع مَنْ حضروا العشاء. ليس سوى أيديهم التي كانت تمتد إلى الضوء حيث تعبث بالسكاكين والشوك الفضية البراقة. وحَفل الهواء بغمغمة لاتنتهي، كأن مجموعة من الناس تتحادث بأصوات خفيضه أو تتحدث إلى نفسها. كانت وليمة جنائزية والصوت الوحيد الذي كان يمكن سماعه من حين لحين، هو صرير خشب، أو صوت احتكاكه بالأرض.

وأجبت « لا بدّ أن يكون جاهزاً فورا ».

ومرة أخرى أطبق الصمت الكثيب. وصار بوسعي أن أشعر، بوضوح، بضيق الجميع، باجابتي.

« هل أذهب لأرى؟ ».

نهضت وفتحت الباب المفضي إلى المطبخ. وفي أحد أركان المطبخ كان هناك درج حجري يؤدّي إلى مستوى الشارع.

وسألت الطاهي: « ليس بعد؟ ».

« ماذا؟ أوه.. دقيقة واحدة » أجابني الطاهي دون أن يرفع رأسه عما يشتغل به، وكأنه هو الآخر معكّر المزاج. كان يقطع نوعاً من خضروات السلاطة. وعلى مائدة المطبخ لم يكن هناك سوى لوح خشبي سميك عرضه ثلاثة أقدام وطوله حوالي اثني عشر قدما.

وجاء صوت ضحك من أعلى السلم الحجري. نظرت لأعلى فوجدت طاهيا آخر ينزل الدرج وهو يقود زميل دراستي هذا، صاحب العضلات، من ذراعه. كان الصبي يرتدي سروالاً واسعا وقميصاً داكن الزرقة من الوبر لا يغطي صدره تماماً.

سألته بلا مبالاة: « آه.. أنت (ب)، أليس كذلك؟ ».

وعندما وصل أسفل الدرج وقف رابط الجأش، دون أن يخرج يديه من جيوبه، واستدار إلّي وهو يضحك ساخرا. في تلك اللحظة بالضبط وثب عليه من الخلف طاه من الاثنين وأمسك بعنقه بشكل خانق.

وقاوم الصبي بعنف.

وبينما كنت أراقب هذه المقاومة المثيرة للشفقة، قلت لنفسي « إنها مسكة جودو ــ نعم، إنها كذلك، مسكة من مسكات الجودو، لكن ما اسمها ؟ تمام، اخنقه ثانية ــ لا يمكن أن يكون قد مات فعلا ــ لقد أُغمي عليه فحسب ».

وفجأة بدا رأس الغلام يابساً وقد انطوى عليه ذراع الطاهي الجسيم ثمّ رفع الطاهي الغلام، دون مبالاة، بيديه، وألقى به فوق مائدة المطبخ، مضى الطاهي الآخر إلى المائدة وبدأ يفعل بالغلام بيدين محترفتين، نزع عن الغلام قميصه الوبري، وخلع ساعة يده، ونزع سرواله، وفي لحظة واحدة عرّاه تماما.

تمدد الفتى العاري حيث سقط، ووجهه لأعلى فوق المائدة، وقد انفرجت شفتاه قليلا. قبلتُ هاتين الشفتين قبلة طويلة.

سألني الطاهي: «كيف يكون ــ الوجه لأعلى أم لأسفل؟ »

« الوجه لأعلى ، في رأيي» ,قلت ذلك وأنا أفكر في أنه بهذا الوضع يكون صدر الفتى مرئياً، ليبدو كأنه درع بلون العنبر.

جاء الطاهي الآخر بطبق كبير من طراز أجنبي، من فوق الرف، ووضعه على المائدة. كان بالضبط من الحجم الذي يتسع لجسم انسان. وكان غريب الصنع، له ثقوب خمسة صغيرة في حافتيه.

« هيلا هوب » قال الطاهيان معاً، وهما يرفعان الغلام الغائب عن الوعي ويضعانه في الطبق الكبير، ووجهه لأعلى. وراحا يصفِّران بمرحٍ، وهما يمرران خيطاً من الثقوب التي على جانبي الطبق ليثبتا جسم الصبي تثبيتاً محكماً. تحركت أيديهما الرشيقة، بحنكة. أعدّا بعض أوراق السلاطة الكبيرة، بشكل جميل، حول جسد الغلام العاري ووضعا عدداً غير عادي من السكـاكين الفـولاذيه والشوكات الفولاذيه فوق الطبق.

« هيلا هوب » قالا مرة ثانية، وهما يرفعان الطبق إلى كتفيهما، وفتحت لهما الباب المفضي إلى غرفة الطعام.

وقابلنا صمت مرحب. أنزل الطبق، ليملأ الفراغ الذي على المائدة والذي كان يلمع خاوياً تحت الضوء. وعندما عدت لمقعدي، رفعت السكين والشوكه الكبيرتين من الطبق وقلت:

« من أين أبدأ؟»

لم يرد أحد وكان بوسع المرء أن يشعر أكثر من أن يرى وجوهاً كثيرة تمتد إلى الأمام تجاه الطبق.

« ربما كانت هذه بقعة مناسبة للبداية » وغرست الشوكة في القلب مباشرة. وضربتني نافورة من الدم في وجهي مباشرة. وأمسكت بالسكين في يدي اليمنى ورحت أقدّ لحم الصدر، برقة، قدّاً خفيفاً في البداية.

وحتى بعد أن شُفيت من الأنيميا، أصبحت عادتي السيئة أكثر سوءاً. كان معلم الهندسة أصغر مدرسي صفنا. ولم أكن أتعب أبداً من النظر إلى وجهه أثناء الدرس. كانت له بشرة لوّحتها شمس الساحل، وصوت رنان كصوت صياد، وقد سمعت أنه كان فيما مضى مدرباً للسباحة.

وذات يوم شتوي في درس الهندسة كنت أدوِّن في كراستي ما هو مكتوب

على السبورة، وإحدى يدي في جيب سروالي. وشردت عيناي عن الكرّاسة، وبدأتا تتابعان، دون وعي، مدرس الهندسة. كان يقترب ويبتعد من المنصة وهو يشرح بصوته الشاب مسألة عويصة.

كانت آلام الجنس قد بدأت تقتحم حياتي اليومية. والآن، أمام عيني، يتحوّل المدرّس الشاب تدريجياً إلى ما يشابه تمثال هرقل العاري. كان ينظّف السبورة ممسكاً بممحاة في يده اليسرى، وبالطباشير في اليد الأخرى، ثمّ مدّ يده اليمنى، وهو لا يزال ينظّف السبورة، وبدأ يكتب معادلة على السبورة، وبينما كان يفعل ذلك بدت التجاعيد التي تجمّعت على قماش معطفه من الخلف، وبدت لعيني المبهورتين التنغصات العضلية « لهرقل وهو يسحب القوس ». وأخيراً اقترفت عادتي السيئة هناك وسط عملي المدرسي.

رنّت علامة الخروج للراحة ومَضيت وراء الآخرين، ورأسي يتدلىّ بفعل الدوار، نحو أرض الملعب، وجاءني الغلام الذي كنت أحبه تلك الأيام ـ وكان هذا أيضاً حبا محبطا، لتلميذ آخر في اختباراته ـ وسألني:

« هيه، ، أنت: ألم تذهب بالأمس إلى منزل كاتاكورا؟ كيف كان الأمر؟ »

كاتاكورا هذا تلميذ هادىء في صفنا مات بالسل، وكانت جنازته قد انتهت قبل يومين. وكما سمعت من صديق فقد تغيرّ وجهه تماماً في الموت وبدا كوجه روح شريرة. ولهذا فقد انتظرت ولم أقم بالتعزية حتى تأكّدت أن جسده تم احراقه.

ولم أستطع أن أفكر في رد على سؤال زميلي المفاجىء وقلت باقتضاب:

« لم يكن هناك أي شيء. لقد كان رمادا بالفعل حينذاك ».

وفجأة تذكرت رسالة يمكن أن تتملّقه: « أوه، أجل، وقد طلبت مني أم كاتاكورا بالحاح أن أحمل إليك تحياتها » وضحكت ضحكة بلا معنى « طلبت مني أن أقول لك أن تاتي لزيارتها بأي وسيلة، لأنها ستكون وحيدة من الآن ».

« آ آ آ و. . . ! مضى بعيدا ! » وفاجأتني ضربة على الصدر أذهلتني ورغم أنها كانت محمّلة بكل قوته إلاّ أنها كانت مملوءه بالودّ، وصارت وجنتاه قرمزيتين من الخجل، كما لو كان طفلا لا يزال. ورأيت عينيه تلمعان بمودة غير معتادة، وقد بدا أنه يعتبرني شريكه في شيء ما.

«انصرف!» قالها مرة ثانية ألم تصبح سيىء التفكير، يـا لها من طـريقة للضحك! ».

ولم أفهم ما يعنيه للحظة، وابتسمت مرتبكاً وعجزت طوال نصف دقيقة عن فهمه. ثم فهمت: والدة كاتاكورا كانت أرملة، ولا تزال شابة، ولها قوام رشيق.

شعرت بالتعاسة، ليس فقط لأن تباطؤي في الفهم نبع فقط من الغباء، بل بالأحرى أن الحادثة كشفت عن الاختلاف الواضح بين ثورة اهتمامه هو واهتمامي أنا. وشعرت بفراغ الهوّة التي تفصلنا، ملأني الخزي لأني اندهشت من هذا الاكتشاف المتأخر لشيء كان يجب أن أتوقعه، بالطبع. لقـد نقلت إليه الرسالة من أم كاتاكورا دون أن أتمهل لتأمل ما يمكن أن يكون رد فعله، وكل ما كنت أعرفه، دون وعي، أن هذه فرصة لأحوز رضاه. هنا أزعجتني قلة خبرتي وقبح منظرها، كأنها خطوط دموع جفّت على وجه طفل.

في تلك المناسبة كنت أكثر ارهاقاً من أن أسأل نفسي السؤال الذي سألته آلاف المرات من قبل: لماذا لا يكون من الصواب أن أبقى كما أنا الآن؟.

كنت قد مللت نفسي، ورغم كل تعففي، فقد كنت أدمِّر جسدي. وقد كنت أظن أن بـ « الاخلاص » (يا لها من فكرة مؤثرة) يمكنني أيضاً أن أهرب من وضعي الطفولي. كان الأمر كما لو أنني لم أدرك بعد أن ما يثير اشمئزازي الآن هو حقيقة نفسي، وهو بوضوح جزء من حياتي الحقة. كان الأمر كما لو أني كنت أعتقـد أن هذه هي سنـوات الأحلام، التي سـأخرج منهـا الآن إلى « الحياة الحقيقية ».

كنت أشعر بدافع يحثني على أن أبدأ العيش. أعيش حياتي الحقة؟ حتى ولو كان عليها أن تكون تنكرا خالصا، وليست حياتي على الاطلاق، فقد حان الوقت رغم ذلك، لأن أبدأ، ويجب أن أجرّ قدمي الثقيلتين إلى الأمام.

الفصل الثالث

الجميع يقولون إن الحياة مسرح. ولكن كثيراً من الناس، فيما يبدو، لا تسيطر عليهم هذه الفكرة، أوليس في وقت مبكر كما حدث معي، على أية حال.. فمع نهاية طفولتي كنت قد اقتنعت اقتناعاً راسخاً، بأنها كذلك، وبأن عليّ أن ألعب دوري على المسرح دون أن أكشف، ولو مرة واحدة، عن نفسي الحقيقية، وحيث أن عقيدتي صحبها افتقار كامل للتجربة، رغم شكي الكامن في مكان ما من عقلي في أني قد أكون مخطئا، فقد كنت، في الواقع، متيقناً من أن الناس جميعاً يبدأون الحياة هكذا.. وكنت أعتقد، متفائلاً، أنه بانتهاء العرض ينزل الستار، ولا يرى المتفرجون الممثل أبداً دون ماكياج، وكان افتراضي بأني سأموت شاباً هو الآخر عنصراً في هذه العقيدة.. ومع مرور الوقت، مُني هذا التفاؤ ل، أو بالأحرى، حلم اليقظة هذا، بخيبة أمل قاسية.

ومن باب الاحتراس أضيف أن ما أشير إليه هنا هو المسألة المعتادة عن « الشعور بالذات » انها ببساطة مسألة جنسية، مسألة الدور الذي بواسطته يحاول المرء أن يخفي ، حتى عن نفسه في أغلب الأحوال، الطبيعة الحقيقية لرغباته الجنسية، وفي الوقت الحاضر لا أنوي أن أشير الى شيء يتجاوز ذلك.

يمكن الآن أن يُقال أن ما يُسَمى بالتلميذ المتخلف هو نتاج للوراثة... ورغم ذلك فقد كنت راغباً في استمرار التقدم مع بقية جيلي في حياتي المدرسية، وقد وقعت على وسيلة لتحقيق ذلك، وقد كانت هذه الوسيلة تتمثل، باختصار، في نقل أجوبة زملائي أثناء الاختبارات، دون أي فهم لما كنت أكتب، وتسليم

ورقتي ببراءة مدروسة.. وفي بعض الأحيان كان هذا الأسلوب، الذي فيه من الغباء والوقاحة، أكثر مما فيه من المكر، يحقق نجاحاً ظاهرياً، وينجح التلميذ. وفي الصف الذي يُنقَل إليه،» كان يُفترَض فيه، على أية حال، أنه متمكن من مواد الصف الأولى، ومع تزايد صعوبة الدروس، يضيع التلميذ تماماً... ورغم أنه يسمع ما يقوله المدرس، فإنه لا يفهم كلمة واحدة مما يُقال.. عن هذه النقطة. عندئذٍ يكون أمامه طريقان فقط.. إمّا أن ينتهي أمره، أو يواصل تقدمه بالدجل مدعيا أنه يفهم فعلا.. ويتحدد الاختيار بين هذين الطريقين، بطبيعة، وليس بكم، ضعفه وجسارته.. فكلا الطريقين يتطلّب نفس المقدار من الجسارة أو من الضعف، وكلاهما يتطلّب نوعا من الحنين الغنائي والذي لا ينطفىء إلى الكسل.

وذات يوم انضممت إلى مجموعة من زملاء الدراسة يسيرون بجوار السور الخارجي للمدرسة، يناقشون بصخب اشاعة عن أن أحد أصدقائنا، (ولم يكن حاضراً)، وقع في حب سائقة الباص الذي يستقلّه من وإلى المدرسة، وقبل أن يمضي وقت طويل تحوّلت الشائعة إلى محاجة نظرية حول ما يمكن أن يجده المرء مما تحبه النفس في سائقة باص.

عند هذه النقطة تكلّمت، وأنا أتعمّد اتخاذ لهجة باردة والحديث بكبرياء كأني أقذف الكلمات من فمي.

« إنه زيهن، لأنه شديد الالتصاق بأجسادهن »..

ولا حاجة بي إلى القول أني لم أشعر أبداً بانجذاب إلى سائقات الباص كما كانت توحي كلماتي.. كنت أتحدث على أساس التشابه ــ تشابه كامل ــ رأيت فيه نفس النوع من الزي المحكم على نوع مختلف من الأجساد ــ وأيضا بدافع الرغبة، التي كانت قوية عندئذٍ بداخلي في أن أبدو ناضجاً، وحسياً ساخرا من كل شيء.

وجاء رد فعل الصبية الآخرين فوريا.. كانوا جميعاً من النوع المعروف باسم « تلميذ الشرف » ذوي سلوك لا غبار عليه، وكما كان الحال غالباً مع تلاميذ مدرستي، مفرطين في الاحتشام.. وكان اعتراضهم المصدوم على كلماتي واضحاً من ملاحظاتهم نصف المازحة.

« آ آ.. انت تعرف الموضوع كله، أليس كذلك »؟

« لا أحد يحلم بشيء كهذا إلّا إذا كان يفعل مالا يجب أن يفعله ».

« هيه.. إنك فظيع حقاً، أليس كذلك »؟

في مواجهة مثل هذا النقد الساذج، المستفز، خشيت أن يكون دوائي فعّالاً أكثر مما يجب.. ربما كان بوسعي أن أستعرض عمق أفكاري بشكل أكثر جدوى، ولو قلت الشيء نفسه، لو استخدمت طريقة أقل تعقيداً وادهاشاً في الحديث كما كان من الضروري أن أتحفظ أكثر.

وعندما يكتشف فتى في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة أنه أكثر تأملاً لنفسه وأكثر وعياً بذاته من غيره من الصبية في نفس العمر، فمن السهل أن يسقط في خطأ الاعتقاد بأن ذلك راجع إلى أنه أنضج منهم، وكان ذلك بالتأكيد خطأ في حالتي.. والأحرى أن الصبية الآخرين لم تكن لديهم نفس الحاجة إلى فهم أنفسهم مثلي.. فقد كانوا قادرين على أن يكونوا ذواتهم الطبيعية، أمّا أنا فقد كان عليّ أن العب دوراً، وهي حقيقة تحتاج كثيراً من الفهم والدراسة. إذنْ فلم يكن النضج، بل كان القلق، هو الذي دفعني إلى السيطرة على وعيي.. ولأن مثل هذا النوع من الوعي كان مجرد خطوة نحو الشذوذ وتفكيري الراهن ليس سوى تخمين اعتباطي وغير مؤكد.

وكان قلقي من نفس ذلك النوع الذي يتحدث عنه « ستيفان تسفايج» عندما يقول إن ما ندعوه شراً هو القلق الموروث في النوع البشري بكامله، والذي يسوق الانسان خارج ذاته وبعيداً عنها نحو شيء لا يسبر عمقه تماماً كما لو أن الطبيعة أورثت أرواحنا نصيباً مذهلا من الاضطراب ، من مخزون « هيولاها » القديم، هذا الميراث من القلق ينتج التوتر ويسعى إلى أن يصرف نفسه عائداً إلى عناصر فوق بشرية وفوق حسية، وهكذا فقد كان إذنْ نفس هذا القلق هو الذي كان يسوقني، بينما الصبية الآخرون الذين لم تكن بهم حاجة إلى الوعي بالذات، كانوا قادرين على الاستغناء عن الاستبطان.

ولكن سائقات الباص لم يكن لديهن أقل قدر من الجاذبية بالنسبة لي، ومع ذلك فقد رأيت أن كلماتي، التي نطقت بها عامداً بسبب التشابه وبسبب اعتبارات أخرى ذكرتها، لم تصدم أصدقائي لتجعلهم يحمرون خجلا فحسب، بل إنها لعبت أيضاً على قابليتهم كبالغين للأفكار الموحية وخلقت اثارة جنسية غامضة بداخلهم، وعند مشاهدة ذلك، نما بداخلي بالطبع شعور ممرور بالتفوق.

ولكن مشاعري لم تتوقف هنا.. فقد جاء دوري لكي أنخدع، أفقت من

شعوري بالتفوق، ولكن بشكل مشوه، أحادي الجانب. كان السياق كالتالي:

أصبح جانب من شعوري بالتفوق غروراً، أصبح انتشاءاً باعتبار نفسي أمام الجنس البشري بخطوة واحدة، ثمّ عندما صحا هذا الجزء المنتشي بأسرع من غيره، ارتكبت خطأ بالاندفاع في اصدار الأحكام على كل شيء بوعيي الذي أفاق دون أن آخذ في اعتباري أن جزءاً مني كان لا يزال سكران ولهذا فإن الفكرة المسكرة، «أنا سبّاق على الآخرين» أجري عليها تعديل لتصبح «كلا»، اني ايضا كائن بشري كالآخرين، وبسبب اساءة التقدير فقد تمّ تفخيم هذه أيضاً لتصبح، «وأنا أيضاً كائن بشري مثلهم (من كل النواحي) وقد جعل هذا التفخيم ممكنا وسانده ذلك الجزء مني الذي كان لا يزال سكران» وأخيراً وصلت إلى خلاصة مغرورة مؤدّاها «الجميع مثلي»، وطريقة التفكير التي قلت إنها خطوة نحو الشذوذ كان لها تأثيرها القوي في التوصل إلى هذه الخلاصة.

وهكذا نجحت في تنويم نفسي مغناطيسيا، ومنذ ذلك الحين صار تسعون بالمائة من حياتي خاضعاً لهذا التنويم الذاتي، هذا التنويم اللاعقلاني الأحمق المزيف الذي كنت أنا نفسي أعرف أنه مزيف، ويمكن التساؤل عمّا إذا كان هناك على الاطلاق شخص سريع التصديق أكثر مني.

هل سيفهم القارىء؟ كان هناك سبب بسيط وراء قدرتي على استخدام حتى أبسط الالفاظ الحسية عند الحديث عن سائقات الباص، وكانت هذه هي النقطة التي عجزت عن فهمها...

كان سبباً بسيطاً حقاً ــ لا يزيد عن أنه، فيما يتعلّق بالنساء، كنت خالياً من كل خجل يتميز به الأولاد الآخرون منذ مولدهم.

ولكي أتهرّب من اتهامي بأني، ببساطة، أنسبُ إلى الشخص الذي كنته في تلك الأيام، قدرات على الحكم ليست متوفرة لديّ حتى اليوم، فلأورد هنا مقطعاً من شيء كتبته في سن الخامسة عشر:

... ولم يتردد «ريوتارو» في جعل نفسه جزءاً من دائرة الأصدقاء الجديدة. فقد كان يعتقد بثقة أنه قادر على التغلّب على حزنه الذي لا داعي له وعلى ضيقه بأن يكون أو بأن يدّعي أنه مرح ولو قليلا. إن سرعة التصديق، وهي ذروة العقيدة، قد تركته في حالة من الراحة المضيئة، وكلما شارك في مزحة أو تهريج

بذيء كان يقول لنفسه دائمًا: « لست حزينا الآن، لست ضجران الآن ». وسمّى ذلك «نسيان المتاعب».

معظم الناس يتشككون فيما إذا كانوا سعداء أم لا، مرحين أم لا . هذه هي الحالة العادية للسعادة، حيث أن الشك شيء طبيعي للغاية.

« وريوتارو » وحده يعلن « أنا سعيد » ويقنع نفسه بأن ذلك صحيح.

وبسبب هذا فالناس يميلون إلى تصديق ما يسميه « سعادته المؤكّدة » ، وأخيراً يتم حصر شيء ضعيف، وإنْ كان حقيقياً، في آلة الزيف القوية، وتبدأ الآلة عملها بقوة، ولا يلاحظ الناس حتى أنه كتلة من « خداع الذات ».

« تبدأ الآلة عملها بقوة . . » ألم تكن بالفعل تعمل بقوة في حالتي؟

من أشكال القصور العـام في الطفولة الظن أنه إذا جعل المرء من العفريت بطلا فسوف يكون العفريت ممتنا.

وهكذا فقد جاء الوقت الذي يتوجّب فيه عليّ أن أبدأ الحياة بشكل أو بآخر. وكـان زاد المعرفـة التي زوِّدت بها للرحلة يتكّون من شيء يزيد قليلاً عماً قرأته من روايات، موسوعة جنسية للاستخدام المنزلي، الأدب المكشوف الذي تداوله التلاميذ، ووفرة من النكات القذرة الساذجة سمعتها من الأصـدقاء في ليـالي التدريبات الميدانية، وأخيراً والأكثر أهمية من كل هذا، كان هنـاك أيضاً فضول مُحرق سيصبح فيها بعد رفيق أسفاري الأمين. وفي بداية رحلتي كان لا بدّ أن أتخذ سمت الراحل عن البوابة ، وكانت « آلة الزيف »، كافية لتحقيق هذه الارادة.

لقد درست كثيراً من الروايات بعناية، بـاحثاً في كيفية شعور الأولاد من سني بالحياة، وكيف يتكلمون إلى أنفسهم، وقد كنت مقطوع الصلة بحياة القسم الداخلي، ولم أقم بأي دور في الألعاب المدرسية، بل إن مدرستي كانت مليئة بالأدعياء، الذين ما أن يكبروا على لعبة القذارة التي ذكرتها، حتى تنقطع صلتهم بالمسائل السوقية. وفوق كل ذلك فقد كنت شديد الحياء. كل هذه الحقائق معاً جعلت من الصعب تماماً بالنسبة لي أن أعرف نفسية أي من رفاق دراستي، نتيجة لذلك فقد كان ملجأي الوحيد هو أن أستنبط من الأحكام النظرية ما يمكن لـ « ولد من سني » أن يشعر به عندما يكون وحيدا.

وبدأت المرحلة التي تُسمى بالمراهقة ـ وقد كان لي نصيب كامل منها فيما يتعلّق بالفضول ـ كأنها جاءت تعودنا ونحن مرضي، فمنذ الوصول إلى البلوغ، بدأ الأولاد وكأنهم لا يفعلون سوى أن يفكروا في النساء بافراط، وأن تظهر عليهم البثور، ويكتبوا أشعارا معسولة من رؤوس مصابة دائمًا بالدوار، لقد قرأوا أولا تلك الدراسة عن الجنس، التي أكّدت الآثار الضارة للاستمناء، ثمّ تلك التي تحدثت حديثاً مطمئنا عن آثار ليست عظيمة الضرر، ونتيجة لذلك فقد بدا أنهم أيضاً أصبحوا من الممارسين المتحمسين، وهناك نقطة أخرى، كما قلت لنفسي، حيث كنت مثلهم تماماً. وفي حالة التنويم الذاتي التي كانت لديّ ، أهملت حقيقة مؤدّاها أنه، برغم الطبيعة المتشابهة للفعل المادي، فقد كان هناك اختلاف عميق، فيما يتعلّق بموضوعاته العقلية.

وكان الفارق الرئيسي هو حقيقة أن الأولاد الآخرين بدا أنهم يجدون لذّة غير عادية في مجرد كلمة امرأة، ودائمًا كانت تحمر وجوههم إذا طافت الكلمة، فقط، بعقولهم، أمّا أنا فلم أكن، من ناحية أخرى، اجد تأثيرا حسيا لكلمة « امرأة » ، أكثر « من قلم رصاص » أو « سيارة » أو « مكنسة »، وحتى في محادثتي مع أصدقائي فقد كنت أبدي في الغالب قصورا مماثلا في موهبة الربط بين الأفكار، كما هو الأمر في حادثة والدة كاتاكورا، وكانت تبدر عني ملاحظات تبدو شديدة التشتت بالنسبة لهم. وحلّ أصدقائي هذه الأحجية بما يرضيهم فاعتبروني شاعراً، أمّا أنا فلم أكن أرغب مطلقاً في أن أعتبر شاعرا، فقد سمعت أن المنتمين إلى تلك الأرومة من البشر ممَنْ يُسمون شعراء، كانوا جميعا ملفوظين من النساء، وهكذا فلكي يتسق حديثي مع حديث أصدقائي، نّميت قدرة مصطنعة على ربط الأفكار بنفس طريقتهم.

ولم أخّمن أبداً أنه يمكن تمييزي عنهم، بشكل حاد، ليس فقط من حيث مشاعرهم الداخلية، بل وأيضاً من حيث العلامات الخارجية المخبوءة. وباختصار فلم أكن أدرك أنهم يصلون إلى الانتصاب بمجرد رؤيتهم لصورة أمرأة عارية، وأني كنت الوحيد الذي يظل غير متأثر في مثل هذا الموقف. . ولم أكن أدرك أيضاً أن الموضوع الذي يسبب الانتصاب في حالتي (ومن الغريب حقاً، أنه منذ البداية كانت تلك الموضوعات مقصورة على تلك الفئة من الأشياء التي هي الموضوعات الجنسية المميزة للشذوذ).

فتمثال شاب عارٍ على النمط الأيوني، مثلاً، لم يكن ليثيرهم بالمرة.

وهدفي من تقديم وصف مفصل لعدة حالات انتصاب في الفصل السابق كان جعل هذه النقطة الهامة في جهلي بنفس مفهومة أكثر، ولأن افتقاري إلى المعرفة بالموضوعات التي تثير الأولاد الآخرين ساعدت على تقوية التنويم الذاتي باعتبار نفسي مشابهاً لهم..

أين كان يمكن أن أجد التنوير؟ الروايات حافلة بمشاهد التقبيل، ولكن شيئا مما قرأت لم يكن يشير إلى حدوث الانتصاب في مثل تلك الحالات، كان ذلك طبيعيا، لأنه ليس موضوعاً للوصف في رواية، بل إن الموسوعة الجنسية أيضاً لم تقل شيئاً يتعلّق بالانتصاب كمصاحب فسيولوجي للقبلة، تاركة أيّاي بفكرة أن الانتصاب يحدث فقط كمقدمة للعلاقات الجسدية أو استجابة للصورة العقلية للفعل، وكنت أظن أنه سيأتي وقت أصل فيه أنا أيضاً للانتصاب فجأة، حتى ولم لم تكن هناك رغبة، وكأنه الهام يأتي من وراء السموات واستمر شيء صغير ما بداخلي يهمس: «كلا ، ربما في حالتك أنت فقط لن يحدث ذلك» وتجسّد هذا الشك الصغير في كل شعور لديّ بعدم الأمان.

ولكن في لحظة استغراقي في عاداتي السيئة، ألم أصور لنفسي أبدا، ولو لمرة واحدة، عضواً من أعضاء المرأة؟ ولا حتى من باب التجربة؟ أبداً، على الاطلاق، وقد فسّرت لنفسي هذا القصور الغريب على أنه نتيجة للكسل فقط.

وباختصار، فلم أكن أعرف شيئاً على الأطلاق عن الصبية الآخرين. لم أكن أعرف أن الأولاد جميعاً، ما عداي، يرون أحلاماً تتعرّى فيها النسوة ــ نسوة رأوهن بالأمس فقط وعند ناصية الشارع ــ من ثيابهن ويُدفَعن إلى الاستعراض واحدة بعد الأخرى أمام عيون الحالمين.

ولم أكن أعرف أنه في أحلام الصبية تطفو أثداء النساء كأنها قناديل البحر الجميلة ناهضة من البحر في الليل، ولم أكن أعلم أنه في تلك الأحلام يفتح الجزء الأثير من المرأة شفتيه الرطبتين ويظل يغني أغنية السيرانه(*)، عشرات المرات، مئات المرات، آلاف المرات، إلى الأبد...

(*) احدى الكائنات الخرافية في الأساطير اليونانية لها رأس امرأة وجسم طائر، تجتذب البحارة بغنائها فتوردهم موارد الهلاك (المترجم).

هل كان الكسل السبب في أني لم أحلم هذه الأحلام؟ هل يمكن أن يكون ذلك بسبب الكسل؟ ظللت أسأل نفسي ، هل إن جديتي التي تتعلق بالحياة ككل، نبعت من الشك في أني مجرد كسول، وفي النهاية أنفقتُ هذه الجدية نفسها في الدفاع عن نفسي ضد تهمة الكسل في هذه النقطة. . . الواحدة، مؤكّدة أن كسلي يمكن أن يبقى كسلا مع ذلك.

أدّت بي هذه الجدية إلى أن أقرر أن أجمع كل ذكرياتي عن النساء بدءاً من البداية ذاتها، وكَم اتضح أن المجموعة بالغة الاملاق؟

تذكرت حادثة وقعت وأنا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة تقريباً. كان ذلك يوم نُقِل أبي إلى أوزاكا، وكنا قد ذهبنا جميعاً إلى محطة طوكيولوداعه. بعد ذلك عاد معنا إلى البيت عدد من الأقارب، من بينهم كانت ابنة عمي الثانية « سوميكو » فتاة عزباء في العشرين تقريباً.

كانت أسنان «سوميكو» بارزة قليلا، كانت أسنانها شديدة البياض والجمال، وعندما كانت تضحك كانت أسنانها تلمع حتى يتساءل المرء عمّا إذا كانت تضحك لكي تستعرض أسنانها. .

وأضاف البروز الخفيف جاذبية خفيّة لبسمتها، وفي حالتها كان عيب الأسنان البارزة كأنه شعرة البهار أضيفت إلى الروعة المتناسقة وإلى الجمال في وجهها وقوامها، مؤكِّدة التناسق ومضفية شيئاً من النكهة على الجمال.

وإذا كانت كلمة «حب» لا يمكن أن تنطبق هنا فقد أُعجبت على الأقل بابنة العم هذه، ومنذ الطفولة كنت أستمتع بمراقبتها عن كثب، كنت أجلس ساعات بجانبها وهي تطرِّز، ولا أفعل شيئاً سوى التحديق فيها دون تعبير.

وبعد فترة انصرفت عماتي إلى غرفة داخلية تاركات إيّاي وسوميكو وحيدين في البهو وبقينا حيث كنا، جالسين جنباً إلى جنب على الأريكة، دون أن نقول شيئا، كانت رؤوسنا لا تزال تطن بضجة رصيف المحطة، وكت أشعر بتعب غير عادي.

« أوه، إني متعبة »، قالت ذلك وتثاءبت تثاؤبا خفيفا. رفعت يدها البيضاء وهي مرهقة وضربت فمها بخفة عدة مرات بأصابعها البيضاء وكأنها تؤدّي طقساً غيبياً: « ألست متعباً أنت أيضاً يا كوتشاز؟ »

ولسبب غير معروف ، وبينما كانت تقول ذلك، غطت وجهها بكمي الكيمونو ودفنت وجهها مرة واحدة في فخذي. ثمّ وهي تمرر خدها ببطءٍ على سروالي رفعت وجهها لأعلى وبقيت ساكنة بعض الوقت.

ارتعد السروال الذي كنت أرتديه، لأنه تشّرف بأن يكون وسادتها. وأربكني أريج عطرها وبودرتها.. ونظرت إلى بروفيلها الساكن، وهي راقدة بعينيها المجهدتين الصافيتين مفتوحتين على اتساعهما . كنت حائرا...

هذا كل ما حدث ومع ذلك فلم أنس أبداً الشعور بذلك الثقل المترف وهو يضغط للحظة على فخذي، لم يكن شعوراً جنسيا، بل كان بشكل ما، مجرد مسّرة مُترفة ، كذلك الشعور الذي يتولّد عن ثقل زينة تتدلىّ على الصدر.

وكثيراً ما كنت ألتقي بفتاة مهزولة في الباص الذي كنت أستقلّه إلى المدرسة، وقد جذب اهتمامي برود هيئتها، كانت دائمًا تحدِّق دون اهتمام خارج النافذة كأنها شديدة الضجر من كل شيء، وبينما كانت تفعل ذلك كان التصميم على شفتيها المضمومتين ضمة خفيفة مثيراً للاهتمام.

وعندما لم تكن في الباص، كان يبدو أن هناك شيئا ناقصا، وقبل أن أدرك ذلك كنت أرجو، مبهور الأنفاس، أن أراها في كل مرة أصعد فيها إلى الباص.

وقد تساءلت عماّ إذا كان هذا هو ما يُسمى الحب، وببساطة فلم أكن أعرف. لم تكن لدّي أدنى فكرة عن وجود علاقة بين الحب والرغبة الجنسية ولا حاجة إلى القول إنه خلال فترة افتتاني بأومي لم أبذل أيّ جهد لاطلاق كلمة الحب على ذلك السحر الشرير الذي مارسه عليّ، والآن أيضاً، حتى وأنا أتساءل عماّ إذا كانت العاطفة الغامضة التي كنت أشعر بها تجاه الفتاة في الباص هي الحب أم لا، كان بوسعي في اللحظة ذاتها أن أشعر بانجذاب إلى سائق الباص الشاب الخشن الذي يلمع شعره بفعل دهان عطري ثقيل..

وكان جهلي شديداً لدرجة أني لم أدرك التناقض في ذلك. لم أتبين أن طريقتي في النظر إلى بروفيل سائق الباص الشاب كان فيها شيء حتمي، خانق، مؤلم، قاهر، بينما كنت أنظر إلى الفتاة المهزولة نظرات مدروسة، مصطنعة، وسريعة التعب. وظللت طويلا غير مدرك للفارق بين زاويتي النظر هاتين، اللتين عاشتا بداخلي دون أن تضايق احداهما الأخرى، دون أي صراع.

وبالنسبة لصبي في سني كنت أبدو غير مهتم، بشكل غريب بما يُدعَى « النظافة الخلقية » أو إذا استخدمنا عبارة أخرى، كنت أفتقد موهبة « السيطرة على النفس »، وحتى لو استطعت أفسِّر هذه الحقيقة بالقول إن فضولي الشديد الكثافة لم يدفعني إلى الاهتمام بالأخلاق، فسوف تبقى مع ذلك حقيقة أن فضولي هذا كان يشبه الأشواق اليائسة لمريض ملازم للفراش إلى العالم الخارجي، كما أنه أيضاً كان مشتبكاً دون فكاك بايماني بامكانية « غير الممكن ». كان ذلك المزيج ــ عقيدة لاواعية في جزء منه، ويأسٍ واعٍ في جزء آخر ــ هو الذي زاد من حدة رغباتي حتى بدا أنها طموحات يائسة.

ورغم أني كنت لا أزال شابا، فلم أكن أعرف كيف تكون تجربة الشعور البالغ الوضوح في الحب الأفلاطوني. فهل كان ذلك من سوء الطالع؟

ولكن ماذا يمكن أن يعني بالنسبة لي سوء الطالع العادي؟ لقد جعل القلق الغامض المحيط بمشاعري الجنسية، عالم الجسد يسيطر عليّ عمليا، كان فضولي بالفعل فضولا ذهـنياً خالصا ، وليس بعيداً عن الرغبة في المعرفة ، لكنني صرت ماهراً في اقناع نفسي بأنه كان الرغبة الجسدية مجسَّدة . وأكثر من ذلك، فقد أتقنت الخداع حتى اعتبرت نفسي شخصاً داعر العقل، نتيجة لذلك اتخذت الهيئة المميزة للبالغ، للرجل المجرِّب. وتصنعت الرجل الذي ملّ النساء تماماً.

وهكذا فقد تملكتني أولاً فكرة القبلة، والواقع أن الفعل المسمى بالقبلة لم يكن يمثل لي سوى مكان تأوي إليه روحي. يمكنني الآن أن أقول ذلك. أمّا في ذلك الوقت فلكي أخدع نفسي بأن هذه الرغبة هي عاطفة حيوانية كان عليّ أن أتخذ قناعا محكما فوق ذاتي الحقيقية. وأصرّ الاحساس اللاواعي بالذنب، الذي تولّد عن هذا الادعاء الزائف، وبشكل عنيد، على أن ألعب دوراًواعياً ودوراً زائفاً.

ولكن يمكن التساؤ ل، هل يستطيع الانسان أن يكون زائفاً تماما بالنسبة لطبيعته الخاصة؟ ولو للحظة واحدة؟ إذا كانت الاجابة بلا، فلا سبيل إذنْ إلى تفسير العملية العقلية الغامضة التي نسعى من خلالها وراء أشياء لا نريدها حقاً، أليس كذلك؟ وإذا وافقنا على أني كنت النقيض التام للرجل الأخلاقي الذي يكبت رغباته الداعرة، فهل يعني ذلك أن قلبي كان يفيض بأكثر الرغبـات فسوقا؟

على أية حال، ألم تكن رغباتي بالغة الوضاعة؟ أم أنني خدعت نفسي تماماً؟ هل

كنت أتصرّف بكل التفصيلات الدقيقة، كعبد للتقاليد؟. وجاء وقت لم يعد بوسعي أن أواصل الهرب من ضرورة العثور على اجابات لهذه الأسئلة..

ومع بداية الحرب أغرقت البلاد موجة من الرواقية. ولم تهرب منها حتى المدارس العليا. فطوال الدراسة المتوسطة كنا نحلم بيوم التخرّج لدخول المدرسة العليا، حيث كان بوسعنا أن نطلق شعورنا، أمّا الآن، عندما جاء ذلك اليوم، فلم يعد مسموحاً لنا باشباع مطمحنا ــ فقد كان لا يزال مفروضاً علينا أن نحلق رؤوسنا. وصار جنون الجوارب المزوقة هو الآخر شيئاً عفا عليه الزمن، وبدلاً من ذلك صارت حصص التدريب العسكري كثيرة بشكل سخيف، وابتكرت عدة أشياء سخيفة أخرى.

وبفضل الخبرة الطويلة لمدرستنا في تحقيق مجرد مظهر خارجي دقيق للانضباط، تمكنا من مواصلة حياتنا المدرسية دون أن نتأثر بشكل خاص بالقيود الجديدة.. كان الكولونيل المعين للمدرسة من قبل وزارة الدفاع رجلا متفهمًا، بل إن ضابط الصف الذي أطلقنا عليه اسم «مستر زو» بسبب طريقته الريفية في نطق «سو» كما لو كانت «زو» وكذلك زميليه المستر «أطيش» والمستر «منخار» ذا الأنف الأفطس أصابتهم لوثة مدرستنا وتجاوبوا معها بما يكفي من حسن الادراك، وكان مدير المدرسة أدميرالاً عجوزاً مسناً احتفظ بمنصبه بمساندة وزارة شؤون القصر الامبراطوري، وباتباع أسلوب الاعتدال البطيء وغير العدواني في كل شيء.

خلال تلك الفترة تعلّمت أن أشرب وأن أدخن، أي تعلّمت الادعاء بالتدخين وبالشراب. خلقت الحرب نضوجا عاطفيا غريبا لدينا، نبع من نظرتنا للحياة على أنها شيء ينتهي فجأة ونحن في العشرين، ولم نتأمل حتى امكانية أن يكون هناك أي شيء وراء تلك السنوات القليلة الباقية، وبدت لنا الحياة كشيء متفجر غريب، تماماً كما لو كانت الحياة بحيرة ملح تبخّرت منها كل المياه فجأة، تاركة وراءها تركيزا ملحيا ثقيلا تطفو أجسامنا فوقه بخفة، وحيث أن لحظة نزول الستار لم تكن بعيدة للغاية، فربما كان من المتوقع أن ألعب بعناية زائدة «المسخرة»(*) التي ابتدعتها لنفسي، ولكن حتى وأنا أقول لنفسي أني سأبدأ

(*) المسخرة: تعني الحفلة التنكرية التي يخفي كل انسان شخصيته فيها وراء قناعه المختار (المترجم).

غداً غداً بالتأكيد ـ تأجلت رحلتي إلى الحياة يوماً بعد يوم، وراحت سنوات الحرب تنقضي دون أن تلوح علامة ارتحالي.

ألَمْ تكن تلك فترة سعادة فريدة بالنسبة لي؟ ورغم أني كنت لا زلت أشعر بالقلق، فقد كان قلقاً واهناً. وبما بقي من أمل كنت أتطلّع إلى السماء الزرقاء المجهولة لكل غد. الأحلام الواهمة عن الرحلة المقبلة، رؤيا مغامراتها، الصورة العقلية للشخص الذي سأكونه يوماً في هذا العالم، وللعروس الجميلة التي لم أرها بعد، وآمالي في الشهرة في تلك الأيام كانت كل هذه الأشياء مرتبة بعناية في خزانة الثياب حتى لحظة ارتحالي، تماماً كدليل المسافر ومنشفته وفرشاة أسنانه ومعجون الأسنان. وجدت لذة طفولية في الحرب. ورغم حضور الموت والدمار محيطاً بي من كل جانب، لم يهدأ أبداً حلم يقظتي الذي كان يجعلني أعتقد بأني بعيد عن مدى الأذى من أية رصاصة، بل وكنت أرتعد بمسّرة غريبة لدى فكرة موتي، كنت أشعر كما لو أني امتلكت العالم كله ولا غرو، فنحن لا نمتلك الرحلة بشكل كامل، وحتى أدق تفاصيلها، كما نمتلكها ونحن مشتغلون بالاعداد لها، بعد ذلك تبقى الرحلة ذاتها، وليست هي سوى العملية التي تفقد من خلالها ملكيتنا لها. . وهذا ما يجعل السفر عقيماً تماماً.

وبمرور الوقت صارت سيطرة فكرة القبلة عليّ مُثبتة على شفتين لا سواهما، وحتى هنا، فقد كانت تلهمني رغبة، ليس إلاّ، في أن أمنح أحلامي حق ادعاء النبالة. وكما أشرت من قبل، فرغم أني لم أشعر بالفعل برغبة أو بأية عاطفة أخرى تجاه هاتين الشفتين، فقد سعيت جاهداً، لاقناع نفسي بالرغبة فيهما، وباختصار، فقد كنت مخطئا في اعتبار شيء ما رغبته أولي، وهو لا يزيد عن كونه رغبه لا عقلانيه وثانوية القيمة وفي الاعتقاد بأني كنت أرغب هاتين الشفتين، لقد اعتبرت خطأ أن رغبتي العنيفة والمستحيلة في ألاّ أكون ذاتي، رغبه جنسية لرجل مُجرب، رغبة تنشأ عن كينونته.

كان لي في ذلك الوقت صديق تربطني به صلات المودة رغم أننا لم نكن متشابهين أدنى تشابه، ولا حتى في أحاديثنا، كان ذلك رفيق دراسة قليل الأهمية يُدعَى «فوكادا» ويبدو أنه اختارني كرفيق مناسب يكون مرتاحاً إليه عند معالجة أسئلة دروس الألمانية للسنة الأولى التي كانت شديدة الصعوبة بالنسبة له، وحيث أني دائم الحماس للشيء الجديد حتى تذهب جدته، تظاهرت بأني دارس ألمانية ممتاز وإن كان ذلك خلال السنة الأولى فقط، ولا بدّ أن فوكادا قد حدس مدى

كراهيتي للقب طالب الشرف الذي نلته، وكيف كنت أحنّ إلى « سوء السمعة »، كنت أقول لنفسي، طالب الشرف هذا لقب أليق بطالب اللاهوت، ورغم ذلك فلم أعثر على لقب آخر أختفي وراءه أفضل منه، وكان في صداقة فوكادا شيء يناسب نقطة ضعفي هذه لأنه كان مثار غيرة الفتيان الأشداء في مدرستنا ومن خلاله كان بوسعي أن أصل إلى أصداء واهية من عالم النساء، بنفس الطريقة التي يتصل بها المرء بعالم الأرواح من خلال وسيط.

كان « أومي » أول وسيط بيني وبين عالم النساء، لكني كنت في ذلك الوقت أقرب إلى ذاتي الطبيعية، ولهذا فقد قنعت باعتبار مواهبه الخاصة كوسيط، مجرد جزء من جماله، ولكن دور «فوكادا» كوسيط أصبح الاطار فوق الطبيعي لفضولي وربما رجع ذلك، جزئياً على الأقل، إلى حقيقة أن فوكادا لم يكن جميلا بالمرة.

والشفتان اللتان صارتا تستحوذان عليّ كانتا شفتي شقيقته الكبرى التي رأيتها عندما ذهبت لزيارته بالمنزل، وكان سهلا على تلك الفتاة ذات الثلاثة وعشرين عاما أن تعاملني كطفل، وبمراقبة مَنْ يحيط بها من الرجال، أدركت أني لا أملك صفة واحدة يمكن أن تجتذب امرأة، وهكذا، اعترفت لنفسي أخيراً أني لا يمكن أبداً أن أصير « أومي » ، وبعد المزيد من اعمال الفكر، اعترفت لنفسي أيضاً أن الرغبة في أن أكون مثل أومي، كانت في الحقيقة عشقاً له.

ومع ذلك فقد كنت لا أزال مقتنعاً بأني أحب شقيقة فوكادا، ورحت أتصّرف كأني طالب بالمدرسة العليا، في مثل سني، فأخذت أتسكع حول بيتها، وأقضي الساعات الطويلة صابراً في مكتبة قريبة، على أمل أن تلوح لي الفرصة فأوقفها وهي تمر كنت أحتضن وسادة وأتخيل الشعور بها بين ذراعيّ، ورسمت صوراً لا حصر لها لشفتيها، ورحت أحدِّث نفسي كأني مخبول، وما جدوى كل ذلك؟

أصابت هذه الجهود المفتعلة عقلي بنوع من الارهاق المخدر الغريب ، فقد كان الجزء الواقعي من عقلي يدرك الافتعال في الاعترافات الأزلية التي كنت أقنع بها نفسي بأني كنت أحبها، وكان ذلك الجزء الواقعي من عقلي يدافع عن نفسه بهذا الارهاق الغاضب، بدأ أن هناك نوع من السم المخيف في هذا الارهاق العقلي.

وفي الفترات الفاصلة بين هذه الجهود العقلية التي كنت أبذلها في اتجاه

الافتعال، كانت تغمرني أحياناً أحاسيس بالفراغ الذي يشلّني ، ولكي أهرب، كنت أتحول دون خجل إلى نوع من أحلام اليقظة، وعلى الفور أصبح حساساً للحياة، أصبح ذاتي، وأتّحرق إلى الصور الغريبة. بل إن الشعلة التي كنت أخلقها بهذه الطريقة كانت تبقى في عقلي كشعور مجرد، منفصلة عن حقيقة الصورة التي خلقتها وكنت أشوّه تفسيري لهذا الشعور حتى أعتقد أنه دليل على العاطفة التي ألهمتني بها الفتاة ذاتها.

وهكذا كنت أخدع نفسي مرة أخرى.

وإنْ كان هناك مَنْ يلومني، قائلاً إن ما وصفته بالغ التعميم، بالغ التجديد، فإني أرد قائلا بأني لم أكن أعتزم اطلاقاً أن أقدم وصفاً مملا لفترة من حياتي لن تختلف تفاصيلها الظاهرية عن تفاصيل البلوغ العادي مطلقا، وفيما عدا الجزء المُخجل من تفكيري، فقد كانت مراهقتي، حتى في تفاصيلها الداخلية، عادية تماماً، وخلال تلك الفترة، كنت كأي صبي آخر بالضبط، ولا يحتاج القارىء إلاّ أن يتصور طالبا مجُدا للغاية ، لم يبلغ العشرين بعد، لديه فضول وحب للحياة عاديان، وذا طبيعة انطوائية ليس لسبب سوى أنه يميل إلى التأمل الذاتي لدرجة كبيرة ، سريع الخجل لأقل لفظ، ويفتقد الشجاعة التي تنبع من امتلاك الوسامة الكافية لاجتذاب الفتيات، ويتشبث بكتبه بقوة، وسوف يكون كافيا تماماً أن يتصور المرء كيف يحن ذلك الطالب للنساء، كيف يتأجج صدره، وكيف أنه يتعذّب دون جدوى.

هل يمكن أن يكون هناك شيء أكثر عادية أو أكثر سهولة في التخيل؟

لقد كنت محقاً في اهمال هذه التفاصيل المملة، التي لا يمكن إلاّ أن تُكرر ما يعرفه الجميع بالفعل، ويكفي إذنْ أن نقول أني كنت ـ فيما عدا ذلك الجانب المخجل الذي ذكرته ـ في تلك المرحلة الباهتة من حياة الطالب الخجول ، أشبه تماماً غيري من الصبية، وأني أقسمت يمين الولاء المطلق لمدير المسرح في المسرحية التي تُسمَى بالمراهقة.

خلال تلك الفترة امتد اعجابي القديم بالشباب الأكبر سنا، ليشمل بالتدريج الصبية الأصغر أيضاً، وكان ذلك طبيعياً لأن هؤلاء الصبية الأصغر سنا، كانوا من نفس السن التي كان عليها أومي عندما كنت أحبه، ولكن هذا التحول في الحب ناحية أشخاص من مجموعة عُمْر مختلفة كان متصلا بتحول أكثر جوهرية في طبيعة حبي، وكما كان الأمر في السابق فقد احتفظت بهذا الشعور

مخبوءاً في قلبي ، ولكني أُضيف الآن إلى حبي للمتوحشين حبي لَمنْ هو رشيق ورقيق، ونما بداخلي مع نموي الطبيعي شيء كحب الصبي، شيء قريب من حب الغلمان..

ويقسم « هيرتشفيلد » الشواذ إلى فئتين « عاشق الذكور » الذي لا ينجذب إلّا إلى الكبار، و « عاشق الفتيان »، المغرم بالشباب من الرابعة عشرة إلى الواحدة والعشرين، وقد كنت أقترب من فهم عاشق الفتيان. ففي اليونان القديمة كان الشاب يدعى « ايفيبي » (الفتى) من سن الرابعة عشرة حتى العشرين أثناء تلقيه للتدريب العسكري، ويُشتق الاسم من نفس الكلمة اليونانية التي تظهر في اسم « ويبي » إبنة « زيوس » و « هيرا » حاملة الكأس للآلهة في الأولمب زوجة هرقل الخالد، ورمز ربيع الحياة.

كان هناك غلام جميل، لم يكمل السابعة عشرة، دخل المدرسة العليا لتوِّه، كانت له بشرة فاتحة وشفتان رقيقتان وحاجبان مقوسان تماماً، عرفت أن اسمه ياكومو، وقد اجتذبتني ملامحه بدرجة عظيمة.

ودون أن يدرك، بدأ يمنحني هدايا متتالية، تتمثل كل منها في أسبوع كامل من المتعة. كان عُرفاء الأقسام، بالصف الأعلى، وأنا من بينهم، يصدرون الأوامر، كل منهم على مدى أسبوع بشكل دوري، في اجتماع الصباح، ورياضة الصباح، وتدريبات ما بعد الظهر (كانت هذه الأخيرة كما كان مطلوبا من المدارس العليا أيامها تتكون من ثلاثين دقيقة من رياضات البحرية، وبعدها كنا نحمل الأدوات ونمضي لحفر خنادق الغارات الجوية، أو لقطع الحشائش)، وكان دوري لاصدار الأوامر يأتي كل أربعة أسابيع، وحتى مدرستنا، رغم أساليبها التي يصعب ارضاؤها ، كانت تخضع، فيما يبدو، للتقاليع الجريئة في ذلك الوقت، ومع حلول الصيف أمرنا بتعرية صدورنا سواء في تدريبات الصباح أو في الرياضات البحرية بعد الظهر.

وكان ترتيب الفقرات يقضي بأن يُصدر العريف أولا أوامره باجتماع الصباح من فوق المنصة، ثم عندما ينتهي الاجتماع يصدر أمره: «خلع السترات»؟

وبعد أن يبدأ الجميع في التعري، يأتي ليقف على أحد جانبي التشكيل، عندئذ يأمر التلاميذ بالانحناء للمدرب الرياضي، الذي يكون قد احتل مكانة

على المنصة. عند هذه النقطة تنتهي مهمة العريف، فيعود حتى الصف الأخير، حيث يتعرّى هو أيضاً حتى الخصر ويبدأ أداء التدريبات.

وقد كنت أكره اصدار الأوامر لدرجة أن مجرد التفكير فيها كان يجعلني أقشعر، ومع ذلك فقد أتاح لي الطابع الرسمي العسكري الجاف لهذا النشاط فرصة نادرة حتى أني كنت أتلهف على الأسبوع الذي يحين فيه دوري.. فبفضل هذا النشاط كان جسد ياكومو، جسده نصف العاري، تحت عيني مباشرة دون خطر رؤيته لعريي غير المحبب.

وكقاعدة عامة فقد كان « ياكومو » يقف أمام المنصة مباشرة، في الصف الأول أو الثاني وخداه الياقوتيان متوهجان، وكنت أبتهج لمرآهما وهو يلهث قليلا إذْ يركض نحو اجتماع الصباح، ويتخذ مكانه في الصف، وأثناء لهاثه كان يفك دائمًا أزرار قميصه بحركات خشنة، ثم ينتزع ذيل قميصه من السروال، بعنف، كأنه يوشك أن يقطعه مزقا..

وحتى عندما أصمم على عدم النظر إليه، فقد كنت أجد من المستحيل أن أحول عيني عن جسده الناعم الأبيض وهو معروض هكذا أمام أعين الجميع بمثل هذه اللامبالاة (وذات مرة تجمد دمي بسبب ملاحظة بريئة من صديق: ــ أنت دائمًا تغض البصر وأنت تصدر الأوامر من فوق تلك المنصة، هل أنت بالفعل ضعيف القلب هكذا؟) ولكني في تلك المناسبات لم أكن أجد فرصة للاقتراب من عريه النصفي المتورد.

وفي الصيف تمضي كل الصفوف العليا إلى أسبوع من الدراسة والملاحظة في مدرسة « م » الهندسية البحرية، وذات يوم ونحن هناك أخذونا للسباحة في حوض الاستحمام وبدلاً من الاعتراف بعجزي عن السباحة توسّلت إعفائي بحجة اضطراب معدتي، توقعت أن أبقى مجرد متفرج، ولكن أحد الرؤساء قال إن حمامات الشمس « دواء لكل داء » وهكذا فقد أُجبر، حتى الذين ادّعوا شدة المرض ، على التجرد إلّا من السراويل القصيرة.

وفجأة لاحظت أن « ياكومو » واحد من مجموعتنا. كان يرقد عاقداً ذراعيه القويين الأبيضين ومعرِّضا صدره الخفيف السمرة للنسيم وهو يواصل مضغ شفته السفلى كأنه يشاغبها بأسنانه، وبدأ مدّعو المرض يتجمعون تحت ظل شجرة بجوار الحوض، ولم أجد صعوبة في الاقتراب منه، وبينما كنت أجلس بجواره، رحت أرصد خصره النحيل بعيني، وأحدِّق في حوضه الذي يتنفس برقة.

وبينما كنت أفعل ذلك كنت أستعيد سطرا من شعر وايتمان:

يسبح الشبان على ظهورهم وبطونهم

البيضاء تبرز للشمس. . .

لكني هذه المرة أيضا لم أقل كلمة، كنت خجلاً من صدري النحيل وذراعيّ المعروقتين الشاحبتين. .

وفي سبتمبر ١٩٤٤، في السنة السابقة على نهاية الحرب، تخرّجت من المدرسة التي انتظمت فيها منذ الطفولة، والتحقت باحدى الجامعات، ولأن أبي لم يتح لي اختيارا آخر فقد التحقت بقسم القانون، ولكني لم اتضايق كثيراً لذلك حيث أني كنت أتوقع أن أُستدعى قريباً إلى الجيش، حيث سأموت في الميدان، وأن أسرتي سوف تُقتل من باب الرحمة، بالغارات الجوية، فلا يبقى منا أحد، فقد استعرت زيا جامعيا من طالب أقدم كان ذاهباً إلى الحرب، وأنا أُعد للشهادة العليا، واعداً أيّاه بارجاعها إلى أسرته عندما استدعى إلى التجنيد أنا أيضاً. ارتديت الزي وبدأت حضور الدروس.

بدأت الغارات الجوية تتزايد، كنت خائفاً منها بشكل غير عادي، ومع ذلك فقد كنت أتطلّع إلى الموت بفارغ الصبر، بنوع من التوقع العذب، وكما أشرت عدة مرات، كان المستقبل عبئاً ثقيلاً عليّ، فمنذ البداية، أثقلتني الحياة بشعور بالواجب. . ورغم أني كنت عاجزاً عن النهوض بأعباء هذا الواجب فقد كانت الحياة تناكدني على هذا التقصير، وهكذا فقد كنت أحن إلى الشعور العظيم بالراحة الذي لا بدّ وأن يأتي به الموت، لو تمكنت فقط من طرح العبء الثقيل الذي تمثله الحياة، عن كتفي كالمصارع، وقبلت بشكل حسي عقيدة الموت التي كانت شائعة اثناء الحرب، وكنت أعتقد إنه إذا يسّرت لي المصادفة «الموت المجيد» أثناء المعركة (كم هو أمر غير مناسب لي!) فسوف تكون بتلك خاتمة ساخرة لحياتي، ويمكنني أن أضحك مستهزئاً من مقبرتي، إلى الأبد. . . وعندما كانت صفارات الانذار تدوي كنت أنا أسرع من الآخرين ركضاً نحو ملاجىء الغارات الجوية. .

سمعت صوت بيانو، يعزف دون مهارة.

كان ذلك في بيت صديق قرر أن يتطوع في القريب العاجل، كطالب عسكري خاص. كان اسمه «كوزانو» وكنت احترمه كثيراً، معتبراً ايّاه الصديق الوحيد

لي في المدرسة العليا، الذي يمكنني الحديث إليه، ولو باستخفاف، عن المسائل الهامة، والحقيقة أني ما زلت أقدر صداقته حتى اليوم. إني شخص لا توجد لديه رغبه خاصة في أن يكون له اصدقاء، لكني أشعر بالتعاسة بسبب شيء بداخلي يجبرني على أن أقول ما يلي، رغم أن ذلك قد يدمر الصداقة الوحيدة التي لديّ:

« هل في العزف الذي يعزفه ذلك العـازف شيء مبشر؟ يبـدو العزف مضطرباً، أحيانا، اليس كذلك؟ ».

« إنها شقيقتي، انصرف مدرسها لتوِّه ، وهي الآن تسترجع الدرس ». .

توقفنا عن الكلام وأصغينا باهتمام، وحيث أن تجنيد « كوزانو » كان قاب قوسين فقد كان ما يرن في أذنيه ليس مجرد صوت البيانو بل شيء مألوف، شيء من حياته اليومية، نوع من الجمال المرتبك المربك، سوف يخلّفه وراءه قريباً. وفي اللون النغمي لتلك الأصوات من البيانو، كان هناك شيء من الشعور بالمودة كأنه الحلوى التي يصنعها الهواة وهم يتطلعون إلى كتاب الطهي.. ولم أستطع مقاومة السؤال:

« كم عمرها؟ »

أجاب «كوزانـو».. سبع عشرة.. إنها الأخت التي تصغرني مباشرة وكلما سمعت كلما اتضح لي أنه بالفعل صوت بيانو تعزفه فتاة في السابعة عشرة مليئة بالاحلام وغير واعية، لا تزال، بجمالها، ولا تزل أصابعها تحتفظ ببقايا الطفولة. ودعوت أن يستمر تدريبها إلى الأبد.

ولم يُستجَب لدعائي. لا يزال صوت البيانو اليوم في قلبي، بعد خمس سنوات، كم مرة حاولت أن اقنع نفسي بأن الامر لا يتجاوز الهلوسة! كم مرة سخر عقلي من هذا الوهم، كم مرة ضحكت ارادتي الضعيفة من قدرتي على خداع النفس! ورغم كل ذلك تبقى حقيقة أن صوت ذلك البيانو تسلّط عليّ وأنه كان ـ لو امكن انتزاع الجانب الكئيب من مفهوم الكلمة ـ شيئاً « مصيرياً »حقا بالنسبة لي.

كنت أتذكر، قبل قليل، الانطباع الغريب الذي كانت تتركه لديّ كلمة « قصير » فبعد حفل التخرج من المدرسة العليا، توجّهت بالسيارة مع الأدميرال الناظر العجوز في زيارة شكر تقليدية للقصر، وبينما كانت تمضي بنا السيارة، انتقد هذا العجوز الكئيب الذي تجمع القذى في ركني عينيه، قراري بعـدم

التطوع كطالب عسكري خاص، وانتظاري التجنيد كجندي عادي، وأكّد لي أنه بحالتي البدنية لن أقدر أبداً على تحمل مصاعب الحياة بين الجنود.

« لكنني مصمم ».

« تقول ذلك لأنك لا تدرك مغزاه، ولكن يوم التطوع انقضى، ولا يمكن أن تفعل شيئا بخصوصه الآن، إنه مصيرك ».

واستخدم الكلمة الانجليزية مخطئاً في نطقها تمشياً مع الأسلوب العتيق.

« هه »؟ سألته.

« إنه مصيرك ».

كرر ما قاله بشكل رتيب مستخدماً ذلك النغم الصوتي الرتيب الخجول المميز للشيوخ الذين يتخوفون مـن أن يعتبرهم الآخرون جدات ثرثارات.

لا بدّ أني كنت قد رأيت شقيقة «كوزانـو» التي كانت تلعب البيانو، خلال زياراتي السابقة لمنزلهم، ولكن أسرة كوزانو كانت متحفظة بخلاف اسرة فوكادا المتساهلة، وما أن يأتي أحد من أصدقاء كوزانو حتى تختفي شقيقاته عن الأبصار، دون أن يخلِّفن وراءهن سوى بسماتهن الخجولة.

وحيث أن التحاق كوزانو بالجيش كان يقترب أكثر وأكثر فقد كنا نتزاور بمعدل أعلى ولا نريد أن نفترق، وتسببت تجربة سماع ذلك البيانو في أن أسلك سلوكاً متخشياً فيما يتعلّق بتلك الشقيقة فسماعي لها كان أشبه بالتنصت على سر من أسرارها ومنذ ذلك الحين لم أعد أقدر على أن أنظر في عينيها مباشرة أو أن أتحدث إليها. . وعندما كان يتصادف أن تدخل بالشاي، كنت أغضّ البصر فلا أرى إلاّ ساقيها وقدميها الرشيقتين تخطو بخفة فوق الأرضية، وقد أُخِذت تماماً بجمال ساقيها، فلم أكن قد اعتدت بعد رؤية النساء يرتدين سراويل الفلاحات التي تشبه الزهرات أو السراويل الفضفاضة التي أصبحت تقليعة تلك الأيـام الرهيبة.

ومع ذلك فمن الخطأ أن يكون هناك انطباع بأن ساقيها أثارتا أي رغبة جنسية لديّ ، فكما قلت من قبل، كنت أفتقد كل رغبة جنسية في النوع الآخر، وقد أثبت ذلك بوضوح أني لم تكن لديّ أبداً أقل رغبة في رؤية الجسد العاري

للمرأة، ورغم كل ذلك فقد كنت أتصور بجدية أني أحب فتاة، ويبدأ الارهاق الخانق الذي تحدثت عنه يثقل عقلي، وبعد ذلك كنت أجد لذة في اعتبار نفسي شخصاً يحكمه العقل، وأرضي رغبتي المغرورة في أن أبـدو بالغـاً بأن أشبـه مشاعري الباردة والتي لا يمكن أن تتغير بمشاعر رجل أتعبته التخمة بالنساء، مثل هذه التدريبات العقلية صارت آلية بالنسبة لي، كأني إحدى ماكينات الحلوى التي تبدأ عملها وتخرج قطعة من الملبس بمجرد ادخال قطعة من العملة.

قررت أن بوسعي أن أحب فتاة دون الشعور بأية رغبة كانت. وربما كان ذلك أغبى ما حاول أن يفعله انسان منذ بدأ تاريخ البشرية. فبدون أن أدرك ذلك أنا نفسي، أرجو أن تغفروا لي ميلي الطبيعي إلى المبالغـة، قررت أن أكـون كوبرنيكوس في نظرية الحب، وعندما فعلت ذلك، وصلت دون تبصر إلى مجرد التصديق للمفهوم الأفلاطوني عن الحب، ورغم أني قد أبدو مناقضاً لما قلته من قبل، فقد كنت أؤمن بصدق بهذا المفهوم الأفلاطوني، بقيمته الاسمية كاملة، وبالطهارة، ألم اكن أؤمن بالطهارة نفسها أكثر مما أنا مؤمن بالمفهوم الأفلاطوني؟ ألم يكن ولائي الكامل للطهارة؟ ولكن سأقول المزيد عن هذا فيما بعد.

وإذا بدأ أحياناً أني لا أؤمن بالحب الأفلاطوني، فاللوم في ذلك أيضاً يرجع إلى عقلي، باستعداده لقبول مفهوم الحب الجسدي، الذي كان مفتقداً في قلبي ويرجع إلى ذلك الارهاق الناتج عن تصنعي ، الجدير بأن يرافق أي اشباع لرغبتي المجنونة في أن أبدو بالغا، وباختصار فلا تلقوا اللوم على قلقي.

جاءت السنة الأخيرة للحرب وبلغت العشرين من العمر، وفي بداية السنة أرسل كل الطلاب في جامعتي للعمل في مصنع « ن » للطائرات، قرب مدينة « م » وصار ثمانون بالمائة من الطلاب عمالا بالمصنع، بينما كُلِّف العشرون بالمائة الباقون، وهم الطلاب الضعاف بأعمال كتابية، وكنت ضمن الفئة الثانية، ومع ذلك فعند فحصي طبيا في السنة السابقة صنفوني « ب » مما جعلني لائقاً للخدمة العسكرية، وصرت في قلق دائم من أن يكون استدعائي غـدا، إنْ لم يكن اليوم. .

كان مصنع الطائرات الواقع في منطقة معزولة مليئة بالغبار، بالغ الضخامة حتى أن عبوره على الأقدام، من جهة لأخرى، كان يستغرق نصف ساعة، وكان يضج بعمل عدة آلاف من العمال، كنت واحداً منهم أحمل صفة مستخدم مؤقت رقم ٩٥٣ ورقم الهوية ٤٤٠٩.

وقد اشتغل هذا المصنع الضخم على نظام غامض لتكاليف الانتاج:

فبدون اهتمام بالرأي الاقتصادي القائل بأن استثمار رأس المال يجب أن يكون له عائد، فقد كان هذا المصنع منذوراً لعدمية رهيبة، لا غرو إذنْ إذا كان على العمال أن يرتِّلوا كل صباح قسماً صوفيا، ولم أر أبداً مثل هذا المصنع الغريب فقد كان فيه كل تقنيات العلم والادارة الحديثة، اضافة إلى التفكير الدقيق والعقلاني لكثير من العقليات الراقية، وكل ذلك مخصص لغاية واحدة ــ الموت ــ فبانتاجه للطائرات المقاتلة من طراز « زيدو » التي تستخدمها الأسراب الانتحارية، كان هذا المصنع العظيم يشبه مذهباً سريا يعمل في صخب ــ وهو يئن ويصرخ ويزأر، ولم أستطع أن أتبين كيف أن تنظيمًا ضخما كهذا يمكن أن يوجد دون بعض الطنطنة الدينية، ولقد كان يمتلك بالفعل مهابة دينية، حتى في الطريقة التي يسمن بها المديرون الكهنة بطونهم.

ومن وقت لآخر كانت صفارات الانذار بالغارات الجوية تعلن الساعة التي يحتفل فيها هذا الدين الشاذ بقدَّاسه الأسود.

ثم تبدأ الحركة في المكتب، لم يكن بالغرفة راديو، ولهذا فلم تكن لدينا طريقة لمعرفة ما يحدث، وكان البعض يتساءل، متحدثاً بلكنة ريفية واضحة، ترى ماذا يحدث؟ عندئذٍ كانت تقبل فتاة تعمل في الاستقبال بمكتب كبير المشرفين تحمل تقريراً من قبيل « شوهدت عدة تشكيلات من طائرات العدو»، وقبل أن يمضي وقت طويل كان صوت الميكروفون الحاد يأمر الطالبات وأطفال المدارس الابتدائية بأن يحتموا بالملاجيء ويدور الأشخاص المكلفون بالانقاذ يوزعون رقعاً حمراء مكتوبا عليها « توقف النزيف الساعة ــ الدقيقة» ولو حدث أن جرح شخص ما، فإن إحدى هذه الرقع كانت تملأ وتُعلق حول رقبته لتوضح الوقت الذي اوقف فيه النزيف، وبعد حوالي عشر دقائق من انطلاق صفارات الانذار كانت المكبرات تعلن . . « يتوجه جميع المستخدمين إلى الملاجيء ».

ويسرع العاملون بالمكاتب وهم يحملون الأوراق بين أذرعهم، ليودعوها الخزائن تحت الأرض حيث تُحفَظ السجلات الأساسية ، ثم يندفعون إلى الخارج، لينمضموا إلى حشد العاملين الراكضين عبر الميدان، وهم يرتدون جميعاً خوذات الغارة الجوية ويندفع الحشد تجاه البوابة الرئيسية.

خارج البوابة كان هناك حقل مهجور وعار ومصفر، وبعده بحوالي

سبعمائة أو ثمانمائة متر حُفِرت عدة ملاجىء في غابة صنوبر صغيرة فوق منحدر خفيف الانحدار، تتجه ناحية هذه الملاجىء الغوغاء العمياء، الفارغة الصبر، الصامتة، من خلال الغبار ــ مندفعة نحو ما ليس هو الموت، بأي شكل، وإنْ كان مجرد كهف صغير من التراب الأحمر السهل الانهيار، فليس هو الموت بأي حال.

كنت أعود إلى البيت في اجازاتي غير المنتظمة، وهناك تلقيت ذات مرة أمر تجنيدي. كانت برقية تطلب مني أن أقدم نفسي إلى وحدة معينة في الخامس عشر من فبراير.

وحسبما أشار أبي، أجريت الفحص الطبي ليس في طوكيو، بل في مقر قيادة اللواء المتمركز قرب المكان الذي فيه المقر القانوني لأسرتي في بلدية «هـ» بمنطقة أوزاكا ــ كيوتو وكانت نظرية أبي أن جسمي الضعيف ينال قدرا من الاهتمام في منطقة ريفية أكثر مما ينال في المدينة، حيث لا يكون مثل هذا الضعف نادرا، وأنه نتيجة لذلك فقد أُعفى من التجنيد، والحقيقة أني جعلت المسؤولين عن الفحص يغرقون في الضحك عندما عجزت عن رفع كيس الأرز الذي يرفعه صبيان المزارع بسهولة على رؤوسهم عشر مرات ولو حتى إلى مستوى صدري، ومع ذلك فقد صنفوني (ب) في النهاية.

وهكذا أُستدعيت ــ لأنضم إلى وحدة ريفية خشنة، وبكت أمي بأسى، بل إن أبي بدا متكدراً، كدراً غير قليل، أمّا أنا، وقد كنت أتصور نفسي بطلا، فما أثار في مشهد الاستدعاء الحماس، ولكن من ناحية أخرى كان هناك الأمل في الموت بسهولة، وعموما فقد كنت أشعر أن كل شيء كما يجب أن يكون.

وساءت حالة البرد التي كنت أُصبت بها في المصنع، وأنا أنتقل بقارب تجاري عبر الجزر لأنضم إلى وحدتي، وعندما وصلت إلى منزل أصدقاء مقربين من عائلتي في قرية قرب مقرّنا القانوني، لم نكن نملك قطعة أرض واحدة هناك منذ أفلس جدي، كنت مصاباً بحمى عنيفة حتى لم أعد أستطيع الوقوف، ولكن بفضل العناية التي لقيتها أثناء تمريضي في ذلك المنزل، وفعالية الكمية الكبيرة من ملطف الحمى التي تناولتها تمكنت أخيراً من أن أشقّ طريقي عبر بوابة الثكنة، وسط وداعٍ حار من أصدقاء الأسرة.

وعاودتني الحمى التي كان الدواء قد كبحها فقط، وخلال الفحص الطبي

الذي يسبق التجنيد النهائي كان عليّ أن أقف في الانتظار عاريا كالحيوان المتوحش وأخذتُ أعطس دون توقف، وأخطأ الطبيب العسكري المراهق الذي فحصني فظن خشخشة شُعَبي الهوائية لغطاً بالصدر، ثمّ أكدت اجاباتي العشوائية فيما يتعلّق بتاريخي الطبي تقديره الخاطيء، ومن هنا أجرى لي اختباراً للدم، تأثرت نتيجته بالحمى التي تسببت عن البرد، فأدّت إلى تشخيص خاطيء لحالة سل ابتدائي، وأُمرت بالعودة إلى البيت في نفس اليوم بصفتي غير صالح للخدمة العسكرية.

وما أن تنكبت بوابة الثكنة، حتى أخذت أركض أسفل المنحدر الشتوي القائم الذي يهبط إلى القرية، وكما كان في مصنع الطائرات، فقد حملتني ساقاي، ركضاً، نحو شيء ليس هو الموت على أي حال ــ مهما كان، فلم يكن هو الموت. . .

وفي تلك الليلة في القطار، وأنا منكمش من الريح التي كانت تهب من خلال زجاج النافذة المكسور، عانيت من قشعريرة الحمى ومن الصداع . أين سأذهب الآن؟ سألت نفسي، وبفضل عجز أبي الغريزي عن اتخاذ أي قرار نهائي حول أي شيء بقيت أسرتي لا تبارح منزلنا في طوكيو، هل أذهب إلى هناك؟ إلى ذلك المنزل حيث يرتعد الجميع بالتوقع؟ إلى تلك المدينة التي تحشو البيت بقلقها القائم؟ وسط تلك الحشود حيث يملك الجميع عيون حيوانات ويبدو أنهم يتساءلون «هل أنت بخير؟ هل أنت بخير؟» أم إلى القسم الداخلي بمصنع الطائرات؟ الذي لا تملؤه سوى وجوه جامدة لطلاب الجامعة المسلولين؟

تخلخلت الألواح الخشبية على ظهر المقعد الذي كنت أجلس فوقه وراحت تنزلق مع ذبذبات القطار، ومن وقت لآخر كنت أغلق عيني وأتصور مشهداً تفنى فيه أسرتي كلها بغارة جوية أثناء زيارتي لهم، وملأتني هذه الفكرة باشمئزاز لا يمكن التعبير عنه. لا شيء ينفرني كفكرة الصله بين الحياة اليومية والموت، ألا تخفي حتى القطة نفسها عند اقتراب الموت، بحيث لا يراها أحد وهي تموت؟ مجرد التفكير في أني قد أرى الميتة الشنيعة لأسرتي، وأنهم قد قد يروا ميتتي أثارت داخل صدري غثياناً ورغبة في التقيؤ. فكرة أن يدفع الموت باسرة إلى مثل هذا الموقف، كيف أن الأم والأب والأبناء والبنات يختطفهم الموت ويقتسمون الاحساس بالموت، والنظرات التي يتبادلونها ــ كل ذلك لم يبد لي سوى تقليد شاذ لمشاهد السعادة والتناغم العائلي الكامل. .

ما كنت أريده هو الموت وسط الغرباء، بهدوء، تحت سماء صافية .. ومع ذلك فقد كانت مشاعري تختلف عن مشاعر ذلك اليوناني القديم الذي كان يريد أن يموت تحت الشمس المشرقة، ما كنت أريده هو نوع من الانتحار الطبيعي العفوي، كنت أريد موتا كموت الثعلب، الذي لم يتمّرس بعد بالمكر والذي يمشي لا مبال عبر ممرّ جبلي فتصيبه طلقة من صياد بسبب غبائه..

وما دامت الحالة كذلك، أفليس الجيش مثاليا بالنسبة لغرضي ؟ لماذا كنت أبدو بهذا الصدق وأنا أكذب على الطبيب العسكري، لماذا قلت إني كنت أُصاب بحالات الحمى الخفيفة عبر أكثر من نصف سنة، وأن كتفي متيبس بشكل مؤلم، وأني أبصق دما وأني حتى في الليلة السابقة كنت غارقاً في العرق؟ (تصادف أن هذا الأخير كان صحيحاً ولكن لا مجال للعجب بالنظر إلى عدد ما تناولته من الاسبرين) ولماذا شعرت عندما أُمرت بالعودة إلى بيتي في نفس اليوم بضغط ابتسامة تندفع إلى شفتي بدرجة تجعل من الصعب علي اخفاؤها؟ لماذا ركضت وأنا أجتاز بوابة الثكنة ؟ ألَمْ تُنسَف آمالي؟ ما الذي جعلني لا أرفع رأسي، وأجرّ نفسي مثقل القدمين؟

أدركت بوضوح أن حياتي لن تصل أبداً إلى ذرى المجد التي تكفي لتبديد هربي من الموت في الجيش ولهذا فلم أستطع أن أفهم مصدر القوة التي جعلتني أجري بتلك السرعة بعيداً عن بوابة اللواء. هل كان ذلك يعني أني أريد، رغم كل شيء، أن أعيش؟ ورد الفعل الآلي تماماً، ذلك الذي يجعلني أندفع مقطوع الأنفاس إلى ملجأ الغارات الجوية، ماذا كان ذلك سوى رغبة في الحياة؟

ثم تحدث فجأة الصوت الثاني بداخلي ، لينبئني بأني لم أرغب أبداً، ولو لمرة واحدة، بصدق ، في أن أموت. ولّدت تلك الكلمات في إحساسا بالخجل فوق السد الذي كان يحتجزه، كان إعترافاً مؤلما، ولكن في تلك اللحظة عرفت أني كنت أكذب عندما قلت إني أريد أن أدخل الجيش من أجل الموت، في تلك اللحظة أدركت أني كنت آمل سرا في أن يوفر لي الجيش، أخيراً ، فرصة لاشباع رغباتي الحسية الغريبة، وقد كنت أعرف، بعيداً عن أي رغبة في الموت، أن الشيء الوحيد الذي جعل من الممكن بالنسبة لي أن أتلهف على حياة الجيش كان الاعتقاد الراسخ ــ النابع من ايمان شائع بين البشر جميعاً في فن السحر ــ بأني الوحيد الذي لا يمكن أن يموت...

ولكن كَمْ كانت تلك الأفكار مزعجة لي، كنت أفضل كثيراً أن يركز فيها الطبيب وهو يجري جراحة على عضو داخلي ما، وبشكل رقيق، كل قدراته في العملية ، ومع ذلك يظل مفتقداً للعنصر الشخصي، فقد كنت أتلذذ بتصور الآلام الغريبة لشخص يريد أن يموت لكن الموت رفضه.

وبدت درجة المتعة العقلية التي كنت أحصل عليها بهذه الطريق غير أخلاقية تقريبا. .

اختلفت الجامعة مع مصنع الطائرات في الرأي وتم سحبنا جميعاً من المصنع مع نهاية فبراير، وكانت الخطة تقضي بأن نواصل حضور المحاضرات ثانية خلال مارس ثم نُعبَّأ لمصنع آخر في ابريل، ولكن في نهاية فبراير أغارت ألف طائرة تقريباً من طائرات العدو المقاتلة وهكذا بدا أن المحاضرات المقرر عقدها في مارس لن تُعقَد إلّا اسما فقط.

وهكذا حدث أننا منحنا اجازة لمدة شهر في ذروة الحرب، كان ذلك مشابها لاهدائنا ألعابا نارية مبللة، وقد كانت فخامة ذلك الأمر هي التي أسعدتني بهذا الشكل، فحقيقة أن الاجازة عديمة النفع مطلقا.

وبعد عدة أيام من شفائي من البرد، اتصلت بي أم « كوزانو » تليفونيا وقالت إن الزيارة مسموح بها لأول مرة للواء كوزانو قرب مدينة « م » يوم العاشر من مارس، وسألت عما إذا كنت أحب أن أصحبهم لزيارة كوزانو.

وقبلت الدعوة، وبعد ذلك بوقت قصير ذهبت إلى بيت « كوزانو » لاجراء الترتيبات اللازمة. في تلك الايام كانت الساعات بين الغسق وبين الثامنة مساء تُعدّ اكثر أوقات النهار أماناً، وعندما وصلت كانت الأسرة قد انتهت لتوِّها من العشاء. .

وحيث أن والد « كوزانو » ميت فإن الاسرة تتكّون الآن فقط من أمه وجدته وثلاث شقيقات، ودعيت للانضمام إليهن حول المدفأة، حيث كنّ جالسات، قدمتني الأم إلى الشقيقة التي كنت سمعتها تعزف البيانو تلك المرة.

كان اسمها « سونوكو ».

ولأنه كانت هناك عازفة بيانو شهيرة بنفس الاسم، ألقيت بدعابة خفيفة حول استماعي فيما سبق لتدريبها على البيانو، واحمّرت الفتاة ذات الثمانية عشر

ربيعا من الخجل في الضوء الباهت لمصباح الطوارىء، ولم تقل شيئا، كانت ترتدي سترة جلدية حمراء.

في صباح التاسع من مارس انتظرت أسرة «كوزانو» على رصيف محطة قريبة من المنزل. كانت الحكومة قد قضت بأن صف المحلات التي وراء الخط الحديدي يمكن أن تساعد على اشعال حريق، وكان من الممكن مشاهدة أعمال الهدم، بالتفصيل، وكانت قد بدأت فعلا. اخترق النشاط هواء اول الربيع بضجيج طازج ساحق بين الابنية المهدمة ، وكان بوسعك أن ترى الأسطح المكشوفة حدبثاً للخشب العادي ، التي تبهر العين.

كانت الأصابيع لا تزال باردة، ولعدة ايام لم تكن قد دوّت صفارة انذار بالغارات الجوية ولو مرة واحدة، خلال ذلك الفاصل كان الهواء قد أصبح لامعاً مصقولا، أكثر وأكثر ، وتمدد رقيقا حتى بدا على وشك الانفجار.

كان الجو أشبه بوتر الساميني(*) المشدود المضبوط ، المستعد للرعشة الصاخبة لدى أول لمسة. ذكّرني الجو بتلك اللحظات القليلة الصامتة، الغنية بفراغها، التي ينجزها انبثاق الموسيقى، بل إن شعاع الشمس البارد الذي سقط على المنصة المهجورة كان يرتعد بشيء كأنه نذير الموسيقى.

ثم ظهرت «سونوكو» ترتدي معطفاً أزرق، وهي تهبط الدرج المقابل مع شقيقتيها ، كانت تمسك بشقيقتها الأصغر، من يدها، وترقبها بعناية وهي تنزل السلم درجة درجة، وبدت الأخت الأخرى ، التي كانت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، عندئذٍ غير صابرة على هذه السرعة المنخفضة، ولكنها كانت تتعمد النزول بخط متعرج على الدرج الخالي بدلاً من أن تتجاوز الآخرين.

وبدا أن «سونوكو» لم تلحظني بعد، وكنت أستطيع أن أراها بوضوح من حيث كنت أقف، ولم يكن قلبي قد تأثر من قبل أبداً بمرأى جمال امرأة . علا صدري وهبط، وشعرت أني تطهرت.

القارىء الذي تتبعني حتى الآن سيرفض تصديق شيء مما أقول ، وعلى الأرجح فسوف يشك فيّ لأنه لا يبدو أي اختلاف بين حبي المصطنع المحيط لشقيقة «نوكادا» وخفقات القلب الذي أتحدث عنه الآن، لأنه لا يبدو أي سبب

(*) آلة موسيقية وترية يابانية (المترجم)

واضح يجعلني، في هذه المناسبة وحدها، لا أخضع عواطفي لذلك التحليل الخالي من الرحمة الذي استخدمته في الحالة السابقة، وإذا أصرّ القارىء على مثل هذه الشكوك فقد أصبح فعل الكتابة إذنْ ، شيئاً عقيما من البداية. سوف يظن أني أقول شيئا ما، لأني ببساطة، أريد أن أقول له هكذا، دون أي اعتبار للحقيقة وأي شيء أقوله سيكون مقبولا ما دمت أجعل قصتي منسقة.

ولكن ذلك الجزء من ذاكرتي الذي يعلن عن نقطة اختلاف أساسية بين العواطف التي شعرتها من قبل وتلك التي شعرتها لدى رؤيتي الآن لسونوكو هو جزء بالغ الدقة، الفارق هو أني شعرت هذه المرة بالندم.

وعندما كادت تصل إلى أدنى درجات السلم لحظتني « سونوكو » وابتسمت. احمرت وجنتاها المنتعشتان بسبب البرد، ولمعت عيناها، وقد أعطاهما الانسانان الأسودان الكبيران والرموش الكثيفة مظهراً ناعسا إلى حد ما، كأنهما تحاولان الكلام ثم اودعت يد اختها الطفلة في يد الأخت الثانية.

وركضت نازلة فوق الرصيف باتجاهي، بحركة رشيقة كالضوء المرتعش.

ما كنت أراه يجري نحوي لم يكن فتاة، لم يكن ذلك التشخيص للجسد كما كنت أصوره لنفسي، قسراً، منذ الصبا، بل كان شيئا كالبشر باخبار الصباح ولولا هذه الحقيقة، لاستطعت أن ألقاها بآمالي الخدّاعة المعتادة، ولكن ما أربكني هو أن غريزتي أُجبرت على أن تدرك قيمة مختلفة في « سونوكو » وحدها، وخلق ذلك لديّ شعورا عميقاً وخجولا بأني غير جدير « بسونوكو » ورغم ذلك فلم يكن شعورا بالصغار العبودي، فقد كان يداهمني حزن لا يحتمل في كل ثانية أرقب فيها « سونوكو » وهي تقترب، كان شعوراً لم أجربه أبداً من قبل، بدا أن الحزن يدمر أسس وجودي ويجعلها تترنح، حتى هذه اللحظة كان شعوري إزاء النساء خليطاً مصطنعا من الفضول الطفولي والرغبة الجنسية المدعاة، فلم يمتلىء قلبي من قبل أبدا، ومن أول نظرة، بمثل هذا الحزن العميق والذي لا يمكن تفسيره، والأكثر من ذلك أنه حزن لا ينتمي إلى تنكري.

كنت أدرك أني أشعر بالندم، لكن هل ارتكبت خطيئة أندم عليها، ورغم أن هذا تناقض جوهري ، أفلا يوجد نوع من الندم الذي يسبق الخطيئة؟

هل كان ندما بسبب مجرد حقيقة وجودي ؟ هل أخرج مرآها الندم وأيقظه فيّ؟ أم أن شعوري لم يكن شيئاً سوى احساس مسبق بالخطيئة؟

وقفت « سونوكو » أمامي رزينة، بدأت انحناءتها، ولكنها وجدتني غارقاً في أفكاري فبدأتها مرة أخرى، بكل دقة.

هل جعلتك تنتظر ؟ إن أمي وجدتي (استخدمت « سونوكو » صيغة التشريف وهي تشير إلى الأم والجدة)، ثم توقفت عن الكلام، واحمرّ وجهها، وقد أدركت ، فجأة ، أن هذه الكلمات لا يليق توجيهها لفرد خارج دائرة الأسرة. « حسنا لم تنتهيا من الاستعداد بعد وسوف تتأخران قليلا، فلننتظر قليلاً إذنْ». توقفت مرة اخرى، ثم صححت نفسها قائلة: « نمضي إلى محطة القطار، هذا إذا كنت تحب». وبعد أن نجحت أخيراً في التلفظ بهذا الخطاب الطويل، بلغة رسمية متعثرة، صدرت عنها تنهيدة راحة طويلة. كانت « سونوكو » كبيرة الجسم وطويلة بما يكفي لأن تصل إلى جبهتي، كان جسمها رشيقا ومتسقا بشكل غير معتاد، وكان لها ساقان جميلتان، وبدا وجهها الطفولي المستدير الذي لم تضع عليه أي مكياج انعكاساً لروح كاملة غير مزوقة، كانت شفتاها مشققتين قليلا، وجعلها ذلك أكثر احمرارا.

تبادلنا عدة كلمات خجولة، ورغم أني كرهت نفسي في ذلك الدور ، فقد حاولت بكل قوتي أن أبدو مبتهجاً مسرورا، لكي أبدو شابا يفيض بالذكاء.

مرّ بنا عدد من القطارات العالية بصراخها وصريرها ثمّ رحلت وصار ضغط الركاب الصاعدين والهابطين أثقل . كلما جاء قطار ركاب كان يفصلنا عن ضوء الشمس الذي يغرقنا بالدفء المبهج، وكلما ابتعد قطار كنت أرتعد من جديد مع رقة شعاع الشمس الذي يسقط مرة أخرى على خدي.

واعتبرتها علامة مشؤومة أن يسقط اشعاع الشمس المبارك عليّ هكذا وأن يمتلىء قلبي هكذا بلحظات لا تتركني راغباً في شيء آخر. لا شك أنه بعد دقائق قليلة سوف تأتي غارة جوية مفاجئة أو حدث آخر لا يقل فظاعة، لتقتلنا حيث كنا نقف، وفكرت في أنه من المؤكد أننا لا نستحق حتى قليلا من السعادة، أو ربما نكون اكتسبنا عادة سيئة تجعلنا نعتبر القليل من السعادة معروفا كبيرا يجب علينا ردّه. كان هذا بالضبط هو الشعور الذي توفّر لديّ من الوقوف وجهاً لوجه أمام « سونوكو » بهذه الطريقة، وبدا أن «سونوكو» أيضاً يغمرها نفس الشعور.

انتظرنا وقتا طويلا ولكن لّما لم تأت امها أو جدتها أخذنا أحد القطارات وانطلقنا إلى محطة « يو ».

في صخب المحطة حيّانا السيد «أوهبا» الذي كان ذاهباً لزيارة ابنه في نفس لواء «كوزانو» ذلك المصرفي الذي بلغ منتصف العمر، والذي تخلّ عن الزي المدني الكاكي الذي كان يحوز الرضا الرسمي أيامها، وتشبث بعناد بقبعة هومبورج وبمعطف فضفاض، كانت تصحبه ابنة له أعرفها أنا و «سونوكو» معرفة بسيطة. لماذا سرّتني حقيقة أن تلك الفتاة بدت بعيدة عن الجمال عند مغادرتها مع «سونوكو»؟ لماذا كان ذلك الشعور؟ فبرغم مرح «سونوكو» الساذج، الذي كان يقع تحت بصري ـ كانت تمسك بيدي بنت «أوهبا»، وقد تقاطعت أيديهما، مظهرة بذلك مودة عظيمة ـ أدركت أن «سونوكو» تتمتع بالكرم المشرق الذي هو من خواص الجمال، وأن ذلك جعلها تبدو أكبر من حقيقتها بعدة سنوات.

وعندما ركبنا القطار كان خاليا، وكما لو كان ذلك بالمصادفة، فقد جلست أنا و «سونوكو» على مقعدين مجاورين للنافذة، يواجه أحدنا الآخر.

وإذا عددنا الخادم التي كانت تصحب السيد أوهبا فقد كانوا ثلاثة أشخاص أمّا مجموعتنا، التي اكتملت أخيراً فكانت تضم ستة، وحيث أن المجموعتين كانتا تضمان تسعة، فقد كان العدد أكبر، بشخص واحد، من أن تتسع لنا مجموعتا المقاعد على جانبي الممشى.

حسبت هذه الحسبة السريعة دون مجرد ادراكها، فهل يكون من الممكن أن «سونوكو» تفعل الشيء ذاته؟ على أية حال فعندما اندفعنا جالسين في مواجهة بعضنا البعض تبادلنا ابتسامات عابثة.

وبالنظر إلى العدد غير القابل للقسمة لمجموعتنا الموحدة، وافق الآخرون ضمناً عندما كوّنت مع «سونوكو» جزيرة صغيرة منفصلة لنفسينا. ومن باب المجاملة كان على أم «سونوكو» وجدتها أن تجلسا في مواجهة «أوهبا» وابنته، وفي الحال اختارت الشقيقة الصغرى «لسونوكو» مقعداً بجوار النافذة، على الجانب الآخر من الممشى، يمكنها منه أن ترى وجه أمها وأن تنظر من النافذة أيضاً، وتبعتها الشقيقة الثالثة، وأصبح مقعدهما ملعبا، وتولّت خادم «أوهبا» رعاية الفتاتين العابثتين، وانعزلت أنا و «سونوكو» عن الآخرين جميعا وراء كرسي أبلاه الزمن.

سيطر السيد «أوهبا» الثرثار على الحديث، حتى قبل أن يغادر القطار المحطة ولم تترك ثرثرته المسنونة الخفيضة الصوت شيئاً لسامعيه سوى أن يتفقوا

معه، وحتى الجدة ذات الروح الشابة، التي كانت الممثل الثرثار لأسرة « كوزانو » فقد اسكتتها الدهشة هي الاخرى، ولم يكن بوسعها هي والأم أن تقولا شيئاً سوى « أجل، أجل »، وانشغلتا تماماً بمهمة الضحك على النقطة الهامة تلو الأخرى في مونولوج السيد «أوهبا»، أما ابنة أوهبا فلم تنطق بكلمة.

بدأ القطار يتحرك وعندما غادرنا المحطة تدفق ضوء الشمس من خلال زجاج النوافذ القذر، وسقط على القاعدة المهشمة للنافذة التي جلسنا بجوارها، أنا و « سونوكو » وفاض على حجرينا، صمتنا نحن الاثنان، وأصغينا لثرثرة السيد « أوهبا » في المقعد التالي ومن آنٍ لآخر كانت تومض على شفتي « سونوكو » ابتسامة، وانتقل استمتاعها تدريجياً، وكلما التقت نظراتنا كانت « سونوكو » تتقنع بنظرة براقة عابثة كأنها تصغي إلى الصوت المجاور، وتتجنب عيني.

. . . . « وعندما أموت فإني أعتزم أن أموت مرتدياً هذا الزي بالضبط، أن أموت في زي مدني وبجواربي، لن يكون هذا موتا، أليس كذلك؟ ولن أرى ابنتي أيضا ترتدي سروالا واسعا، أليس من واجبي كأي أب أن احرص على أن تموت هي كامرأة؟ »

« اجل، اجل »

« وبالمناسبة ، أرجو أن تبلغوني عندما تريدون نقل أشيائكم من المدينة، لا بدّ أن الأمر صعب في منزل بدون رجل يساعد، مهما كان الأمر ارجوكم ابلاغي ».

« أنت بالغ العطف ».

« لقد تمكنا من شراء مخزن في « تي سبا » ونرسل الآن كل ما يخص موظفي مصرفنا إلى هناك، أستطيع أن أؤكد لكم أن أشياءكم ستكون آمنة هناك، لا غبار على أي شيء تريدون ارساله إلى هناك، البيانو أو أي شيء ».

« أنت بالغ العطف ».

« وبالمناسبة من حسن الحظ أن قائد وحدة ابنكم يبدو رجلا طيبا، أسمع أن قائد إبني يغتصب حصته من الطعام الذي يأتي في يوم الزيارة، على كل هذا هو ما يتوقع من هؤلاء الناس عبر البحر، يقولون إن القائد يُصاب دائماً بتقلصات في المعدة بعد يوم الزيارة ».

« ياه، ياه »

اندفعت بسمة أخرى إلى شفتي « سونوكو » وبدت قلقة وأخيراً أخرجت كتابا من الحقيبة التي كانت تحملها، شعرت بنوع من خيبة الأمل، لكني أظهرت اهتماماً بعنوان الكتاب.

سألتها « ماذا تقرأين ».

أرتني ظهر الكتاب المفتوح، وهي تبتسم بينما أمسكت به أنا أمام وجهها كالمروحة. كان العنوان « حكاية روح الماء » وبعدها كتب بين قوسين العنوان الألماني الأصلي « أونديت ».

سمعنا صوت شخص ينهض من الكرسي وراءنا، كانت تلك أم « سونوكو » ظننتها تحاول الهرب من ثرثرة « أوهبا » بالذهاب لتهدئة ابنتها الصغرى التي كانت تتقافز وتتواثب على المقعد المقابل، ولكن كما تبين، فقد كان لها غرض آخر أيضاً. جاءت معها بالبنت الصاخبة وشقيقتها العابثة الأكبر منها إلى مقعدنا، قائلة:

«والآن أرجو أن تجعلا هاتين الطفلتين الصاخبتين تنضمان إليكما »، كانت أم « سونوكو » جميلة ورشيقة وفي بعض الأحيان كانت البسمة التي ترافق طريقتها في الكلام تبدو شجية، وعندما تكلمت هذه المرة، بدت لي ابتسامتها أميل إلى الحزن والقلق، وبعد أن تركت الطفلتين جالستين معنا، عادت الأم إلى مقعدها، وتبادلت مع « سونوكو » نظرة خاطفة. أخرجت من جيب صدري مفكرة انتزعت منها ورقة وكتبت عليها بالرصاص؛

« أمك تراعي الحيطة! »

« ما هذا »؟ تساءلت « سونوكو » وهي ترفع رأسها بحياء بينما أنا أسلمها الورقة، عبق شعرها برائحة شعر الأطفال، وعندما انتهت من قراءة الكلمات التي على الورقة احمرّ وجهها وعنقها وغضّت بصرها.

قلت : « أليس ذلك صحيحاً »؟

« أوه، إني . . . »

التقت عيوننا ثانية وتفاهمنا.

كنت أشعر بوجنتي أيضاً تشتعلان.

« ما هذا يا أخت؟ » سألت الشقيقة الصغرى وهي تمد يدها، وفي لمح البصر أخفت « سونوكو » الورقة وكانت الشقيقة الأخرى كبيرة بما يكفي لأن تفهم مغزى تصرفاتنا فغضبت وزّمت شفتيها، واتضح ذلك من مبالغتها في تأنيب شقيقتها الصغيرة.

وبدلاً من أن يطفىء ذلك جذوة روحينا، جعل من الأسهل علينا، أنا و « سونوكو » أن نتحادث . تحدثت عن مدرستها، وعن بعض روايات كانت تقرأها، وعن شقيقتها، ومن جانبي وجهت المناقشة فوراً إلى مسائل عامة، متخذاً الخطوة الأولى في فن الاغواء، وعندما واصلنا الحديث بهذه الألفة، متجاهلين الشقيقتين، أسرعت الشقيقتان بالعودة إلى مقعديهما الأصليين، فمن الواضح أنهما لم تكونا جاسوستين شديدتي المهارة ولكن الأم، بابتسامتها المضطربة، أعادتهما ثانية للجلوس معنا . .

وعندما استقرّ بنا المقام جميعا في فندق صغير بمدينة « م » قرب وحدة كوزانو كان الوقت قد حان للنوم، وخصصت غرفة واحدة لي وللسيد « أوهبا ».

وعندما صرنا وحدنا بدأ السيد أوهبا يتحدث بحرية، دون أي محاولة لاخفاء معارضته لاستمرار الحرب، كانت مثل هذه الآراء المعادية للحرب يتهامس بها الناس كلما التقوا، حتى في صيف ١٩٤٥، وكنت مللت سماعها، وظلّ السيد « أوهبا » يرغي بشكل لا يُطاق، بصوته الخفيض، قائلاً إن شركة السيراميك الكبرى التي له استثمارات فيها كانت تستعد للسلام بالفعل، وانها بحجة اصلاح ما دمرته الحرب، كانت تخطط لانتاج كبير من السيراميك للأغراض المنزلية، وأنه يبدو أن هناك اقتراحات للسلام تقدم من خلال الاتحاد السوفييتي.

أمّا بالنسبة لي فقد كان لديّ شيء آخر،كنت أشد رغبة في التفكير فيه وحدي. وأخيراً أطفىء النور، واختفى في الظلمة وجه السيد « أوهبا »، الذي كان يبدو منتفخا بشكل غريب ، بدون نظارته. امتلأ الفراش، بطيئا، بتنهيداته البريئة، مرتين أو ثلاثا ثم أظهر تنفسه العميق أنه نام، ومع الاحساس بالغطاء الجديد الذي كان يحك وجنتي الملتهبة، غرقت في التفكير.

اضافة إلى الضيف الكئيب الذي كان يتهددني كلما انفردت بنفسي عاد إلى قلبي الحزن الذي هزّ أساس وجودي هذا الصباح عندما شاهدت « سونوكو »

وبقوة أشد أعلن أن كل كلمة قلتها وكل فعل أدّيته ذلك اليوم كانا زائفين ، فمنذ اكتشفت أن الأقل ايلاماً هو أن تقرر أن الشيء بكامله زائف عن أن تتعذب بالشكوك حول أي جزء منه هو الزائف وأي جزء هو الصادق، تعودّت تدريجياً على هذه الطريقة في نزع قناع زيفي أمام نفسي، وحتى وأنا راقد أفكر، كان انزعاجي الملح إزاء ما أسميه الشرط الأساسي لتكون كائنا، وإزاء ما أسميه النفسية البشرية الايجابية لا يؤدّي إلاّ إلى الايقاع بي في دوائر تأمل باطني لا ينتهي.

كيف كنت أشعر لو أني فتى آخر، كيف كنت أشعر لو أني شخص طبيعي؟ سيطرت عليّ هذه الأسئلة ، عذّبتني ودمّرت بشكل سريع وكامل، الشظية الوحيدة من السعادة التي كنت أظن أني ممسك بها يقينا.

انتهى أدائي إلى أن يصبح جزءا أساسياً في طبيعتي ، قلت ذلك لنفسي: لم يعد أداء، فمعرفتي بأني أتنكر كشخص طبيعي، دمرت ما كنت أملكه من صفات طبيعية في الأصل ، وانتهيت إلى أن أقول لنفسي ، المرة تلو المرة، إن ما كان لديّ في الأصل من خصال طبيعية ليس بدوره سوى ادعاء بأني طبيعي، وبتعبير آخر فإني أصبح شخصا لا يستطيع أن يعتقد إلاّ في الزيف، ولكن إنْ صحّ ذلك فإن شعوري بحاجتي إلى اعتبار انجذابي إلى « سونوكو » مجرد زيف لا يكون سوى قناع يخفي رغبتي الصادقة للاعتقاد بأني أحبها حقا، وهكذا فربما أتحول إلى شخص من النوع العاجز عن التصرف بعكس طبيعته الحقة، وربما أكون قد أحببتها حقا.

ومع هذه الأفكار التي تنسج دوائرها داخل رأسي كنت أخيرا على حافة النعاس عندما جاء فجأة، محمولا فوق الهواء الليلي، ذلك الصوت المنتحب الذي كان منار شؤم دائم بالنسبة لي، وإنْ كان رغم ذلك، جذاباً بشكل ما.

قال المصرفي على الفور « أليس ذلك هو الانذار »؟

أُخِذت بخفة نومه.

أجبته بغموض « تصورا! »

استمرّت صفارات الانذار تدّوي بشكل واهن، لوقت طويل.

ولأن ساعات الزيارة في اللواء تبدأ مبكراً فقد نهضنا جميعاً في السادسة.

كانت «سونوكو» فـي المغسلة عندما دخلت، وبعد أن تبادلت معها تحية الصباح قلت:

« دوّت صفارات الانذار بالأمس، أليس كذلك؟ »

أجابت بوجه واضح الصدق « كلا » .

وعندما عدنا إلى غرفتينا المتجاورتين، حيث فتح الباب الموصل بينهما، زودت اجابتها على سؤالي شقيقتيها بمادة طيبة لمشاغبتهما.

« أختنا هي الوحيدة التي لم تسمع الصفارات؟ ياه، كم هذا مضحكاً»:

قالت الشقيقة الصغرى مقتفية إثر الأخرى:

« يا سلام، لقد استيقظت على الفور، وسمعت غطيط شقيقتي عالياً».

« هذا صحيح وأنا أيضاً سمعتها، كانت تغط عالياً حتى أنه صعب عليّ أن أسمع الصفارات ».

« هذا ما تقولانه، لكن لا يمكنكما اثباته »، ولأني كنت حاضراً فقد اكتسى وجه « سونوكو » بحمرة عميقة، وتقطب جبينها. «إذا كنتم تكذبون هكذا، فسوف تندمون فيما بعد ».

كانت لي شقيقة واحدة ، ومنذ الطفولة كنت أحن إلى أسرة حية بشقيقات كثيرات، وفي أذني كانت هذه المشاجرة الصاخبة المازحة، بين الشقيقات انعكاساً لسعادة دنيوية حقيقية، وقد أيقظت عذابي أيضاً.

كان الموضوع الوحيد للمناقشة أثناء الافطار هو الانذار بالغارة الجوية التي كانت الأولى من نوعها منذ أوائل مارس، ولأنه لم تكن هناك سوى صفارة تحذير، ولم تسمع صفارة الهجوم الفعلي، هدأ الجميع معتقدين أن ما حدث لم يكن على جانب من الأهمية ، أمّا بالنسبة لي فلم يكن يهمني الأمر من جانبيه، قلت لنفسي: إنـه حـتى لو كان منزلي قد احترق حتى أساسه وأنا بعيد، ولو أن أمي وأبي وشقيقتي قتلوا جميعا، فسوف يكون ذلك بالنسبة لي أمراً لا بأس به.

لم يكن يبدو ذلك أمامها، تفكيرا باردا ، ففي تلك الأيام أملقت ملكاتنا التخيلية بفعل حقيقة مؤداها أن أغرب حدث يمكن تخيله قد يقع في أي لحظة بالفعل كشيء طبيعي. وكان من الأسهل أن يتصور المرء فناء عائلته بكاملها عن

أن يتصور أشياء هي الآن من الماضي البعيد والمستحيل، كمجموعة من زجاجات الخمور المستوردة في احدى واجهات « جنزا » الزجاجية، مثلا أو مشهد لافتات النيون تلمع في سماء الليل فوق «جنزا». نتيجة لذلك اقتصر خيالنا على المسالك الأسهل، ومثل هذا الخيال الذي يتبع المسالك الأقل وعورة، لا صلة له ببرودة القلب، مهما بدت قاسية. إنه ليس سوى نتيجة لعقل كسول خامد.

وعلى النقيض من الدور المأساوي الذي وضعت نفسي فيه ليلا، فعندما غادرنا الفندق في الصباح التالي، أردت على الفور أن ألعب دور الفارس المبتهج الفؤاد وأحمل حقيبة « سونوكو » وكان أيضاً بهدف إحداث تأثير يراه الجميع، وقلت لنفسي إني إذا أصررت على حمل حقيبتها فسوف تعترض، بمجرد شعورها بالتحفظ إزائي ، ولكن أمها وجدتها سيحسبان أننا على علاقة ودية، سوف تفسران ترددها على أنه خوف مما يمكن أن تظناه بها، نتيجة لذلك فسوف تسقط بدورها في شرك الادراك الواضح لشعور بالتقارب معي بما يكفي لجعلها تخشى أمها وجدتها.

وانطلت حيلتي الصغيرة ، ظلّت بجانبي كما لو أن إئتمانها اياىّ على حقيبتها أعطاها مبرراً معقولا، لأن تفعل ذلك، ورغم أن ابنة « أوهبا » كانت صديقة من نفس العمر فلم تهتم بها « سونوكو » وكان صوتها، البالغ العذوبة والنقاوة لدرجة تصيبني بنوع من الحزن، كانت تبدده الريح المحملة بالأتربة في أوائل الربيع، والتي كانت تهب في وجوهنا مباشرة.

رفعت كتفي وخفضته وازناً ثقل حقيبتها، ولم يكن وزنها يكاد يبرر الشعور الذي كان ينمو عميقاً داخل قلبي، شعور ضمير آثم لهارب من العدالة.

ولدى بلوغنا مشارف المدينة بدأت جدة « سونوكو » تشكو من المسافة ، وعاد المصرفي أدراجه إلى المحطة، حيث لا بدّ وأنه استخدم حيلة بارعة ليحصل على العربتين اللتين جاء بهما الينا، فقد كانت العربات نادرة في تلك الأيام.

« أهلا. . . يا له من وقت طويل! »

صافحت « كوزانو » وأذهلني أني شعرت وكأني أمسك بسرطان بحري.

« يدك، ماذا أصابها؟ »

ضحك كوزانو « أنت مندهش، أليس كذلك؟ »

كان جسمه قد اكتسب بالفعل ذلك الشقاء الخالي من الروح الذي يتميز به المجند الجديد، مد يديه إلّي لأرى وقد جعلهما متجاورتين ، كانتا مشققتين بشكل سيىء، وقد تسرّب الوسخ والزيت المتيبسان مسحوقين داخل ما بهما من الشقوق والخدوش والقروح حتى صارتا تشبهان حقا صدفة السرطان البحري . كانتا أيضاً رطبتين وباردتين. .

أفزعتني يداه كما أفزعتني الحقيقة، شعرت برعب غريزي من هاتين اليدين، ما كنت أخافه فعلاً كان شيئاً بداخلي، كشفت عنه هاتان اليدان المتهورتان، شيئا تتهمني اليدان وتدينانني بسببه، كان ذلك هو الخوف من ألاّ استطيع أن أخفي شيئاً عنهما وأن كل الخداع لا يجدي معهما، وعلى الفور أصبح لـ«سونوكو» مغزى جديداً لديّ وكانت درعي الوحيدة، قميص الزرد الوحيد لضمير متهافت وهو يناضل ضد هاتين اليدين.

صوابا كان أم خطأ، بوسيلة طيبة أو بوسيلة شريرة، قلت لنفسي لا بدّ أن تحبها، وأصبح هذا الشعور أشبه بالزام أخلاقي لي، ترسّب في عمق قلبي، بأثقل حتى من شعوري بالاثم.

قال « كوزانو » ببراءة دون أن يدري شيئاً من كل هذا. «لا تحتاج إلى رقعة غسيل وأنت في الحمام، ما دامت لديك يدان كهذين تحك بهما جسمك. »

وندّت عن شفتي أمه تنهيدة صغيرة في موقفي هذا، لم أستطع إلاّ أن أشعر كالضيف الوقح الذي جاء دون دعوة. تصادف أن « سونوكو » تطلّعت نحوي، تدلىّ رأسي ورغم سخف شعوري، فقد كنت أحس بضرورة أن أسألها المغفرة لسبب ما.

قال « كوزانـو» وهو يدفع جدته وأمه في ظهريهما بخشونة ، شاعراً بالحرج: « لنمـض إلى الخارج ». .

جلست كل أسرة في دائرة فوق العشب الميت بفناء الثكنة الكئيب وكرّمت كل منها ابنها الجندي بوليمة، ويؤسفني أن أقول إنه مهما تطلّعت، لم أستطع أن أجد جمالا في المشهد.

وسرعان ما شكلنا نحن أيضاً دائرتنا، « وكوزانو » يجلس في وسطها وقد وضع ساقا على ساق، كان يحشو فمه بحلوى من نوع غربي، ولم يكن بوسعه إلاّ أن يومىء بعينيه وهو يريد أن يلفت انتباهي إلى السماء وجهة طوكيو من منطقة

التلال التي كنا بها. أمكنني أن انظر عبر الحقول الذابلة إلى الحوض الذي تتمدد فيه مدينة « م » ووورءاها كان بوسعي أن أنظر من فرجة بين سلسلتين من الجبال المنخفضة إلى ما قال عنه « كوازانو » إنه سماء طوكيو، كانت السحب الباردة للربيع المبكر تنشر ظلالها فوق تلك المنطقة البعيدة.

كانت السماء حمراء برّاقة هناك في الليلة الماضية. كان شيئا مخيفا ــ لم يكن بوسع أحد أن يعرف ما إذا كان منزله لا يزال قائمًا أم لا.

« لم يحدث من قبل أبداً أن صارت السماء حمراء هكذا بسبب غارة جوية »...

لم يتحدث أحد .. مضى « كوزانو » يثرثر بأهمية، شاكياً من أنه ما لم تنقل أمه وأسرته إلى الريف بأسرع ما يمكن فإنه لن يتمكن من النوم ليلة كاملة أبداً.

قالت الجدة بحماس « أوافقك سوف ننتقل في الحال، أعدك » وأخرجت من زنارها قلم رصاص من الفضة لا يزيد حجمه عن الخلال، وبدأت تدوِّن شيئاً ما بعناية فائقة.

في رحلة العودة كان القطار يفيض كآبة، حتى السيد « أوهبا » الذي قابلناه في المحطة حسب الموعد، بدا شخصاً مختلفا، وأمسك لسانه، بدا أن الجميع أسرى ما يُعرَف عموماً باسم حب الذي من لحمك ودمك، وبدا كما لو أن العواطف التي يتبعها المرء والمخبوءة بالداخل، قد برزت للخارج، مسببة ألماً شديداً بقسوتها. لقد التقوا بابنائهم، باشقائهم، باحفادهم، وكشفوا عن قلوبهم عارية، هذا كل ما كان عليهم ان يكشفوا عنه، والآن فوق كل هذا فربما كانوا قد أدركوا أن ذلك كله لم يكن إلاّ سكباً عقيما للدماء أمام بعضهم البعض، إمّا بالنسبة لي فقد كانت لا تزال تطاردني رؤية اليدين الجديرتين بالرثاء. اقترب وقت الغسق وقت اضاءة الأنوار، عندما وصل قطارنا إلى المحطة على مشارف طوكيو حيث كان علينا أن ننتقل إلى قطار علوي.

وهنا واجهنا لأول مرة الدليل الثابت على الدمار الذي حدث في الغارة الجوية في الليلة السابقة، كان الممشى فوق الخطوط الحديدية، مليئاً بضحايا الغارة. كانوا ملفوفين بالبطاطين حتى لم يعد المرء يرى سوى أعينهم أو بالأحرى لا شيء سوى محاجرهم، فقد كانت عيونا لا تدري ولا تفكر، كانت هناك أم

بدا أنها تنوي أن تهدهد الطفل الذي في حجرها إلى الأبد، دون أن تغير، شعرة واحدة من طول القوس الذي كانت تميل خلاله بجسمها للخلف وللأمام، كانت فتاة نائمة، مستندة إلى قطعة من سلال المتاع، وهي لا تزال تضع على رأسها زهوراً صناعية مسفوعة.

وبينما كنا نمضي على امتداد الممشى لم يلق أحد علينا ولو نـظرة لوم، تجاهلونا، انمحى وجودنا ذاته بفعل حقيقة أننا لم نشارك في تعاستهم، بالنسبة لهم لم نكن أكثر من ظلال.

ورغم هذا المشهد اشتعل شيء ما بداخلي، شجعني وقوّاني عرض البؤس الذي يمر أمام ناظري، كنت أمر بنفس الاثارة التي تسببها ثورة، لقد شهد هؤلاء التعساء في الحريق التدمير الكامل لكل دليل على وجودهم البشري. فقد رأوا أمام أعينهم العلاقات البشرية، والحب والكراهية، والعقل، والملكية كل ذلك نهباً للنار، في ذلك الوقت لم يكونوا يكافحون النيران، بل كانوا يكافحون العلاقات البشرية، يكافحون الحب والكراهية، والعقل، والملكية. في ذلك الوقت كانوا كطاقم سفينة غارقة، فقد وجدوا أنفسهم في موقف يُسمَح فيه بأن تقتل شخصا لكي يعيش آخر. فالرجل الذي مات وهو يحاول انقاذ محبوبته لم تقتله النيران بل قتلته محبوبته ولم يكن سوى الطفل هو الذي قتل أمه، حياة مقابل حياة، ربما يكون هو الأكثر شمولا وجوهرية بين كل ما واجهه النوع البشري.

رأيت في وجوههم آثار ذلك الارهاق الذي تخلفه مشاهدة دراما مبهرة. تدفق داخلي، نوع من الشعور الساخن بالثقة، ورغم أن ذلك استمر ثوان قليلة فقط ، فقد شعرت أن كل شكوكي حول ما تتطلبه الرجولة قد انمحت تماماً، امتلأ صدري بالرغبة في الصياح، وربما لو كنت اغنى قليـلا من حيث فهم النفس، لو كنت أنعم بقدر اكبر قليلا من الحكمـة لمضيت إلى فحص تلك المتطلبات فحصاً وثيقاً. ولأمكنني أخيراً أن أفهم ما أعنيـه أنا حقـا، ككائن بشري. بدلاً من ذلك، فمن المثير للسخرية أن نوعاً من الوهم الذاتي جعلني أضع يدي حول خصر « سونوكو » لأول مرة وربما أظهر لي هذا الفعل، وما دفعني إليه من روح قوية حامية، أن ما يُسمَى الحب لا معنى له لديّ، وإذا كان الأمر كذلك، فقد كان فهمًا مفاجئاً للحقيقة نسيته بنفس السرعة التي جاء بها..

ومشينا أمام الآخرين، وذراعي لا تزال حول خصرها، ومررنا على عجل عبر الممشى الكئيب، ولم تتفوه « سونوكو » بكلمة..

صعدنا إلى القطار المعلّق، وبدت أضواؤه، برّاقة بشكل غريب، كان بوسعي أن أرى « سونوكو » تحدّق فيّ وبدت عيناها رغم أنهما ما تزالان سوداوين وناعمتين، وكأنهما تتوسلان بالحاح.

وعندما انتقلنا إلى خط العاصمة، كان حوالى تسعين في المائة من الركاب من ضحايا الغارة الجوية، والآن بدت رائحة النار أكثر وضوحاً، كانوا صاخبين واستعراضيين وهم يروون لبعضهم البعض الأخطار التي مروا بها، كان ذلك جمهورا متمردا بالمعنى الصحيح للكلمة، كان جمهورا ينطوي على سخط مشع، على غضب فياض، منتصر عالي الروح.

لدى الوصول إلى محطة « س » حيث كان عليّ أن افارق الآخرين أعدت إلى « سونوكو » حقيبتها وغادرت القطار، وبينما كنت أجوس خلال الشوارع الحالكة الظلمة نحو منزلي كنت أذكّر نفسي المرة تلو المرة بأن يديّ لم تعودا تحملان حقيبتها، وأخيراً أدركت الدور الهام الذي لعبته تلك الحقيبة في علاقتنا، لقد كانت أشبه بعبء صغير وبالنسبة لي فإن نقل عبء ما كان مطلوبا دائماً لكي لا يرفع ضميري رأسه عالياً باكثر مما يجب.

وعندما وصلت إلى منزلي حيتني أسرتي وكأن شيئاً لم يحدث؟ إن طوكيو في النهاية تغطي مساحة كبيرة وحتى غارة كتلك التي حدثت الليلة السابقة لم تكن تستطيع أن تؤثر عليها كلها..

بعد ذلك بعدة أيام زرت منزل « كوزانو » حاملاً عدة كتب كنت وعدت بأن أقرضها « لسونوكو »، ولم تكن بي حاجة لذكر عناوينها عندما أقول إنها من ذلك النوع من الروايات الذي يختاره شاب في العشرين لفتاة في الثامنة عشرة. وجدت لذه غير عادية في فعل الشيء التقليدي هذا، تصادف أن « سونوكو » كانت غير موجودة، ولكن عودتها كانت متوقعة، على الفور، وانتظرتها في الردهة.

وبينما كنت أنتظر، أصبحت سماء أول الربيع كثيفة الغيم، وبدأت تمطر. كان من الواضح أن « سونوكو » تعرّضت للمطر في طريق عودتها، ذلك أن قطرات من الماء كانت تلمع على شعرها عندما دخلت إلى البهو المعتم، هزّت كتفيها وجلست في العتمة على طرف الأريكة الوثيرة، ومرة أخرى انتشرت فوق شفتيها ابتسامة، كانت ترتدي سترة قرمزية، بدت منها استدارة ثدييها في العتمة الخفيفة.

كم كنا خجلين ونحن نتكلم، كم كانت الكلمات شحيحة، كانت تلك أول فرصة تيسّرت لنا على الاطلاق لنكون وحدنا معاً ، كان من الواضح أن الطريقة اللامبالية التي تبادلنا بها الحديث في رحلة القطار القصيرة تلك، كانت أساساً بسبب وجود الثرثار وراءنا والشقيقتين، واليوم لم تبق ذرة من تلك الجسارة التي جعلتني قبل أيام ، أسلمها رسالة حب من سطر واحد، مدّونة على قطعة من الورق. .

وشعرت أكثر من ذي قبل باحساس المذلّة يغمرني، كنت شخصاً لا أملك إلّا أن أكون جاداً بمجرد أن أعود إلى طبيعتي؟ لكني لم أكن أخاف أن أفعل ذلك أمامها، هل نسيت دوري؟ هل نسيت أني مصمم على الوقوع تماماً في الحب كأي شخص آخر؟ مهما كان ذلك؟ فلم يكن لديّ أدنى شعور بأني أحب هذه الفتاة المثيرة للحيوية، ورغم ذلك فقد شعرت بالاطمئنان إليها.

توقف هطول المطر ولمعت الشمس الغاربة داخلة إلى الغرفة، ولمعت عينا « سونوكو » وشفتاها، أتعسني جمالها، مذكّراً اياي بقلة حيلتي، هذا الشعور المؤلم جعل « سونوكو » تبدو أشبه بزهرة سريعة الذبول.

انطلقت فجأة أقول: « أمّا بالنسبة لنا، فمَنْ يدري كم سيطول بنا العمر، افترضي أن هناك غارة جوية هذه اللحظة ، ربما سقطت احدى القنابل فوقنا مباشرة ».

« ألا يكون ذلك رائعاً؟ » كانت جادة، كانت تعبث بثنايا تنورتها ذات النقوش الاسكتلندية المتقاطعة، وهي تطويها وتنشرها، وعندما قالت ذلك رفعت وجهها وسقط الضوء على التماع الرغبة الباهت على خديها: « أوه » ، لو أن طائرة تأتي في صمت وتقوم بضربة فوقنا مباشرة ونحن هنا على هذه الصورة، ألا ترى ذلك؟ لم تكن تدرك أنها تعترف بالحب. .

همم « . . نعم، يكون ذلك رائعاً »، قلت ذلك بلهجة التخاطب، ولم يكن من المحتمل أن تدرك « سونوكو » كم كانت الاجابة عميقة الجذور في رغباتي السرية، وعندما أعيد التفكير في هذا الأمر الآن، يبدو لي الآن هذا الحوار فكاهياً للغاية، كانت محادثة يمكن، في وقت السلم، أن تدور بين شخصين غارقين في الحب.

لقد مللت حقا الفراق بسبب الموت أو بسبب الانفصال الأبدي، قلت

ذلك متخذاً لهجة السخرية لأغطي على شعوري بالحرج. « ألا تشعرين أحياناً، أن الانفصال هو الطبيعي وأن اللقاء هو المعجزة؟... وأنه، عندما تفكرين في الأمر، قد يكون شيئاً معجزا حقاً أن نتمكن حتى من اللقاء، والحديث معاً هكذا لبعض الوقت؟ ».

« نعم، إني أيضا.. » بدأت تتحدث ببعض التردد، ثم مضت برصانة جادة وإنْ كانت محببة: « ولكني الآن وأنا أفكر أننا قد بدأنا لتوِّنا نتلاقى فيها نحن على وشك الانفصال، الجدة تتعجل الرحيل، بمجرد وصولنا إلى البيت قبل أيام، أبرقت إلى عمتي في قرية« ن » بمنطقة « ن » تطلب منها أن تجد لنا منزلا ، وقد اتصلت عمتي تليفونيا لتقول إنه لا توجد منازل للايجار مهما بحثنا، وهكذا فقد طلبت منا أن نذهب للاقامة في منزلها. قالت إنه يسعدها أن نقيم معها لأننا سنجعل منزلها أكثر بهجة، وعقدت الجدة العزم فوراً وقالت إننا قادمون خلال يومين أو ثلاثة ».

لم أستطع أن أجيب فوراً. كان الألم الذي شعرت به في قلبي حاداً لدرجة أذهلتني أنا. الطمأنينة التي كنت أحسها مع سونوكو أوهمتني وجعلتني أعتقد أننا سنقضي كل أيامنا معا، وأن كل شيء سيبقى على ما هو عليه، وبمعنى أعمق فقد كان وهما مزدوجا، الكلمات التي نطقت من خلالها بالحكم علينا بـالانفصال أعلنت فراغ لقائنا الراهن من المعنى، وكشفت عن أن شعوري الراهن هو سعادة عابرة وفي الوقت ذاته فيما دمرت الألفاظ الوهم الطفولي للاعتقاد بأن هذا باق للأبد، فقد فتحت عيني أيضاً على حقيقة أنه، حتى لو لم يكن هناك فراق، فلا يمكن أبداً أن تبقى أي علاقة بين فتى وفتاة كما كانت تماماً.

كانت يقظة موجعة، لماذا كانت الأشياء بهذه الصورة الخاطئة التي كانت عليها؟ الأسئلة التي طرحتها على نفسي مرات لا تُحصَى، منذ الطفولة، طفت من جديد على شفتي، لماذا يثقلنا جميعاً واجب تدمير كل شيء؟ تغيير كل شيء؟ أن نحكم على كل شيء بأن يكون مؤقتا؟ هل هذا الواجب غير السار هو ما يسميه العالم حياة؟ أم أني أنا الوحيد الذي يعد ذلك واجبا عليه؟ على الأقل، لم يكن هناك شك في أني الوحيد الذي يعتبر الواجب عبئا ثقيلا.

وأخيراً تكلمت: « إذن فأنت راحلة... ولكن، بالطبع، حتى لو كنت هنا، أنا نفسي يمكن أن أرحل قبل وقت طويل... »

« إلى أين أنت ذاهب؟ »

« قرروا ارسالنا للعمل في أحد المصانع مرة أخرى ابتداء من هذا الشهر أو في ابريل ».

« ولكن المصنع ــ سيكون ذلك خطيرا، بسبب الغارات وكل ذلك ».

« نعم، سيكون خطيراً»، أجبت مفعمًا باليأس، واستأذنت بأسرع ما استطعت.

طوال اليوم التالي كنت أشعر بالخلو من الهموم لأني أُعفيت من الالتزام بأن أحبها، كنت مرحاً أغني بصوت عال، وأنا أزيح بقدمي « الخلاصة الوافية » للقوانين المثيرة للاشمئزاز.

واستمرت هذه الحالة العقلية المنتشية طوال اليوم. وليلتها نمت كالطفل ثم استيقظت فجأة على صوت صفارات الانذار تنشر صفيرها في كل اتجاه في الليل. ومضى أهل البيت جميعاً إلى الملاجىء متذمرين، ولكن لم تظهر أي طائرات وسرعان ما دوّت صفارة الأمان. ولأني أغفيت في الملجأ فقد كنت آخر من صعد إلى سطح الأرض وخوذتي وكانتين طعامي يتدليان من فوق كتفي.

طال شتاء ١٩٤٥، ورغم أن الربيع كان قد حلّ فعلاً بخطوات متلصصة كالفهد، بقي الشتاء محيطاً به كالقفص، يسد طريقه بعناء أشيب، وكان الثلج لا يزال يومض تحت ضوء النجوم.

من خلال أوراق شجرة دائمة الخضرة التقطت عيناي اليقظتان عدة نجوم كانت تبدو مضيئة ودافئة. اختلط هواء الليل القاطع بأنفاسي ، وفجأة تملكتني فكرة أن أحب « سونوكو » وأن عالماً لا أعيش فيه أنا « وسونوكو » لم يكن يساوي خردلة بالنسبة لي، وقال لي شيء بداخلي إنْ كان بوسعي أن أنساها فالأفضل أن أفعل ذلك، وعلى الفور وكأنه كان راقداً ينتظر، غمرني ذلك الحزن الذي دمّر أسس وجودي، مرة أخرى، تماماً كما حدث يوم رأيت « سونوكو » تهبط من الدرج إلى الرصيف.

كان الحزن لا يُطاق، ضربت الأرض بقدمي. لكني تماسكت يوما آخر.

ثم لم أعد أحتمل فذهبت لرؤيتها ، كان الحمالون يعملون خارج الباب الأمامي مباشرة، وهناك فوق الحصى كانوا يحاولون لف احبال من القش حول

شيء أشبه بخزانة مستديرة ملفوفة بحصيرة من القش . ملأني المشهد بالجزع.

كانت الجدة هي التي جاءت لمقابلتي في المدخل، وكان بوسعي أن أرى وراءها أكواماً مما تمّ حزمه انتظاراً لحمله إلى الخارج. كان المدخل مليئاً بنفاية القش، وعندما لاحظت ما بدا على الجدة من ارتباك، قررت أن أمضي دون مشاهدة « سونوكو ».

« أرجو اعطاء هذه الكتب للآنسة « سونوكو»، قلت مثل صبي يعمل لدى بائع الكتب جئت محملا، مرة أخرى، بعدة روايات معسولة.

« شكرا جزيلا على كل ما صنعت » قالت الجدة دون أن تبدر عنها حركة لمناداة « سونوكو »،« قررنا الرحيل إلى قرية « ن » مساء غد . تم كل شيء دون أية متاعب، وهكذا نستطيع الرحيل بأبكر مما خططنا ».

«استأجر السيد « ن » هذا المنزل لاقامة موظفيه. من المحزن حقاً ان نقول وداعاً لقد سعد كل الأطفال بمعرفتك ، فأرجوا أن تأتي لزيارتنا في قرية « ن » أيضاً . سنرسل إليك عندما نستقر، فلا بدّ إذنْ أن تأتي لزيارتنا ».

كان باعثاً على السرور أن تستمع إلى حديث الجدة الدقيق والاجتماعي، ولكن كلماتها، تماماً كسحنتها المزيفة المتقنة التشكيل، كانت سبكا متقنا لمادة غير عضوية.

« آمل أن تظلوا جميعاً بخير» كان هذا كل ما استطعت أن أقول ، لم أستطع أن أحمل نفسي على النطق باسم « سونوكو ».

ثم، وكأن ترددي استدعاها، ظهرت « سونوكـو » في البهو عنـد أسفل الدرج، كانت تحمل صندوق قبعات من الورق المقوى في إحدى يديها، وكتباً في اليد الأخرى.

كان شعرها متوهجاً، في الضوء الداخل من نافذة علوية، وعندما رأتني صرخت، مفزعة جدتها:

« انتظر دقيقة ارجوك ».

عادت تركض صاعدة الدرج، ووقع أقدامها يرن صاخباً. انتشيت وأنا أشاهد دهشة جدتها لأنها جعلتني أدرك كَمْ تحبني « سونوكو ». اعتذرت السيدة

العجوز قائلة، إن البيت في حالة فوضى، ولا محل فيه لاستقبالي، ثمّ اختفت بهيئتها المشغولة داخل المنزل.

وسرعان ما عادت « سونوكو » نازلة على عجل. كان وجهها شديد الحمرة. ارتدت حذاءها دون أن تقول كلمة، بينما وقفت أنا جامداً في أحد اركان المدخل، ثم نهضت وقالت إنها ستصحبني حتى المحطة، كانت هناك قوة في النغمة العالية الآمرة في صوتها هي التي حركتني، ورغم أني واصلت التحديق فيها وأنا ألف قبعتي الرسمية في يدي بحركة ساذجة، فقد كان في قلبي شعور كما لو كان كل شيء تجمّد فجأة..

خرجنا من الباب ونحن متقاربان ، ومشينا في صمت على امتداد الممر المفروش بالحصباء حتى البوابة.

وفجأة توقفت « سونوكو » لتحكم رباط حذائها، وبدا أن ذلك استغرق منها وقتاً طويلا بشكل غريب، فمضيت إلى البوابة وانتظرت، وأنا أنظر خارجاً إلى الشارع، لم أدرك أنها كانت تريدني أن أسبقها قليلا، وأنها استخدمت هذه الطريقة الساخرة لفتاة في الثامنة عشرة لهذا الغرض بالذات.

وفجأة، من ورائي، شدت يدها كم ردائي الرسمي، كانت الصدمة التي شعرت بها كأن سيارة صدمتني وأنا أمشي شارد الفكر.

« ... أرجوك ... هذا... »

لمس ركن ظرف جاف من النوع الأجنبي باطن يدي، أطبقت عليه سريعاً حتى كدت أسحقه، تماماً كما يمكن أن يخيف المرء عصفوراً وليدا ، ولسبب ما لم أستطع أن أصدق حواسي وأنا أشعر بثقل الخطاب في بدي. لكنه كان هناك ، ظرف من النوع الذي تفضله فتيات المدارس، أطبقت عليه يدي باحكام . اختلست النظر إليه كأنه شيء لا يجب النظر إليه.

« ليس الآن ــ اقرأه بعد العودة إلى البيت » همست بصوت خافت ومختنق، كأن أحداً دغدغها:

سألت « إلى أين أرسل الرد؟ »

« كتبت ذلك ــ إنه بالداخل ــ العنوان في قرية « ن » أرسلْ إلى هناك ».

إنه أمر مسلٍ ، لكن الفراق، أصبح، فجأة، مبهجاً لي، كان كمسرة تلك

اللحظة في لعبة « الغميضة » عندما يعد الشخص المغمض، ويجـري الجميع ليختبئوا كل في الاتجاه الذي يرضيه. كانت لديّ قدرة غريبة على الاستمتاع بكل شيء بهذه الطريقة، وبسبب هذه الموهبة الشاذة كان جبني يُفهَم خطأ، حتى من جانبي، على أنه شجاعة.

افترقنا عند بوابة التذاكر بالمحطة، دون حتى أن نتصافح.

كنت منتشياً بتلقي خطاب حب في حياتي، لم أستطع الانتظار، حتى أعود إلى البيت لأقرأه، وفتحت المظروف هنا في العربة العالية، غير مبالٍ بكل العيون. وعندما فعلت ذلك كادت المحتويات أن تتبعثر. كانت هناك عدة بطاقات « سيلويت » وخرقة من البطاقات البريدية الملونة المستوردة التي يبدو أن تلاميذ مدارس الارساليات مولعون بها، ومن بين هذه ورقة زرقاء مزدوجة، مزينة برسم من رسوم ديزني لذات الرداء الأحمر والذئب.. وتحت الرسم كانت رسالتها مكتوبة بحروف دقيقة تبدو عليها البراعة والدقة..

« غمرني الامتنان حقا لتعطفك باقراضي الكتب. شكراً لك، تمكنت من قراءتها باهتمام عميق، وأدعو من قلبي أن تكون بخير، حتى خلال الغارات الجوية، وعندما أصل إلى وجهتي وأستقرّ سأكتب إليك ثانية، وعنواني موضح بأسفل ، والمحتويات أشياء لا قيمة لها، ولكن أرجوك أن تقبلها كتعبير عن امتناني ».

يا لها من رسالة حب رائعة، لقد اخترقت فقاعة نشوتي. صرت شاحباً كالموتى ثمّ انفجرت ضاحكاً.

مَنْ يردّ على خطاب كهذا؟ . سألت نفسي. إن ذلك عملا غبيا كالرد على خطاب شكر مطبوع.

ولكنني كنت أشعر من البداية برغبة في أن أرسل رداً، والآن في الثلاثين أو الأربعين دقيقة الباقية حتى العودة إلى البيت، نهضت هذه الرغبة للدفاع عن « حالة النشوة » الأولى التي مرّت بي في حياتي، وقلت لنفسي على الفور إن التدريب الذي تتلقاه في البيت يكاد لا يصلح لمنحها الكفاءة في كتابة رسائل الحب، لأنه من الطبيعي أن تشل يدها كل أنواع الشكوك، والتردد والخجل، وهي تكتب أول رسائلها إلى فتى، لأن كل حركة قامت بها بعد ظهر اليوم كشفت عن قصة أكثر صدقاً من هذا الخطاب الفارغ.

ولدى وصولي إلى البيت، تملكني غضب مفاجيء من مصدر مختلف. مرة أخرى نظرت شذرا إلى « الملخص الوافي للقوانين » وضربت به جدار الحجرة. يا لك من كسول: أنبّت نفسي. عندما تكون وجهاً لوجه مع فتاة في الثامنة عشرة فإنك تنتظر، بكل نهم، وقوعها في غرامك، فلماذا لم تبادر أنت؟ أعرف أنك تتردد بسبب قلقك الشاذ هذا؟ الذي لا تعرف من أين يأتي، لكن إذا كانت هذه هي الحالة، فلماذا زرتها ثانية؟ فكر ثانية: عندما كنت في الرابعة عشرة كنت صبياً كالآخرين. بل وأنت في السادسة عشرة أيضاً كنت مماثلاً لهم على الاجمال. ولكن ما الأمر الآن، وأنت في العشرين؟ لقد قال لك ذلك الصديق إنك ستموت في التاسعة عشرة، ولكن نبوءته لم تصدق، ثم فقدت حتى رغبتك في أن تموت، والآن وأنت في العشرين فقدت عقلك بغرام عجول مع فتاة في الثامنة عشرة لا تعرف شيئاً على الاطلاق، أوف! يا له من تقدم رائع! في سن العشرين تفكر بخطط لتبادل رسائل الغرام للمرة الأولى ـ أليس من المحتمل أن تكون أخطأت في حساب عمرك؟ أوليس صحيحا أيضاً أنك لم تقبّل في حياتك فتاة حتى الآن، يا لك من نموذج محزن للنوع!

ثم راح صوت آخر يسخر مني. كان هذا الصوت مملوءاً بنزاهة تكاد تكون محمومة، بشعور انساني لم أجربه من قبل مطلقا. راح يمطرني بالأسئلة السريعة التتابع: هل الحب هو ما تشعر به؟ إنْ كان ذلك، فلا بأس. ولكن هل لديك رغبة في النساء؟ ألا تخدع نفسك عندما تقول إنها الوحيدة التي لم تشعر تجاهها بـ « رغبة شهوانية »؟ ألا تحاول أن تخفي عن نفسك حقيقة أنك لم تشعر بالفعل بأية « رغبة شهوانية » تجاه أي امرأة على الاطلاق؟ بأي حق تستخدم كلمة « شهوانية »؟ هل كانت لديك أبداً أدنى رغبة في أن ترى امرأة عارية؟ هل تخيلت « سونوكو » أبداً وهي عارية؟ أنت، بهوسك الخاص بتحديد أوجه الشبه بين الأشياء ـ لا بدّ أنك قد خمّنت شيئاً واضحا من قبيل الحقيقة القائلة بأن فتى في مثل سنك لا يستطيع أبداً أن ينظر إلى فتاة دون أن يتخيل كيف يمكن أن تبدو وهي عارية. اسأل نفسك بأمانة لماذا أقول لك ذلك ـ استمر، واعقد مقارنتك ـ سوف يتعين عليك أن تغيرّ تفصيلة واحدة فقط لتفهم كيف يشعر الفتيان الآخرون. بالأمس فقط، ألم تنغمس في عادتك الصغيرة قبل النوم؟ سمِّها شيئا مثل الصلاة إذا شئت. قلْ إنها مجرد واحدة من الطقوس الوثنية الصغيرة التي يمارسها الجميع ـ طيب. حتى البديل ليس كريهاً ما دمت قد اعتدته، خاصة عندما تجد أنه دواء سريع التأثير منوم سريع التأثير هكذا. ولكن تذكّر أنها لم تكن صورة

« سونوكو » التي تجسّدت في عقلك الليلة الماضية. مهما كانت، فقد كان خيالك غريباً وغير طبيعي بما يكفي لكي يذهلني أنا الذي اعتدت مراقبتك وأنا بجوارك.

خلال النهار تجوب الشوارع ولا ترى أحداً سوى البحّارة والجنود. إنهم الشبان بالنسبة لك ــ السر الذي تحبه بالضبط، لوّحتهم الشمس جيداً ، شفاههم غير متوترة، ، ولا تلوح عليهم أدنى بادرة للثقافة وكلما رأيت واحداً منهم تفحّصته بعينيك. واضح أنك تنوي أن تعمل خيّاطا عندما تتخرّج من كلية الحقوق ــ هل هذا هو الأمر؟ إنك شديد الولع بالجسد الغض لشاب بسيط في حوالى العشرين، جسد يشبه جسد الشبْل، أليس كذلك؟ كَمْ من هؤلاء الشبان نزعت عنهم ملابسهم، في الخيال، بـالأمس؟ إن خيالـك يشبه واحـدة من تلك الحقائب المستخدمة في جمع العينات النباتية. وفي هذه الحقيبة تجمع الأبدان العارية للفتيان الذين تراهم خلال النهار، ثمّ عندما تعود إلى البيت وتأوي لفراشك تختار من مجموعتك الضحية الشعائرية لاحتفالك الوثني، إذْ تنتقي واحداً أثار خيالاتك الخاصة. وما يلي ذلك مقرر تماماً:

تقود ضحيتك إلى عامود سداسي غريب مخفياً وراءك حبلاً ــ تربط جسده العاري بالعامود مستخدماً الحبل، وتمد ذراعيه فوق مستوى رأسه. تصر على أن يبدي مقاومة شديدة، وعلى أن يصرخ عاليا. تشرح للضحية بالتفصيل كيف سيكون موته القريب، وطوال الوقت تتلاعب على شفتيك ابتسامة غريبة بريئة تأخذ من جيبك سكينا حادة، وتقترب منه وتداعب جلد صدره المشدود بحد السكين، بخفة وتدليل. تندّ عنه صرخة يائسة وهو يلوي جسده محاولاً الهرب من السكين، تزأر أنفاسه بلهاث مذعور، ترتعد ساقاه وتصطك ركبتاه، تدخل السكين بطيئا في جانب صدره (هذا هو الشيء الشنيع الذي فعلته) يتقوّس جسد الضحية، مخرجاً صرخة وحيدة، مثيرة للشفقة، وتتقلص العضلات المحيطة بالجرح، تنغرس السكين بهدوء في اللحم المتموج، وكأنما تولج في غمد.. تنبثق نافورة من الدم، تنسكب خارجاً، وتفيض إلى أسفل على فخذيه الناعمين.

والمتعة التي تشعر بها في هذه اللحظة هـي شعور انساني حقيقي. أقول ذلك لأنه في هذه اللحظة بالذات تكتسب العـادة التي أنت مهووس بها. مهما اتخذت خيالاتك من أشكال، فانك تُستثارُ جنسياً إلى إعمال كيانك الجسدي، وهذه الاثارة طبيعية تماماً، لا تختلف ذرة واحدة عن الاثارة التي يشعر بها غيرك

من الرجال. يرتجف عقلك تحت وطأة الاثارة الغامضة البدائية. يتجدد في صدرك ميلاد الفرحة العميقة لشخص همجي. تومض عيناك، يلتهب الدم في كل جسدك، وتفيض بذلك التعبير عن الحياة الذي تعبده القبائل الهمجية. وحتى بعد القذف، تبقى في جسدك انشودة مسرة وحشية محمومة، لا يهاجمك ذلك الحزن الذي يعقب مجامعة المرأة. تتوهّج بوحدة داعرة. وللحظة قصيرة تطفو فوق ذكرى نهر هائل قديم. وربما بالمصادفة ، فإن ذكرى أعمق العواطف في قوة الحياة لدى أسلافك الهمجيين تتملك تماماً وظائفك ومسراتك الجنسية. ولكنك شديد الانشغال بالتظاهر بالملاحظة، أليس كذلك؟ لا أستطيع أن أفهم السبب في أنك أنت الذي تستطيع أحياناً أن تشعر باللذة العميقة للوجود الانساني، تجد من الضروري أن تنطق بمثل هذا الهراء عن الحب والروح.

استمعْ ــ ما رأيك في هذه الفكرة؟ ماذا لو قدّمت الأوبرا العظمى لأطروحة الدكتوراه العتيقة الخاصة بك في حضور «سونوكو»؟ إنها رسالة عميقة بعنوان «حول العلاقات الوظيفية بين ثنيات جذع الفتى ومعدل تدفق الدم». وباختصار، فإن الجذع الذي تختاره لحلم يقظتك يكون ناعمًا ومرنا ومتينا، وهو فوق كل شيء جذع شاب يسيل عليه الدم عبر أدق الانحناءات وهو يتدفق من الجرح الذي أحدثْه السكين. أليس ذلك صحيحا؟ ألا تختار الجذع الذي يقدم أجمل الأشكال في تدفق الدم، وأكثر طبيعية، أشكال كتلك التي يصنعها نبع متعرِّج يتدفق عبر أحد السهول، أو كالتجزيع في قطعْ بشجرة عتيقة ؟ هل بوسعك أن تنكر ذلك؟..

لم يكن بوسعي انكار ذلك؟

ومع ذلك فقد كانت قدراتي على التحليل الذاتي مكّونة بشكل يتحدى أي تعريف، كأنها طوق مصنوع من قطعة من الورق لويت مرة واحدة ثم لُصق طرفاها معاً، فما كان يبدو أنه ظاهرها هو باطنها، وما كان يبدو أنه باطنها هو ظاهرها. ورغم أن تحليلي الذاتي تجاوز محيط الطوق ببطء أكبر، إذْ أنه لم يكن يفعل شيئا عندما بلغت العشرين سوى أن يدور معصوب العينين في فلك مشاعري، ثم حمّسته الاثارة التي صحبت المراحل النهائية المدمِّرة للحرب، فإن سرعة الدورات أصبحت كافية لتجعلني أوشك أن أفقد احساسي بالتوازن تماماً. لم يكنْ هناك وقت لدراسة العلل والنتائج دراسة متأنية. ولم يكن هناك وقت

للتناقضات أو المعادلات. وهكذا واصلت التناقضات دورانها في الفلك كما كانت، وهي تحتك بسرعة لا يمكن أن تدركها عيني.

وبعد ساعة تقريباً من هذا الحال، كانت الفكرة الوحيدة التي تبقت في عقلي هي فكرة انشاء رد ذكي على رسالة « سونوكو »..

وفي نفس الوقت ازهرت شجرة الكرز. ولكن لم يبد أن أحدا لديه الوقت لمشاهدة الزهور. ربما كان تلاميذ مدرستي هم الوحيدون في طوكيو الذين توفّرت لديهم الفرصة لمشاهدة زهور الكرز. وفي طريق عودتي من الجامعة وحيداً أو مع اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء، غالباً ما كنت أتمشى تحت أشجار الكرز أو حول بحيرة « س ».

بدت أزهار الكرز جميلة بشكل غير عادي ذلك العام. لم يكن هناك أي من تلك الستائر ذات الخطوط البيضاء والحمراء، التي تُقام بين جميع الأشجار المزهرة، دون تمييز حتى صار المرء يرى فيها رداء لزهرات الكرز. لم تكن هناك اكشاك الشاي المزدحمة – ولا حشود مشاهدي الزهور أيام العطلات، ولا أحد يبيع البالونات واللعب التي على شكل طواحين الهواء، وبدلاً من كل ذلك كانت هناك فقط أشجار الكرز، تزهر في هدوء وسط الأشجار الدائمة الخضرة لتجعل المرء يشعر وكأنه يرى أجسام الزهور عارية، ولم يكن كَرَمُ الطبيعة وبذخها الذي لا غاية له يبدو بهذا الجمال الأخّاذ أبداً، كما بدا هذا الربيع. ساورني شك غير مريح في أن تكون الطبيعة قد تمكنت من اعادة قهر الأرض لصالحها، ولا شك في أنه كان هناك شيء غير عادي في اشراقة ذلك الربيع، صفرة أزهار اللفت، خضرة العشب الصبي، الجذوع السوداء الناضرة المظهر لأشجار الكرز، زهرات الكرز التي أثقلت أعالي الأشجار فأحنت الغصون – كانت هذه كلها تعكس في عيني ألواناً حية ممزوجة بالشر. وبدا الأمر حريقا لونيا..

ذات يوم مضى كان عدد منا يتمشون على الحشائش بين صفوف أشجار الكرز وشطآن البحيرة، ورحنا نناقش نظرية قانونية تافهة ونحن ماشون. في ذلك الوقت كنت مغرماً بسخرية البروفيسور « ي » وهو يلقي محاضراته عن القانون الدولي. في ذروة الغارات الجوية، كان الأستاذ، ذو الأفق الواسع، يواصل محاضراته التي لا تنتهي حول عصبة الأمم. وكنت أشعر كأني أستمع إلى محاضرة

عن الماهجونج(*) أو الشطرنج. السلام! السلام! لم يكن بوسعي أن أصدِّق أن هذا الصوت الذي يشبه الجرس والذي يدق في المدى دون انقطاع كان أي شيء سوى طنين في أذني.

وواصل «أ» حوارنا قائلا «ولكن ألا تتعلق المسألة بالطبيعة المطلقة؟ للحقوق العقابية؟» ورغم أن ذلك الشاب الريفي بدا قوي البنية إلّا أن حالة متقدمة من الرشح الرئوي أنقذته من التجنيد.

وانفجر «ب» قائلا :« دعونا ننهِ هذا الحديث السخيف» كان طالباً شاحبا، يمكنك بمجرد النظر إليه أن تتبين أنه يعاني من مرض السل.

ضحكت ساخرا «طائرات العدو في الجو. والقانون على الأرض، أووف» ومضيت قائلا:« هل هذا هو المقصود بالمجد في الأعالي والسلام على الأرض؟ »(**)..

كنت أنا الوحيد الذي لا يعاني من اضطراب رئوي حقيقي. وبدلًا من ذلك فقد كنت أتظاهر بمرض القلب. في تلك الأيام كان لا بدّ لك من الميداليات أو الأمراض.

وفجأة استوقفنا صوت شخص يسير قريباً منا فوق العشب، تحت شجرات الكرز. وبدا أن ذلك الشخص قد اضطرب أيضاً بسبب اضطرابنا. كان شابا يرتدي ملابس عمل مغبرة وقبقابا خشبيا. ولم يكن بوسعك أن تعرف أنه شاب إلّا من لون شعره القصير الذي يُرَى تحت طاقيته العسكرية، وقد كان واضحا من بشرته الطينية وذقنه الخفيفة الشعر ويديه وقدميه الملوثين بالزيت. كان واضحاً من كل هذا ارهاق بائس لا يناسب عمره.

ووراء الفتى وقفت فتاة تحدِّق في الأرض وهي بادية العبوس. كان شعرها مصففاً للخلف بأسلوب بادي التسرّع والمهارة. وكانت ترتدي السترة الكاكية المنتشرة، والشيء الوحيد في هذين الرفيقين الذي بدا رائع النضارة والنظافة والجدة, كان السروال الزهري العمّالي الذي ترتديه الفتاة.

وكان من السهل على المرء أن يخمِّن أنهما عاملان مجندان في نفس المصنع

(*) لعبة صينية ـ المترجم

(**) كما جاء في الانجيل: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام. وفي الناس المسرّة ـ المترجم.

وقد التقيا هنا بموعد ، هاربين من المصنع من أجل أن يقضيا يوماً في مشاهدة الأزهار. وربما قد انزعجا عندما سمعانا خوفاً من أن نكون من رجال الشرطة. نظرا إلينا نظرة بائسة ومضيا. وبعد ذلك لم نعد نشعر بالرغبة في اطالة الحديث.

قبل أن تذهب أزهار الكرز، علّق قسم القانون محاضراته مرة ثانية، وأُرسلنا في التعبئة الطلابية، إلى ترسانة بحرية تبعد عدة أميال عن خليج « س »، في الوقت ذاته انتقلت أمي وشقيقي وشقيقتي إلى منزل جدتي (أم أمي) بضيعة صغيرة في الضواحي. وبقي فتانا الخادم، وهو تلميذ بالمدرسة المتوسطة، صغير الحجم، لكنه يتصّرف كأنه أكبر من سنه، بقي في منزلنا بطوكيو للعناية بأبي. وفي الأيام التي لم يكن فيها أرز كان الخادم يطحن فول الصويا في الهاون ويصنع عصيدة لأبي ولنفسه، كان منظرها يبدو كمنظر القيء. وكان أيضاً يستهلك في السر مخزوننا الصغير من الخضروات المخللة عندما كان أبي يغيب عن المنزل.

كانت الحياة في القاعدة البحرية رخية. كُلِّفتُ بعمل لنصف الوقت في المكتبة، وفي الوقت الباقي كنت مكلَّفاً بالاشراف على مجموعة من العمال الشبان من فرموزا لحفر نفق جانبي لإخلاء مصنع انتاج قطع الغيار. كان أولئك الشياطين الصغار في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة هم الرفاق الوحيدون لي. أعطوني دروسا في لغة فرموزا، مقابل أن أحكي لهم قصصاً خرافية. كانوا واثقين من أن آلهتهم الفرموزية سوف تنقذهم من الغارات الجوية وتعود بهم يوماً، سالمين، إلى أرض وطنهم. وكانت شهيتهم تتجاوز حدود الأخلاق. فكان صبي ماهر منهم يسرق بعض الأرز والخضر من تحت أنف حارس المطبخ، وكانوا يصنعون من ذلك أرزا مقليا بعد أن يطبخوه في كمية وفيرة من زيت الآلات. وقد رفضت المشاركة في هذه الوليمة التي كانت تفوح منها رائحة التروس.

في خلال أقل من شهر كانت مراسلتي مع « سونوكو » في طريقها لأن تكون خاصة للغاية. فكنت أتصّرف في رسائلي بجسارة لا تعرف التحفظ. وذات صباح عدت لمكتبي في الترسانة بعد أن دوَّت صفارة الأمان، لاجد في انتظاري خطابا من « سونوكو » . ارتعشت يداي وأنا أقرأه، وشعرت بجسمي مُخدَّراً قليلا. كان في رسالتها سطر كررته المرة تلو المرة مبهور الأنفاس:

« . . . إني أحنّ إليك. . . »

لقد شجعني الغياب . أعطاني التباعد أدّعاء بأني « طبيعي » أي أنني قبلت «الطبيعية» كموظف مؤقت في شركة جسدي. فالشخص الذي يفصله عنك الزمان والمكان يكتسب قيمة مجردة. ربما يكون هذا هو السبب في أنه الاخلاص الأعمى الذي شعرت به تجاه « سونوكو » ورغباتي الشاذة الحاضرة دائمًا تجاه الجسد، قد امتزجا الآن بداخلي في كتلة واحدة متجانسة، وقيداني دون حراك، عبر كل لحظة متتابعة من الزمن، ككائن انساني دون أي تناقضات.

كنت حراً. أصبحت الحياة اليومية تفيض بسعادة لا توصف. كانت هناك شائعة تقول إن العدو قد يقوم قريباً بانزال في خليج « س » وأن المنطقة التي توجد بها الترسانة سوف يتم اجتياحها، ومرة أخرى، وجدت نفسي غارقاً في رغبة عميقة في الموت، أعنف من ذي قبل. لقد اكتشفت في الموت « هدف حياتي » الحقيقي . .

في أحد أيام السبت في منتصف ابريل تلقيت اذناً بالقيام بأول اجازة منذ وقت طويل. ذهبت أولاً إلى منزلنا في طوكيو، بهدف الحصول على بعض الكتب من خزانة كتبي لأقرأها في الترسانة ثم أمضي مباشرة لقضاء الليلة في بيت جدتي في الضواحي حيث كانت تعيش أمي والآخرون. وفي الطريق، بينما كان القطار يتقدم ويتوقف بناء على اشارات الغارة الجوية داهمتني برودة مفاجئة. شعرت بدوار شديد واعياء حار ينتشر في كل جسدي. ومن تجاربي المتكررة تعرّفت على أعراض التهاب اللوز، وبمجرد أن وصلت منزل طوكيو جعلت الخادم يعد الفراش وآويت مباشرة إلى السرير.

وقبل أن يمضي وقت طويل صعد من أسفل الدرج صوت امرأة ورفّ فوق جبهتي المحمومة، سمعت شخصاً يصعد الدرج ويجتاز الطرقة. فتحت عيني قليلا ورأيت تنورة كيمونو ذي رسوم كبيرة.

« . . . ما هذا؟ يا لك من شخص كسول »

قلت «أوه. . هالو «تشاكو».

« ماذا تقصد بمجرد « أوه هالو » ونحن لم نلتق منذ خمس سنوات؟ »

كانت ابنة أسرة تربطنا بها قرابة بعيدة. كان اسمها تشييكوقد تحول إلى تشاكو الذي كنا نناديها به، وكانت تكبرني بخمس سنوات. آخر مرة رأيتها كان يوم

زفافها، ولكن زوجها مات في العالم الماضي على الجبهة، وبدأ الناس يثيرون الاشاعات حولها، قائلين إنها أصبحت سعيدة بشكل غريب. والآن أرى مدى صحة هذه الشائعات، وفي مواجهة مثل هذه الحيوية لم يكن بوسعي أن أقدم التعازي المعتادة. ظللت على صمتي المصدوم قائلاً في نفسي إنه كان يجدر بها أن تتخلّ عن الزهور الصناعية الكبيرة التي في شعرها.

« جئت اليوم لأرى تاتشان لأمر يتعلق بالعمل »، قالت ذلك مستخدمة الصيغة الأليفة لاسم والدي تاتسو. « جئت أسأل عن نقل أشيائنا لأن بابا وتاتشان التقيا قبل أيام في مكان ما، وقال له إنه يستطيع أن يوصي بمكـان مناسب لنرسل إليه أشياءنا ».

«قال العجوز إنه سيتأخر قليلاً في العودة إلى البيت اليوم. ولكن لا تهتمي ». عندما رأيت شفتيها القرمزيتين للغاية شعرت بعدم الراحة وأمسكت عن الكلام. ربما كان ذلك بسبب ما لديّ من حمى، ولكن ذلك اللون القرمزي بدا كأنه يحفر في عيني ويسبب لي صراعاً عنيفاً. «لكنك تضعين الكثير كيف يمكنك في هذه الأيام أن تستخدمي كل هذا المكياج دون أن يقول الناس في الشارع شيئا؟ »

« هل كبرت بالفعل لدرجة أنك تلاحظ مكياج امرأة؟ إنك وأنت ترقد هكذا، تشبه بالضبط رضيعاً فطموه لتوّه ».

« كم أنت مزعجة! انصرفي ».

اقتربت مني عامدة. لم أكن أريدها أن تراني بملابسي الليلية، فسحبت الأغطية حتى رقبتي. فجأة مدّت يدها وأراحت كفها على جبهتي. كانت البرودة الثلجية في يدها وهي تلامس جلدي كالطعنة ، ومع ذلك فقد كان احساسي بها طيبا.

« أنت محموم. هل قست حرارتك؟ »

«١٠٣ درجات بالضبط».

« إن ما تحتاجه هو حقيبة ثلج »

« لا يوجد ثلج ».

«سوف أتدبر ذلك»

انطلقت « تشيكو » خفيفة من الحجرة، وكماها يرفّان متلاطمين، وهبطت الدرج وسرعان ما عادت وجلست في وضع هادىء.

«أرسلت الصبي من أجل ذلك»..

«شكراً»

كنت أنظر إلى السقف. التقطت الكتاب الذي كان بجوار السرير، ومسّ كُمها البارد خدي.

«فجأة رغبت في هذين الكمين الباردين. هممت بأن أطلب منها أن تضعهما فوق جبهتي، ثم أقلعت عن ذلك. بدأت الغرفة يغشاها الغسق..

قالت « يا له من خادم بطيء ».

يدرك الشخص المحموم مرور الوقت بدقة مَرَضية وكنت أعرف أن الوقت لا يزال أبكر من أن تؤكّد أنه بطيء. بعد عدة دقائق عاودت الكلام:

« كم هو بطيء – تُرَى ماذا يفعل الصبي؟ ». صحت بعصبية: « إنه ليس بطيئا، هذا رأيي ».

« أوه أيها التعيس، إنك مضطرب. أغمض عينيك من فضلك. ولا تحاول من فضلك أن تثقب السقف بنظرات فظيعة كهذه ».

أغمضت عيني وصارت سخونة جفوني عذاباً شديداً. وفجأة شعرت بشيء يلمس جبهتي، وجاء معه نفس واهن فوق بشرتي. أدرت رأسي وندّت عني تنهيدة بلا معنى. في تلك اللحظة اختلطت أنفاسي المحمومة بأنفاسها. وغطى شفتي شيء ثقيل ولزج. تصادمت أسناننا محدثة صوتا، وخفت أن أفتح عيني لأنظر. ثم أمسكت خدي بقوة بين يديها الباردتين.

بعد لحظة انسحبت «تشيكو» مبتعدة ورفعت نفسي جزئياً. وهناك في العتمة كنا نتبادل نظرات نارية. كان معروفاً للجميع أن شقيقات «تشيكو» مستهترات، وأدركت الآن بوضوح أن نفس الدم يجري في شرايينها. ولكن كانت هناك صلة قريبة محسوسة ولا يمكن تغييرها بين العاطفة المضطرمة داخلها وبين حمى مرضي. استويت جالساً وقلت:

« مرة أخرى ».

بهذه الطريقة واصلنا قبلاتنا التي لا تنتهي، حتى عاد الصبي. وقد ظلّت تقول:

« قبلات فقط، قبلات فقط... »

لم أعرف ما إذا كنت قد شعرت بأية رغبة جنسية أثناء تلك القبلات. ومهما كان ذلك ، فما دام ذلك الذي يُدْعى التجربة الأولى هو، في حد ذاته، نوع من الشعور الجنسي، فقد يكون بلا فائدة أن تفصل في هذه الحالة. فلم يكن مجدياً أن أحاول أن أفرز العنصر الجنسي المعتاد في القبلة من بين العواطف السكرى لتلك اللحظة. والشيء الهام هو أنني أصبحت « رجلا يعرف القبلات ». وطوال الوقت الذي تعانقنا فيه لم أكن أفكر سوى في « سونوكو » تماماً كصبي قُدِّمت له بعض الحلوى اللذيذة بعيداً عن البيت، فاستبدّت به رغبة في أن يعطي بعضا منها لأخته الصغرى. منذ تلك اللحظة كانت كل أحلام يقظتي مركّزة على فكرة تقبيل سولوكو. كان ذلك خطأي الأساسي والأكثر خطورة.

ولكن مع استمرار تفكيري في « سونوكو » صارت هذه التجربة الأولى تبدو لي قبيحة بالتدريج. وعندما اتصلت بي « تشيكو » في اليوم التالي تليفونيا، كذبت عليها قائلاً إني سأعود إلى الترسانة فوراً. ولم أحافظ حتى على موعدنا المضروب. تعاميت عن حقيقة أني شعرت ببرود غير طبيعي تجاهها لمجرد أني لم أجد أية متعة في تلك القبلات، وأكّدت لنفسي أن القبلات بدت قبيحة فقط، لأني أحب « سونوكو ». كانت هذه أول مرة أستخدم فيها حبي « لسونوكو » تبريراً لمشاعري الجسدية.

تبادلت أنا و« سونوكو » الصور كأي فتى وفتاة في حبهما الأول. كتبتْ إليّ تقول إنها وضعت صورتي في مدلاة وعلّقتها على صدرها. ولكن الصورة التي أرسلتها إليّ كانت كبيرة حتى أنها لم تكد تدخل إلاّ في محفظة. وحيث أني لم أستطع أن أحملها في جيبي، فقد وضعتها في حقيبة من قماش، وخوفاً من أن يحترق المصنع والصورة فيه، كنت آخذها معي كلما عدت إلى البيت.

في ذات الليلة كنت في القطار عائداً إلى الترسانة عندما دوّت صفارات الانذار وأطفئت الأنوار. وبعد دقائق قليلة جاءت الاشارة باللجوء إلى المخابيء، بحثت فوق رف الأمتعة بيدين تتحسسان في العتمة، لكن الحزمة الكبيرة التي وضعتها فوقه كانت قد سُرِقت ، وذهبت معها الحقيبة القماشية التي تضم صورة

« سونوكو ». ولأني متطير بالغريزة، فقد أصبح هاجسي منذ تلك اللحظة أن أذهب لزيارة « سونوكو » سريعا.

تلك الغارة الجوية في ليلة الرابع والعشرين من مايو، والتي كانت مدمرة كغارة التاسع من مارس، أوصلتني إلى قرار نهائي. ربما كانت علاقتي مع « سونوكو » تتطلّب الهواء السام الذي يتنفسه هذا الركام من الكوارث، وربما كانت تلك العلاقة نوعاً من المركبات الكيميائية لا يمكن انتاجها إلّا بفعل حامض الكبريتيك..

غادرنا القطار واحتمينا بالكهوف العديدة التي حُفِرت على طول خط عند انفتاح سفوح التلال على السهل، ومن مخبئنا رحنا نرقب السماء فوق « طوكيو » وهي تتحول إلى اللون القرمزي. ومن وقت لآخر كان ينفجر شيء ما ملقياً بانعكاس على السماء، وبين السحب كان بوسعنا أن نشاهد ، فجأة سماء مخيفة زرقاء، كأنها الظهيرة. كانت سماء زرقاء فضية تبدو للحظة في هدأة الليل.

وبدت الأضواء الكاشفة العميقة كأنها مصابيح للترحيب بطائرات العدو، فهي تسقط على الجناحين اللامعين لاحدى طائرات العدو، بالضبط في منتصف شعاعين يتقاطعان للحظة، ثم تومىء لها بمودة وهي تنقلها من خيط ضوئي إلى آخر، مقرّبة ايّاها كل مرة من « طوكيو » ولم تكن النيران المضادة للطيران شديدة الكثافة تلك الأيام، فكانت الـ ب ٢٩ تصل إلى سماء « طوكيو » بكل راحة.

ولم يكن بوسع أي واحد منا أن يميز، من حيث كنا، العدو من الصديق في المعارك الجوية فوق «طوكيو». ومع ذلك فقد كان يرتفع هتاف جماعي من جمهور المشاهدين كلما تبينوا ، أمام الواجهة القرمزية، ظل طيارة تُصَاب وتسقط. وكان شباب العمال صاخبين بشكل خاص. وكان صوت التصفيق والهتاف يرن خارجاً من أفواه الأنفاق المتناثرة كأنما في مسرح. وفي حدود المشهد الذي كنا نرقبه عبر تلك المسافة، لم يظهر هناك أي خلاف جوهري سواء كانت الطائرة التي تسقط لنا أو للعدو. تلك هي طبيعة الحرب..

وبدلاً من الذهاب إلى الترسانة ، فبمجرد عودة الضوء، أخذت طريقي إلى البيت. كان عليّ أن أمشي نصف مسافة واحدة من خطوط سكك حديد الضواحي التي لم تعد تُستخدَم ، فرحتُ أنقل الخطو على امتداد قضبان الربط التي لا يزال يتصاعد دخانها، وأعبر الجسور من المعابر الضيقة نصف المحترمة.

وكلما اقتربت من البيت اكتشفت أن شيئاً لم ينج من الحريق في ذلك القسم من المدينة إلّا المنطقة المحيطة بنا، وان منزلنا لم يمس: وتصادف أن أمي وأخي وأختي كانوا يقيمون هناك في تلك الليلة، وقد وجدتهم مبتهجين بشكل مثير للدهشة برغم حريق تلك الليلة. كانوا يحتفلون بنجاتهم بتناول نوع من نشا الحبوب، التي حفروا لاستخراجها من حيث كانت مخزونة. جاءت شقيقتي العابثة ذات الستة عشر عاماً إلى غرفتي، وقالت:

« اخي مجنون بانسانةٍ معينة، أليس كذلك؟ »

« مَنْ قال شيئا كهذا؟ »

« أعرف ذلك جيدا ».

«طيب، هل من الخطأ أن أحب شخصاً ما»

«بالطبع لا. . متى ستتزوجان؟».

كان لكلماتها صدى عميق بداخلي. كان شعوري مماثلاً لشعور الهارب من العدالة عندما يتصادف أن يقول له شخص ما، شيئاً عن جريمته، هو غير مدرك لها.

«نتزوج؟ إني حتى لا أفكر في الزواج».

« لماذا، هذا شر، أنت مجنون بانسانة ما ولا نيّة لديك للزواج منها؟ أوه، هذا مثير للاشمئزاز، الرجال شريرون حقا ».

« إنْ لم تعجلي بالخروج، فسوف أقذفك بهذه المحبرة ».

ولكن حتى بعد أن انصرفت لم أستطع أن أخرج كلماتها من عقلي. بدأت أحدث نفسي: هذا حق، يمكن أن يكون في العالم شيء يدعى الزواج والأطفال أيضاً. تُرى لِمَ نسيت ذلك، أو على الأقل تظاهرت بنسيانه. لقد كان مجرد وهم، إنه ، أقول لنفسي، إن الزواج سعادة أضأل من أن توجد مع اقتراب الحرب من الكارثة النهائية. والواقع أن الزواج يمكن أن يكون سعاد خطيرة بالنسبة لي، خطيرة بما يكفي لأن ــ مثلاــ تحرك الشعر على جسدي. . .

حثتني هذه الأفكار أيضاً على أن أعقد العزم على أمر شاذ، هو أني يجب أن أزور سونوكو في أقرب وقت. هل كان يمكن أن يكون ذلك حبا؟ ألم يكن، بدلاً

من ذلك، قريباً من ذلك الشكل الغريب والمفعم من الفضول الذي يظهره الانسان إزاء خوف يسكنه إزاء الرغبة في اللعب بالنار؟

تلقيت كثيراً من الدعوات لزيارتهم، ليس فقط من سونوكو، بل ومن أمها وجدتها كذلك. ولعدم رغبتي في الاقامة بمنزل عمتها، كتبت أطلب من سونوكو أن تحجز لي غرفة بالفندق. وقد سألت في كل فندق في قرية « ن » ولكن دون جدوى. فقد أصبح كل فندق فرعا لمكتب لاحدى الادارات الحكومية أوخصص لاحتجاز الأجانب الذين استسلمت بلادهم الآن للعدو.

فندق.. غرفة خاصة.. مفتاح.. النوافذ المسدلة الستائر.. مقاومة لطيفة. اتفاق متبادل، بدء التحرشات.. وعندئذٍ بالتأكيد، في ذلك الوقت بالتأكيد، أستطيع أن أفعلها. ولا شك أن الشعور الطبيعي سيشتعل بداخلي كالهام مقدس. ولا شك أني سأولد من جديد كشخص مختلف، كرجل كامل، وكأني تحررت فجأة من سحر روح شرير. في تلك اللحظة أكون قادرا على أن أحتضن « سونوكو » دون أي تردد بكل قدراتي، وأن أحبها بصدق. وستنمحي تماماً كل الشكوك والمخاوف وأصير قادراً على أن أقول « أنا أحبك » من أعماق قلبي. وابتداء من ذلك اليوم يكون بمقدوري أن أجوب الشوارع أثناء غارة جوية وأصيح بأعلى صوتي « هذه محبوبتي ».

الشخصية الرومانسية مشبعة بشكل خفي في العقلانية، وغالباً ما تؤدّي هذه الحقيقة إلى الفعل اللاأخلاقي المسمى أحلام اليقظة. وبعكس الاعتقاد الشائع في أحلام اليقظة ليست عملية عقلية بل الأحرى أنها هرب من العقلانية..

ولكن حلمي بالفندق كان مقضياً عليه بألاّ يتحقق، فعندما لم تعثر لي على غرفة في أي من الفنادق، كتبت « سونوكو » إليّ تكراراً تحثني على الاقامة معهم. وأخيراً وافقت. وعلى الفور انتابني شعور بالراحة التي تشبه الانهاك. ومهما حاولت أن أقنع نفسي بأن ما كنت أشعر به كان استسلاماً محبطا، فلم يكن بوسعي أن أهرب من حقيقة أنه لم يكن سوى راحة خالصة.

غادرت متوجهاً إلى قرية « ن » في الثاني من يونيه. كان كل شيء في الترسانة البحرية آنذاك قد أصبح مُهملا حتى أن أي عذر كان يكفي للحصول على ترخيص بالانصراف.

كان القطار قذراً وخاليا. لمَ يا ترى؟ كل ذكرياتي عن القطارات أثناء

الحرب، ما عدا تلك الحادثة السعيدة الوحيدة هي ذكريات بهذه التعاسة؟ وفي طريقي إلى قرية « ن » ، ومع كل هزة يهتزها القطار كان يداهمني عذاب هوس طفولي ومريض: كنت مصممًا على ألاّ أرحل دون أن اقبِّل « سونوكو » . ولكن تصميمي كان مختلفاً عن ذلك الشعور المملوء بالكبرياء الذي يأتي عندما يجاهد شخص ما لاشباع رغبته برغم الخجل. شعرت كأني ذاهب للسرقة. شعرت كصبي مهتز الجنانٍ يتدرب على الجريمة وزعيم العصابة يجبره على أن يصبح لصا. وكان ضميري تعذِّبه سعادة مصدرها أني محبوب. وربما كنت أسعى إلى سعادة أكثر حسيًا.

وقدمتني «سونوكو» إلى عمتها. أردت أن أترك انطباعاً طيباً، وكنت أسعى إلى ذلك قدر استطاعتي ، وبدا أنهم جميعاً يسألون بعضهم البعض: « لماذا وقعت « سونوكو » أصلاً في حب شخص كهذا؟ يا له من دودة كتب شاحبة! ماذا يمكنها بحق الّله أن تجد فيه ما يستحق الاعجاب؟ » .

ومع نيتي ، الجديرة بالثناء، على أن أجعل الجميع يظنون بي خيرا، فلم أكوّن مع « سونوكو » حلقة مغلقة كما فعلت في تلك المرة بالقطار. رحت أساعد شقيقتها في دروس اللغة الانجليزية وأصغي بانتباه إلى قصص الجدة عن أيامها في برلين في الماضي البعيد. والغريب أن « سونوكو » بدت أكثر قرباً مني في تلك الأوقات. ففي حضور جدتها أو أمها كنت أتبادل معها غمزات وقحة. وفي وقت الطعام كنا نتلامس بالأقدام من تحت المائدة. وبالتدريج استغرقتها هذه المسرحية هي الأخرى. وذات مرة، وبينما كانت الجدة تبعث في الملل، مالت « سونوكو » على احدى النوافذ التي أمكنني أن أرى من خلالها الأوراق الخضراء، تحت السماء القاتمة لفصل المطر، ومن وراء جدتها، وبحيث كان بوسعي أنا وحدي أن أرى، رفعت المدلاة المعلقة على صدرها وراحت تهزّها أمام عيني.

كَمْ كان ذلك الصدر أبيض وهو واضح للعيان فوق فتحة العنق في ثوبها، التي اتخذت شكل الهلال، كان بياضاً يخطف الأبصار. وعندما كنت أنظر إلى ابتسامتها وهي متكئة على النافذة، أمكنني أن أفهم الاشارة إلى (الدم الشهواني) الذي يصبغ وجنتي جولييت. هناك نوع من الخلاعة لا يناسب إلاّ العذارى، وهو يختلف عن خلاعة المرأة الناضجة، يُسكر المشاهد، كأنه نسمة رقيقة. إنه شيء من ذلك النوع الذي لا يرتضيه الذوق السليم، لكنه رغم ذلك حاد بدرجة ما، كالرغبة في دغدغة طفل مثلاً.

في لحظات كهذه يكون عاقلا قابلا للانتشاء بالسعادة المفاجئة. فلفترة طويلة كنت لم أقترب من الفاكهة المحرمة التي تُسمَى السعادة، لكنها كانت الآن تغويني باصرار حزين. وشعرت كأن سونوكو هاوية أترنح فوقها.

هكذا مرّ الوقت ولم يتبق سوى يومين على موعد عودتي للترسانة البحرية. لم أكنْ قد أنجزت بعد التزامي بالقبلة التي فرضتها على نفسي.

كل المرتفعات كانت مغلقة برذاذ الموسم المطيرْ. استعرت دراجة، ومضيت إلى مكتب البريد لأرسل خطابا. كانت «سونوكو» تعملُ في فرع تابع لمكتب حكومي لتتهرّب من الذهاب بعيداً في العمل التطوعي، لكنها وعدت بمقابلتي في مكتب البريد والتزويغ بعد الظهر. وفي طريقي إلى هناك، مررت بملعب تنس مهجور بـدا منعزلاً هناك داخل التقفيصة المصنوعة من السلك، والتي كان يقطر منها المطر الغائم. مرّ بجواري فتى ألماني يركب دراجة وشعره الأشقر ويداه البيضاوان تلمع بالبلل.

انتظرت عدة دقائق داخل مكتب البريد العتيق الطراز، وخلال ذلك الوقت أصبحت السماء أقل قتامة نسبيـا، توقف المـطر، لم يكن إلاّ هدوءا لحـظيا، فالسحب لم تتبدد، والضوء كان بلاتيني اللون.

أوقفت «سونوكـو» دراجتها وراء الأبـواب الزجـاجية. كـانت أنفاسهـا تتلاحق، ونهداها يصعدان ويهبطان سريعاً، لكن كانت هناك بسمة على وجنتيها الحمراوين الصحيحتين. وقال شيء بداخلي: «والآن عليك بها» وشعرت فعلاً كأني كلب صيد، بالضبط، يشجعونني على المطاردة. وبدا أني أتصرّف تحت ضغط التزام أخلاقي فرضه عليّ عفريت ما. وثبت إلى دراجتي ومضيت بجوار سونوكو على امتداد الشارع الرئيسي.

خرجنا بالدراجتين من القرية واجتزنا دغلاً من الأشجار ـ أشجار الشربين والقيقب والبتـولا الفضيه، وهي جميعـاً تقطر بمـاء المطر الـلامع. كـان شعر «سونوكو» جميلا وهو ينساب وراءها في الريح، وفخذاهـا القويـان يرتفعـان وينخفضان برشاقة وهي تحرك دراجتها. كانت تشبه الحياة نفسها. وفي مدخل ملعب للجولف، لم يعد يُستخدَم، نزلنا عن دراجتينا ومشينا فوق حديقة مبللة على حدود الممشى.

كنت متوتراً كمجند جديد، قلت لنفسي هناك جرش في الأعلى، وظلاله

مناسبة تماماً ويبعد مسافة خمسين خطوة تقريباً. بعد عشرين خطوة أخرى سأبادر إلى قول شيء ما لأقلل التوتر، وخلال الثلاثين خطوة الباقية سوف يكون ملائمًا الاستمرار في محادثة من نوع ما. عند الخطوة الخمسين سوف ننزل دعامات الدراجتين، ونتوقف لمشاهدة المنظر باتجاه الجبال. ثم أضع ذراعي على كتفها. بل ويمكنني أن أقول بصوت خفيض « وجودنا هنا ، وبهذه الكيفية، شيء كنت أحلم به ». عندئذٍ تردّ هي باجابة بريئة ما. أضغط باليد على كتفها. لأدور بها تجاهي. وعندئذٍ يكون التكتيك الوحيد الذي أحتاجه هو نفسه الذي كان في تلك المرة مع تشيكو. .

أقسمت لأن ألعب دوري باخلاص. لم يكنْ لذلك علاقة بالحب أو بالرغبة. .

كانت «سونوكو» بين ذراعيّ بالفعل. تتنفس سريعاً، وقد احمرّ وجهها كالنار وأغمضت عيناها. كانت شفتاها جميلتين جمالا طفوليا، لكنهما لم توقظا فيّ أي رغبة. ومع ذلك فقد ظللت آمل أن يحدث شيء بداخلي في أي لحظه — وبالتأكيد فعندما سأقبّلها بالفعل، سوف أكتشف عندئذٍ، بالتأكيد ، طبيعة حبي غير المصطنع.

كانت الآلة تندفع قدماً، ولم يكن بوسع أحد أن يوقفها.

غطيت شفتيها بشفتي. مرة ثانية. ليس هناك أدنى شعور باللذة. ثانيتان. الأمر كما هو تماماً. ثلاث ثوان. . . فهمت كل شيء.

ابتعدتُ عنها ووقفت لحظة أتطلّع بعينين حزينتين ولو أنها نظرت في عيني في تلك اللحظة لتلقت، بالتأكيد، اشارة عن الطبيعة غير المحددة لحبي لها. ومهما كانت طبيعته فلم يكن بوسع أحد أن يؤكّد تأكيداً راسخاً ما إذا كان ذلك الحب ممكناً أم لا بالنسبة للبشر. ولكن سونوكو وقد غمرها الخجل والفرحة البريئة ظلّت تنظر إلى أسفل وكأنها دمية.

ودون أن أقول كلمة أخذت ذراعها، كأنها معوقة، وبدأنا نسير تجاه الدراجتين.

ظللت أقول لنفسي، لابدّ أن أفرّ دون لحظة تأخير. كنت فزعاً. ولكي أتجنب اثارة أي شك بابداء الكآبة التي كنت أشعر بها، فقد تظاهرت ببهجة أكبر من المعتاد. وقد أدّى نجاح حيلتي الصغيرة إلى أن أقع في وضع أكثر صعوبة:

فخلال وجبة المساء اتسقت نظراتي السعيدة تماما مع شرود « سونوكو » العميق حتى أن الجميع توصّلوا إلى الخلاصة الواضحة.

بدت « سونوكو » أكثر شباباً ونضارة من المعتاد. كان هناك دائمًا في وجهها وقوامها ما يذكرك بكتب الحكايات. والآن فقد كان حولها جو يـذكّر المرء بهيئة وسلوك عذراء الحكايات عندما تحب. وعندما رأيت قلبها العـذري الساذج، مكشوفاً لي بهذه الطريقة، صرت أدرك بوضوح أني لا أملك أي حق في الامساك بمثل هذه الروح الجميلة بين يديّ، ومهما حاولت الاستمرار في تظاهري المرح، فقد كان حديثي يتعثر. وعندما لاحظت أم « سونوكو » ذلك، أعربت عن بعض القلق إزاء صحتي، ولكن « سونوكو » تسّرعت بالتوصل إلى خلاصة غير متأنية مؤدّاها أنها تعرف بالضبط ما كنت أفكر فيه، ولكي تطمئنني، هزّت مدلاتها تجاهي، باشارة تقول « لا تقلقْ ». ورغمًا عني، رددت عليها بابتسامة.

بدا صف من وجوه الكبار الجالسين إلى المائدة نصف متضايقين ونصف مصدومين بسبب الابتسامات المتبادلة دون خوف. وأدركت فجأة أن الخيالات وراء هذا الصف من الوجوه تفعل فعلها في استحضار صور المستقبل لكلينا معاً، ومرة أخرى أصبت بالرعب.

في اليوم التالي ذهبت مرة أخرى إلى نفس البقعة، بجوار ملعب الجولف، لاحظت مجموعة من الزهور البرية التي دسناها بأقدامنا عند الانصراف ــ زهور البابونج الصفراء، ذكريات أمسنا. واليوم كان العشب جافا.

العادة أمر فظيع. كررت القبلة التي ندمت عليها كل هذا الندم. لكنها كانت هذه المرة كالقبلة التي يمنحها المرء لشقيقته الصغرى. وفي هذه الحدود فقط كان مذاقها أكثر لا أخلاقية.

قالت: « تُرَى متى سألقاك ثانية ».

أجبتها: « حسنا، إذا لم يقم الامريكيون بـالانزال قـريباً من التـرسانـة فسأستطيع الحصول على اجازة أخرى في حدود شهر تقريباً ». كنت آمل، بل كان أكثر من مجرد الأمل، كان يقينا غيبياً ــ أنه خلال ذلك الشهـر سينزل الامريكيون دون شك، عند خليج « س » وأننا سنُرسَل جميعاً كجيش طلابي لنموت حتى آخر رجل، أو أن قنبلة رهيبة، مما لم يتخيله أحد من قبل ستسقط، مهما

كان المكان الذي أحتمي به . . هل يمكن أن يكون ذلك تنبؤاً بالقنبلة النووية التي كانت ستسقط بعد وقت قصير؟

ثم اتجهنا نحو منحدر غارق في ضوء الشمس، كانت اثنتان من شجر القيقب الفضي تظللان المنحدر وكأنهما شقيقتان رقيقتان . وقطعت « سونوكو » المنكّسة العينين بجواري، الصمت قائلة:

« عندما نلتقي في المرة القادمة، ما هي الهدية التي ستأتي بها إليّ؟ ».

أجبتها يائساً، وانا أتظاهر بأني لم أفهم ما تعنيه « أمّا عن الهدية التي بوسعي أن آتي بها هذه الأيام، فإن أفضل ما يمكن أن آتيك به هو طائرة محطمة أو جارووف ».

« لا أقصد شيئا له شكل ».

«همم، ماذا يمكن أن يكون؟» وكلما تماديت في التظاهر بالجهل كلما صرت محاصراً « إنه لغز حقيقي، أليس كذلك؟ سوف أحل اللغز على راحتي وأنا في قطار العودة ».

« أجل، أرجوك أن تفعل » كانت نغمة صوتها مزيجاً غريبا من التماسك والرصانة « أريدك أن تعدَ بأن تأتي معك بالهدية ».

وأكّدت « سونوكو » على كلمة « تَعدْ » ولم يكن بوسعي إلاّ أن أواصل ادعاء المرح كدفاع عن نفسي.

وقلت بلهجة المتفضِّل: «حسناً فلنتعانق أيدينا على هذا الوعد».

وتشابكت أصابعنا بتلك الطريقة الصبيانية التي نتبعها لتوثيق الوعود، وبدت هذه الحركة مليئة بالبراءة، ولكني شعرت بخوف مفاجىء يهبط عليّ، خوفاً كنت أعرفه في الطفولة، تذكرت كيف كان الأطفال يقولون إن الأصبع يتآكل إذا اخلفت الوعد بعد أن وثّقته بعناق الأصابع، وقد كان لخوفي سبب أكثر واقعية: فحتى لو لم تقل ذلك، كان واضحاً أن حديث « سونوكو » عن الهدية كان رجاءاً بالتقدم لخطبتها، وكان خوفي كذلك الذي يشعر به الطفل محيطاً به في الليل وهو يخشى أن يمضي وحيدا في ممر مظلم.

في تلك الليلة جاءت « سونوكو » في موعد النوم إلى باب غرفتي، وراحت تتوسّل إليّ عابسة وقد أخفت جزءاً من جسمها وراء الستارة المعلقة هناك، أن أبقى ليوم آخر، ولم يكن بوسعي إلاّ أن أحدّق فيها وكأن شيئاً ما قد أذهلني ،

لقد سقطت كل حساباتي، التي ظننتها بالغة الدقة، باكتشاف الخطأ الذي ارتكبته منذ البداية، وبالتالي فلم أكن أدري مطلقاً كيف أجعل المشاعر التي أحسها الآن وأنا أنظر إلى « سونوكو ».

« هل يجب حقاً أن تذهب؟ ».

« أجل، لابدّ من ذلك ».

وشعرت بشيء يشبه السعادة وأنا أجيب على سؤالها ، ومرة أخرى بدأت آلية الخداع تفعل فعلها بداخلي، بشكل سطحي في البداية، لم يكن شعوري بالسعادة في حقيقته إلاّ عاطفة المرء عندما يهرب من خطر عظيم، لكني فسّرته على أنه نابع من شعور بالتفوق إزاء « سونوكو » ومن معرفة بأنني أمتلك الآن قوة جديدة لاشعال رغباتها.

كان خداع النفس هو آخر شعاع أمل لديّ، فالشخص الذي يُجرَح جرحا خطيرا لا يطلب أن تكون ضمادات الاسعاف التي تنقذ حياته نظيفة، أوقفت النزيف بضمادات خداع النفس التي كنت، على الأقل معتاداً عليها، ولم أعد أفكر إلاّ في الهرب إلى المستشفى، وتعمّدت أن أصف تلك الترسانة المليئة بالفوضى لـ « سونوكو » على أنها أكثر الوحدات العسكرية انضباطا، وأصررت على أني قد أوضع في سجن عسكري لو لم أعد في اليوم التالي...

جاء صباح رحيلي ووجدت نفسي أحدِّق عامداً في « سونوكو » ــ كمسافر ينظر للمرة الأخيرة إلى مشهد يوشك أن يرحل عنه ــ وأدركت أن كل شيء انتهى رغم أن المحيطين بي كانوا يظنون أن كل شيء قد بدأ لتوِّه. رغم أنني كنت أريد أيضاً أن أخدع نفسي وأستسلم لجو الاهتمام الرقيق الذي أحاطتني به أسرتها.

ومع ذلك فقد جعلني هدوء « سونوكو » أشعر بالقلق، كانت تساعدني على حزم متاعي، باحثة في الغرفة عن شيء أكون نسيته، وبعد فترة توقفتْ أمام نافذة وراحت تنظر خلالها دون أن تتحرك، اليوم أيضاً لم يكن هناك ما يمكن رؤيته بوضوح سوى السماء الغائمة والأوراق الخضراء النفرة، مرق سنجاب لم تلحظه العيون فاهتز أحد الغصون ، وبينما كنت أنظر إلى ظهر « سونوكو » جعلني شيء ما في وقفتها هذه أشعر شعوراً غامر الوضوح بأنها كانت تنتظر بهدوء وطفولة. وبالنظر إلى أساليبي المنهجية لم يكن بوسعي أن أواصل تجاهل ذلك،

بأكثر من أن أخرج من غرفة ما دون أن اغلق أبواب الخزانة، وتوجهت ناحيتها واحتضنتها برقة.

« سوف تعود ثانية بالتأكيد، أليس كذلك؟ » كانت تتحدث بسلاسة، بنغمة من الثقة الكاملة، وبدا أنها لم تكن تثق فيَّ بقدر ما كانت تثق في شيء أعمق يتجاوزني، لم يكن كتفاها يرتجفان . والشال الذي فوق كنزتها يعلو ويهبط كما لو كان بفعل الكبرياء.

« همم، قد يكون ذلك، لو بقيت حيا » كنت مشمئزاً من نفسي وأنا أنطق بهذه الكلمات، وقد كنت أفضِّل، ذهنيا، أن أقول « لا شك أني سآتي، لا شيء يمكن أن يمنعني من المجيء إليك، لا تشكي في ذلك، ألست الفتاة التي ستصبح زوجتي؟ ».

في كل منعطف كان هذا النوع من التناقض الغريب يظهر بين آرائي الذهنية وبين عواطفي، وكنت أعرف أن ما يدفعني إلى اتخاذ مواقف فاترة من قبل: « همم، قد يكون ذلك » لم يكن عيباً في شخصيتي يمكنني أن أغيره، لكنه كان كشيء ما يوجد بداخلي حتى قبل أن تكون لي يد في الأمر، وباختصار فقد كنت أعرف بوضوح أنها لم تكن غلطتي..

ولكن لهذا السبب ذاته صار من عادتي أن أعامل تلك الجوانب من شخصيتي التي كنت مسؤولا عنها باضفاء طابع الصحة والعقلانية عليها إلى درجة مضحكة، وكجزء من نظامي للتربية الذاتية الذي يعود إلى طفولتي دأبت على أن أقول لنفسي إنه يجمل بي أن أموت عن أن أصبح شخصاً فاترا، شخصاً بلا رجولة، شخصاً لا يعرف بوضوح ما يحبه وما لا يحبه، شخصاً يريد فقط أن يكون محبوبا دون أن يعرف كيف يحب، هذه النصائح بالطبع كان يمكن تطبيقها على جوانب شخصيتي التي يمكن أن أُسأَل عنها، أمّا فيما يتعلّق بالجوانب الأخرى، الجوانب التي لا أُسأَل عنها، فقد كان ذلك مطلبا مستحيلا من البداية، وهكذا، ففي الحالة الراهنة لم تكن حتى قوة شمشون قادرة على أن تجعلني أتخذ موقفا رجوليا واضحاً تجاه « سونوكو ».

ولذلك فإن صورة الرجل الفاتر هذه التي كانت « سونوكو » تراها، ذلك الشيء الذي بدا أنه شخصيتي، أثار اشمئزازي، جعل وجودي كله يبدو بلا قيمة، ومزق ثقتي بنفسي تمزيقاً، لقد فقدت ثقتي بارادتي وبشخصيتي، أو على

الأقل فيما يتعلّق بارادتي لم أعد أستطيع أن أعتبرها إلاّ أكذوبة، ومن ناحية أخرى فإن هذه الطريقة في التفكير، التي تؤكّد هذا التأكيد على الارادة ، كانت في حد ذاتها مبالغة تقترب من الوهم، فحتى الشخص الطبيعي لا يمكنه التحكم في سلوكه بالارادة وحدها، ومهما كنت طبيعيا، فلا بدّ أن يكون هناك سبب ما يجعلني أتشكك في أن أكون أنا و«سونوكو» متناسبين من جميع النواحي كزوجين سعيدين، سبب ما يبرر لذاتي الطبيعية أن ترد قائلة: « همم، قد يكون ذلك » ولكني اكتسبت عن عمد عادة اغماض عيني حتى عن هذه البديهيات الواضحة، وكأني لا أريد أن أضيع فرصة واحدة لتعذيب نفسي.. وهذه خدعة بالية، غالباً ما يلجأ إليها الأشخاص الذين انقطعت كل سبل الهرب أمامهم فيتراجعون إلى ملجأ آمن يتمثل في اعتبارهم أنفسهم كموضوعات مأساوية...

قالت « سونوكو » بصوت هادىء: لا تقلق فلن تُقتَل، لن تُصَاب حتى بجرح طفيف فأنا أصلي كل ليلة للرب يسوع من أجلك، وصلواتي دائمًا مجابة.

« إنك شديدة التقوى، أليس كذلك؟ قد يكون ذلك السبب في السلام العقلي الذي لديك، إنه يكفي لاثارة خوفي ».

سألتني وهي تتطلّع إليّ بعينين سوداوين حكيمتين: « لماذا؟ ».

وقعت بين نظرتها وبين سؤالها البريء، وكلاهما خالٍ من الشك كأنه الندى، وغمرني الاضطراب. لم يعد بوسعي أن أفكر في اجابة. حتى تلك اللحظة كنت أشعر برغبة قوية في أن أهزّ هذه الفتاة التي بدا أنها أغفت داخل سلامها العقلي، أن أهزّها حتى تصحو. ولكن بدلاً من ذلك، فقد كانت نظرتها هي التي أيقظت ذلك الشيء الذي كان نائمًا بداخلي...

آن أوان ذهاب شقيقتي ‹«سونوكو» الصغيرتين للمدرسة وجاءتا للاستئذان، ومسّت الأخت الصغرى كفي بكفها وهي تقول « وداعاً »، ثم مرقت خارجة وهي تحمل صندوق الغداء القرمزي ذا القفل الذهبي اللون، وفي تلك اللحظة بالضبط تصادف أن الشمس كانت تشرق عبر الأشجار ورأيتها تلوِّح بالصندوق عاليا فوق رأسها..

وجاءت الجدة والأم معاً لوداعي، ولهذا ، فقد كان وداعي « لسونوكو » عفوياً وبريئا، رحنا نمزح معا ونتظاهر باللامبالاة، وسرعان ما جاء القطار واتخذت مقعدا بجوار النافذة ولم يكن في ذهني سوى الأمل بأن يتحرك القطار سريعا...

وناداني صوت صافٍ من اتجاه غير متوقع، كان ذلك بالتـأكيد صـوت « سونوكو » ، ولكن مع تعودي عليه، أدهشني أن أسمعه بهذه النضارة، كنسمة تأتي من بعيد، وتدفق ادراكي لحقيقة أن ذلك كان صوت « سونوكو » إلى قلبي كأنه ضوء الشمس الصباحية. أدرت عيني في الاتجاه الذي جاء منه الصوت. كانت « سونوكو » قد تسللت من خلال بوابة الحمالين وكانت تتشبث بالسياج الخشبي الأسود المحيط بالرصيف، انساب جزء من الشال الذي فوق سترتها المحكمة ورفرف في الهواء، وحدّقت فيَّ عيناها المليئتان بالحياة، على اتساعهما، وبدأ القطار يتحرك وبدا أن شفتيها الثقيلتين نوعاً تشكلان كلمات ما، وبهذه الصورة غابت عن عيني سونوكو! سونوكو! كررت الاسم لنفسي مع كل اهتزازة من اهتزازات القطار، وكان رنينه غـامضـاً بشكل لا يوصف. سونوكو! سونوكو! مع كل ترديد للاسم شعرت في قلبي بأسى أشد، ومع كل ذبذبة لاسمها كان احساس بالتعب الجارح، الشبيه بالعقوبة، يزداد عمقاً بداخلي. كان الألم الذي أشعر به واضحاً كالبللور، لكنه ذا طبيعة فريدة وغير مفهومة حتى أني لم أكن أستطيع تفسيره لو حاولت ذلك. كان شديد البعد عن المسالك المطروقة للعواطف البشرية المعتادة، حتى أني أنا نفسي كنت أجد صعوبة في ادراك أنه ألم. ولو حاولت وصفه لأمكنني أن أقول أنه ألم كألم ذلك الشخص الذي ينتظر في وهج الظهيرة، هزيم مدفع الظهيرة، وعندما يمر موعد انطلاق المدفع، دون صوت، يحاول أن يكتشف الفراغ المتبقي في مكان ما من السماء الزرقاء. ففراغ صبره هو من ذلك النوع الموجع الذي يخلقه انتظار شيء مرغوب فات أوانه، والشك المخيف في احتمال ألاّ يعود ثانية أبداً. انه الرجل الوحيد في العالم الذي يعرف أن مدفع الظهيرة لم ينطلق في موعده في الظهيرة.

غمغمت قائلا لنفسي: « انتهى كل شيء؟ انتهى كل شيء » كان حزني يشبه حزن تلميذ مهزوز الجنان رسب في امتحانه: لقد أخطأت! لقد أخطأت! لمجرد أنني لم أحل « س » فسد كل شيء، لو كنت حللت « س » في البداية لكان كل شيء على ما يرام. لو أني استخدمت الأساليب الاستنباطية ككـل شخص آخر لحل رياضيات الحياة!. فكوني نصف ماهر هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث لي، لم أكن أعتمد إلاّ على الأسلوب الحَدْسي ولهذا السبب البسيط فقد فشلت.

كـان اضطرابي العقـلي واضحاً لـدرجـة أن المسـافـرتـين اللتـين كـانتـا

تجلسان قبالتي بدأتا تنظران إليّ بشك، كانت إحداهما ممرضة بالصليب الأحمر ترتدي زياً «كحلياً» والأخرى مزارعة بائسة بدا أنها أم أو والـدة الممرضـة، وعندما شعرت بنظراتهما تطلّعت إلى الممرضة فرأيت فتاة سمينة حمراء البشرة كأنها كرزة شتوية، فاجأتها وهي تنظر إليّ مباشرة، ولكي تغطي اضطرابها بدأت تلحّ على أمها:

« أرجوك، إني شديدة الجوع».

« كلا، لا يزال الوقت مبكراً للغاية ».

« لكني جائعة، أقول لك. أرجوك، أرجوك».

« لا تكوني لحوحاً هكذا ».

ولكن الأم استسلمت أخيراً وأخرجت صندوق طعامها، وكان فقر محتوياته يجعل وجبة غذائهما أتعس حتى مما كنا نتلقاه من طعام في الترسانة، لم يكن هناك سوى الأرز المغلي المخلوط بكمية كبيرة من القلقاس المتبل بشريحتين من الفجل المخلل، ولكن الفتاة بدأت تأكل بشهية بالغة.

ولسبب ما، فلم تكن عادة الأكل تبدو لي قبل ذلك مضحكة هكذا، فركت عيني وأدركت في الحال أن وجهة نظري هذه جاءت من فقداني الكامل للرغبة في الحياة.

وعندما وصلت إلى منزلنا الذي في الضواحي في تلك الليلة فكرت جدياً في الانتحار لأول مرة في حياتي، ولكن وأنا أفكر فيه، كانت الفكرة تتحول إلى شيء مرهق للغاية، وأخيراً قررت أنه أمر مضحك، لقد كان لديّ نفور غريزي من الاعتراف بالهزيمة ، بل إني قلت لنفسي إنه لا حاجة بي إلى الاقدام على مثل هذا العمل الحاسم، ليس وأنا محاط بهذا الحصاد السخي من كل هذه الأنماط من الموت، الموت في الغارة الجوية، الموت في الموقع، الموت في الخدمة العسكرية، الموت في ميدان المعركة، الموت عندما تدهمك الأقدام، الموت من المرض ــ ولا شك أن اسمي قد أدرِج بالفعل في قائمة واحدة من هذه: كلا ــ فمهما درست الأمر لم يكن يبدو لي الموسم ملائمًا للانتحار، وبدلاً من ذلك كنت أنتظر شيئاً ما يسدي لي معروفا ويقتلني، وهذا في التحليل الأخير يعني أني كنت أنتظر شيئاً ما يسدي لي معروفا ويبقي على حياتي..

وبعد عودتي إلى الترسانة بيومين تلقيت خطاباً عاطفيا من « سونوكو »، لم يكن هناك شك في أنها في حالة حب حقاً، شعرت بالغيرة . كانت غيرتي كالغيرة التي لا تحُتمَل والتي تشعر بها لؤلؤة مزروعة تجاه لؤلؤة أصيلة، أم أنه يمكن أن يكون في هذا العالم شيء من قبيل غيرة الرجل من المرأة التي تحبه، وبسبب حبها له بالتحديد؟ . . .

كتبت إلّي ـ أنه بعد أن افترقنا عند المحطة ركبت دراجتها وعادت إلى العمل، ولكنها كانت شاردة لدرجة أن رفاقها في العمل سألوها عما إذا كانت على ما يرام، وقد ارتكبت أخطاء كثيرة في وضع الأوراق بالدوسيهات، ثمّ عادت إلى البيت للغذاء ، ولكن أثناء عودتها إلى العمل بعد الغذاء، انحرفت عن طريقها ومضت إلى ملعب الجولف حيث توقفت، نظرت حولها ورأت الموضع الذي كانت أزهار البابونج الصفراء ملقاة فيه بعد أن داستها الأقدام، تماماً كما تركناها، وبعد أن تبدد الضباب رأت سفوح البركان تبرق لامعة بلون أكسيد الحديد المحترق، وكان الجبل قد تم غسله، ورأت أيضاً بقايا من الضباب القاتم تصعد من أغوار الجبل، ورأت شجرتي القيقب الفضيتين كأنهما شقيقتان عاشقتان وأوراقهما ترتعش بهاجس خافت. . .

في ذلك الوقت ذاته كنت في القطار، أعصر عقلي بحثاً عن طريقة أهرب بها من الحب الذي زرعته بنفسي في « سونوكو » . . . ومع ذلك فقد كانت هناك لحظات أشعر فيها بالاطمئنان، وقد استسلمت لذرائع تبريرية كانت رغم حقارتها أقرب إلى الصدق، كانت تلك الذرائع تقول بأني يجب أن أهرب منها بسبب أني أحبها.

واصلت الكتابة إلى « سونوكو »، كتبت لها خطابات عديدة، وبينما كنت أحرص على ألاّ أقول شيئاً يمكن أن يزيد من تطور الأمر، كنت أستخدم في الوقت ذاته نغمة لا تكشف عن برود المشاعر من ناحيتي، وفي أقل من شهر كتبتْ تقول لي إنهم ذاهبون جميعاً لزيارة « كوزانو » مرة أخرى في وحدته التي نقل إليها قرب طوكيو. وألحّ عليّ ضعفي أن أذهب معهم. والغريب أنه برغم عزمي القاطع على الهرب منها، فقد كنت لا أزال منجذباً، بشكل لا يُقاوم، إلى لقاء آخر.

وعندما قابلتها بالفعل وجدت أني تغيرت تماماً، بينما بقيت هي كما كانت أبداً. أصبح من المستحيل الآن بالنسبة لي أن أمزح مزحة واحدة. ولاحظت « سونوكو » و « كوزانو » بل وجدتها وأمها ما حدث لي من تغير، لكنهم لم ينسبوا

ذلك إلاّ لشرف مقصدي. وخلال الزيارة أبدى «كوزانو» ملحوظة، جعلتني أرتعد خوفاً، رغم أنه قالها بلطفه المعتاد:

«في ظرف أيام قليلة سأرسل لك خطاباً هاما، ترقّبه، هل ستفعل؟...»

بعد ذلك بأسبوع ذهبت إلى بيتنا بالضواحي، حيث كانت عائلتي، ووجدت أن خطابه وصل. كان مكتوباً بذلك الخط المميز له تماماً، الذي يكشف بقلة نضجه اخلاص صداقته:

«... كل الأسرة مهتمة بشأنك أنت و «سونوكو». وقد عُينت سفيرا فوق العادة بهذا الخصوص. وما يجب أن أقوله يمكن ايجازه ـ أريد ببساطة أن أسأل عن شعورك إزاء الأمر. «سونوكو» تعتمد عليك، بالطبع، وكذلك يعتمد عليك الجميع. بل إن أمي بدأت تفكر في موعد الاحتفال. قد يكون الأمر مبكراً للغاية بالنسبة لذلك، لكني أتصور أنه من المناسب أن نمضي إلى تحديد تاريخ للخطبة الآن. لكننا بالطبع نخمِّن. ولهذا فأنا أسألك عن شعورك إزاء الأمر. فالأسرة تريد أن تسوي كل شيء، بما في ذلك إجراء الترتيبات مع أسرتك، بمجرد أن تصلنا كلمة منك. لكني بالتأكيد، لا أقصد أن أجبرك على اتخاذ خطوة لست مستعداً لاتخاذها. فقط قلْ لي ما هو شعورك وسوف أكفّ عن القلق. وحتى لو كانت اجابتك بلا، فلن أحملها ضدك، ولن أغضب، ولن تؤثر على صداقتنا. ما أريده هو اجابتك الصريحة، تعطيها بحرية. وآمل مخلصاً أن تجيب دون أي شعور بالاجبار أو الالتزام. وبوصفي صديقك المخلص للغاية فأنا أنتظر ردك...»

صُعِقت . تلفت حولي، شاعراً كأن أحداً ما كان يراقبني وأنا أقرأ الخطاب.

لم أحلم أبداً بأن ذلك قد يحدث. فشلت أن آخذ في اعتباري أن «سونوكو» وعائلتها قد يكون لهم موقف من الحرب مختلف بوضوح عن موقفي. كنت طالباً، لا أزال دون الواحدة والعشرين، وأعمل في مصنع طائرات. بل ولأني نشأت خلال سلسلة من الحروب فقد فكرت كثيراً جداً في التأثير الروماني للحرب. ولكن الحقيقة أنه حتى في أوقات الدمار العنيف كهذه التي جرّتنا إليها الحرب، ظلّت الأبرة المغناطيسية للشؤون الانسانية تشير إلى نفس الاتجاه الذي تشير إليه دائماً. وحتى الآن، فقد كنت أنا أيضاً أظن أني عاشق. فلماذا إذنْ

عجزت عن أن أدرك أن شؤون الحياة اليومية ومسؤوليتها تستمر حتى في الحرب؟.

ولكن عندما أعدت قراءة خطاب «كوزانو»، طفت على شفتي ابتسامة غريبة باهتة، وأخيراً طغى لديّ احساس عادي تماماً بالتفوق. اني منتصر، قلت لنفسي. «الشخص الذي لم يعرف السعادة أبداً، لا يحق له أن يسخر منها. لكني اتخذ مظهراً سعيدا، لا يمكن أحد أن يكتشف فيه ثغرة، ولهذا فلديّ حق في السخرية كأي انسان آخر».

ورغم أن قلبي امتلأ بالقلق والحزن الأخرس فقد وضعت فوق شفتي ابتسامة ساخرة حقيقية. وقلت لنفسي إن كل ما يجب عليّ عمله هو التغلب على عقبة صغيرة واحدة. كل ما كان عليّ أن أعمله هو اعتبار الشهور القليلة الماضية عبثاً، أنْ أقرر أني لم أكن أحب فتاة تُدعى «سونوكو» من البداية، أنْ أعتقد أني انسقت وراء عاطفة تافهة (كذاب!) وأني خدعتها. عندئذٍ . . . ن هناك ما يمنعني من رفضها. وبالتأكيد فإن مجرد قبلة لا يمكن أن تلزمني! . . .

انتشيت بالخلاصة التي مضت بي إليها أفكاري:

«لست أحب «سونوكو»..

يا له من شيء رائع! إني رجل قادر على اغراء امرأة دون حتى أن يحبها ثمّ — عندما يشتعل الحب داخلها — يتخلّ عنها دون اعمال فكره في الأمر. كَمْ أنا بعيد عن أن أكون الطالب المستقيم والفاضل والممتاز الذي أظهر بمظهره.. ومع ذلك فلم يكن ممكناً أن أجهل حقيقة أنه لا يوجد زير نساء يتخلّ عن امرأة دون أن ينال غرضه أولا. لكني تجاهلت مثل هذه الأفكار. لقد اكتسبت عادة سد أذني تماماً، كعجوز عنيد، أمام أي شيء لا أحب أن أسمعه.

وكل ما هو مطلوب الآن هو ابتكار طريقة للهرب من الزواج. وبدأت المهمة تماماً كما لو كنت عاشقاً غيورا يخطط لمنع زواج محبوبته من رجل آخر.

فتحت النافذة وناديت أمي.

كانت حديقة الخضراوات الكبيرة تلمع تحت ضوء شمس الصيف القوية . رفعت صفوف من الطماطم والباذنجان أوراقها العطشى إلى الشمس بتحدٍ وحدّة. ظلت الشمس تصب أشعتها اللاهبة الكثيفة فوق الأوراق القوية . وعلى

مدى البصر كانت الخضراوات تنسحق تحت الضوء الساقط على الحديقة. ووراء الحديقة كانت أجمة من الأشجار حول ضريح أدار وجهه الكئيب تجاهي. ووراء ذلك كانت هناك الأرض المنخفضة، التي تمر خلالها القطارات الكهربائية، لا ترى، من وقت لآخر، لتملأ الريف بالاهتزازات. وبعد كل مرور مندفع لعمود القاطرة المرتفع عاليا، كان السلك يبقى متأرجحاً بكسل، وهو يومض في ضوء الشمس.

استجابة لندائي ارتفعت قبعة كبيرة من القش بشريط أزرق طويل، من وسط حديقة الخضراوات. كانت هذه أمي. ظلت قبعة القش التي كان يرتديها خالي ـ الشقيق الأكبر لأمي ـ ساكنة، ومائلة للأمام كأنها زهرة عباد الشمس وهي تميل، دون أن تستدير تجاهي مطلقا..

بسبب أسلوب حياتها الراهنة أصبحت بشرة أمي ملوّحة إلى حد ما، وكان بوسعي أن أرى وميض أسنانها البيضاء وهي تتحرك تجاهي، وعندما اقتربت بما يكفي لأن اسمعها، نادتني بصوت طفولي عالي النغمةَ:

« ما الأمر؟ إنْ كنت تريد اخباري بشيء فتعال هنا ».

« إنه شيء هام، تعالي هنا دقيقة ».

اقتربت أمي ببطء، وكأنها تحتج، كانت تحمل سلّة مليئة بالطماطم الناضجة. وبعد أن وصلت إلى البيت، وضعت السلة على قاعدة النافذة وسألتْ عمّا أريد.

لم أرِها الخطاب، لكني أخبرتها باختصار بما يقوله. وبينما كنت أتحدث نسيت لماذا ناديتها؟ ربما كنت أثرثر فقط لأقنع نفسي: «وقلت له إن زوجتي أياً كانت سوف تقاسي كثيراً من الحياة في منزل واحد مع والدي العصبي المزعج، ومع ذلك فلم يكن هناك أمل في الحصول على منزل منفصل في أوقات كهذه. وأكثر من ذلك فسوف يكون هناك اختلاف كبير بين أساليب عائلتنا العتيقة الطراز وبين أسرة « سونوكو » التي وصفتها بالحيوية والتبسط. أمّا عن نفسي فلم أكنْ أريد تحمل همّ مسؤولية زوجة بهذه السرعة.. » قدمت كل هذه الأعذار الواهية المتعددة بأسلوب بارد، آملاً أن توافق وتعارض بعناد أي فكرة لتزويجي، لكنها كانت هادئة ومتمهلة كما هي دائمًا.

قاطعتني وكأنها تسخف بالأمر: « هذه طريقة كلام مضحكة، إذنْ ما هو شعورك حقاً؟ هل تحبها أم لا؟ ».

غمغمت « بالطبع، أنا أيضاً ــ حسنا، لكني لم أكن بهذه الجدية كلها. كان قصدي شبه مزاح، ثم أصبحت هي جادة وأخذتني إلى المياه العميقة ».

« إذنْ لا توجد مشكلة، وكلما سارعت بتصحيح الأمر، كلما كان ذلك أفضل لكما معاً، في النهاية، فالخطاب يحاول فقط أن يعرف شعورك نحو الأمر. يجُمَل بك أن تكتفي بارسال رد واضح ــ والان سأعود. كل شيء على ما يرام الآن، أليس كذلك؟ ».

« همم » رددت عليها وأنا أتنّهد.

مضت أمي حتى بوابة الخيزران، التي كانت الحنطة تنمو حولها. ثم عادت وهي تركض بعصبية إلى النافذة حيث كنت. وكان تعبيرها الآن قد تغير نوعا.

« اسمعْ! بخصوص ما كنا نقوله لتوّناــ » نظرت إليّ بهيئة غريبة، وكأنها امرأة غريبة تنظر إليّ لأول مرة. « عن » سونوكو »، أنت ــ هي ــ إذا كنت قد ــ حسناــ ».

وإذْ أدركت مقصدها، ضحكتُ قائلاً:

« لا تكوني حمقاء يا أمي » شعرت كأني لم أضحك من قبل بهذه المرارة أبدا. «هل تظنين حقاً أني فعلت أي شيء كهذا؟ هل ثقتك بي قليلة هكذا؟ »

« أوه، كنت أعرف. كان يجب فقط أن أتأكد ».

استعادت هيئتها المرحة، مخفية حرجها. « لهذا خلقت الأمهات ــ للقلق حول أشياء كهذه. لا تقلق فأنا أثق بك»...

في تلك الليلة كتبت خطاب رفض غير مباشر، بدا مصطنعاً حتى لي. كتبت أن الأمر كان مفاجئا للغاية، وأن مشاعري لم تمض إلى ذلك الحد بعد.

وفي طريق عودتي إلى الترسانة في الصباح التالي، توقفت عند مكتب البريد لارسال الخطاب. نظرت المرأة التي عند نافذة البريد « الموصى عليه » نظرة شك إلى يدي المرتعشتين. حدّقت في خطابي وهي تأخذه بأصابعها القـذرة الخشنة

وتطبعه بسرعة. شعرت براحة وأنا أرى تعاستي تُعامَل بهذا الأسلوب الكفء والعملي.

غيرت طائرات العدو أهدافها الآن وصارت تهاجم المدن الصغيرة والبنادر. بدا أن الحياة تخلّصت مؤقتاً من الخطر. شاعت بين الطلاب آراء تحبِّذ الاستسلام. بدأ أحد أساتذتنا المساعدين الشبان يلمح تلميحات موجبة إلى السلام، يحاول أن يستميل إليه الطلاب. وعندما كنت أنظر إلى الكتلة الأنيقة لانفه القصير وهو يعبر عن أكثر الآراء تشككا، كنت أقول لنفسي «لا تحاولْ خداعي» ومن ناحية أخرى فقد كنت أيضاً أحتقر المتعصبين الذين لا زالوا على ايمانهم بالنصر. كان الأمر سيان عندي أن نكسب الحرب أونخسرها، الشيء الوحيد الذي كنت أريده هو أن أبدأ حياة جديدة.

وعندما ذهبت لزيارة البيت الريفي أصابتني حمى شديدة، كان سببها مجهولا. وعندما رقدت أحدِّق في السقف، الذي بدا أنه يدور محموما، غمغمت باسم «سونوكو» دون انقطاع، لنفسي، كأنه آية مقدسة. وعندما تمكنت أخيراً من النهوض من فراشي سمعت أنباء دمار هيروشيما.

كانت فرصتنا الأخيرة. كان الناس يقولون إن طوكيو هي التالية. ورحت أمشي في الشوارع مرتدياً قميصا أبيض وسروالا قصيرا أبيض. وصل الناس إلى نهاية اليأس، وكانوا آلاف يقبلون على أعمالهم بوجوه مبتهجة. من لحظة لأخرى لم يحدث شيء. في كل الكلمات كانت هناك اثارة مرحة. كما لو أن المرء كان يواصل نفخ بالون أطفال منتفخ بالفعل، متسائلا: «هل سينفجر الآن؟ هل سينفجر الآن ؟» ومع ذلك فمن لحظة لأخرى لم يحدث شيء. واستمرت هذه الحال عشرة أيام تقريباً. ولو استمرت أطول، فلم يكن هناك سوى الجنون.

وذات يوم شقت عدة طائرات صغيرة طريقها عبر النيران الغبية المضادة للطيران، وأمطرت منشورات دعائية من سماء الصيف. احتوت المنشورات على مقترحات الاستسلام. تلك الليلة جاء أبي من مكتبه مباشرة إلى البيت الريفي. دخل عبر الحديقة وتكلّم على الفور، جالساً في الشرفة:

«إسمع.. هذه الدعاية صحيحة» أراني نسخة من النص الانجليزي الأصلي، الذي حصل عليه من مصدر موثوق به.

أخذت النسخة في يدي، ولكن قبل أن اقرأها كنت قد أدركت حقيقة

الأنباء. لم تكن حقيقة الهزيمة. وبدلاً من ذلك ، فبالنسبة لي ــ بالنسبة لي وحدي ــ كانت تعني أن الأيام المخيفة ستبدأ. كانت تعني أنه، سواء شئت أم أبيت، ورغم كل شيء خُدِعت، فاعتقدت أن ذلك اليوم لن يأتي أبداً، ففي اليوم التالي بالتحديد سوف يتعين عليّ أن أبدأ « الحياة اليومية » لعضو في المجتمع الانساني. كَمْ كانت الكلمات في حد ذاتها تجعلني أرتجف!.



الفصل الرابع

على عكس ما توقعت، لم تظهر تلك الحياة اليومية، التي كنت أخشاها ، أدنى دليل على أنها تبدأ. وبدلاً من ذلك، كان هناك شعور وكأن البلاد متورطة في حرب أهلية، وبدا أن الناس قلّ اهتمامهم بـ«الغد» عما كان عليه أثناء الحرب الحقيقية.

سُرِّح زميل الدراسة الذي أعارني زيه الجامعي من الجيش. أعدتُ إليه الزي. ثمّ توهمّت لبعض الوقت أني تحررت من الذكريات، من ذكريات ماضيّ كله.

ماتت شقيقتي. فوجدت سلاماً عقليا زائفا في حقيقة أني أنا أيضاً أستطيع أن أذرف الدموع.

خُطِبت « سونوكو » رسمياً وتزوجت بعد وفاة شقيقتي بوقت قصير. كان شعوري إزاء ذلك الحدث ـ هل يصح أن أصفه بالشعور ـ بأن عبئا انزاح عن كاهلي؟ تظاهرت لنفسي بأني سُررت. وتباهيت لنفسي بأن ذلك كان طبيعياً حيث أنا الذي هجرتها وليس هي.

كنت أصرّ منذ زمن بعيد على أن اعتبار الأشياء التي أجبرني عليها القدر انتصارات لارادتي وذكائي. والآن نمت هذه العادة السيئة لتصبح خيلاء مجنونا. وفي طبيعة ذلك الذي كنت أدعوه ذكائي كانت هناك لمسة من شيء غيرمشروع، شيء من الدعي الدجال الذي وضع على العرض بصدفة حمقاء. ذلك

المغتصب الأحمق لم يكن بوسعه أن يتنبأ بالانتقام الذي لا بدّ سسينصبّ على استبداده الغبي.

قضيت العام التالي بشعور مبهم ومتفائل. كانت هناك دراستي للقانون، التي كنت أؤدّيها بلا حماس، وذهابي وإيابي بين الجامعة والبيت بشكل آلي... لم أكن أهتم بأي شيء. ولا كان أي شيء يهتم بي. كنت قد اكتسبت ابتسامة حكيمة محنكة كابتسامة كاهن شاب. كان لديّ شعور بأني لا حي ولا ميت. وبدا أن رغبتي السالفة في الانتحار الطبيعي التلقائي في الحرب قد أقتُلِعت ونُسيت تماماً.

الألم الحقيقي لا يأتي إلّا تدريجياً. إنه بالضبط كالسل من حيث أن المرض يتطور بالفعل إلى درجة حرجة قبل أن يصبح المريض مدركا لأغراضه.

ذات يوم توقفت في مكتبة، حيث كانت المطبوعات الجديدة قد بدأت تعاود الظهور تدريجيا، وتصادف أن دوّنت ترجمة في غلاف ورقي مهمل. كانت مجموعة من المقالات المطنبة لكاتب فرنسي. فتحت الكتاب اعتباطا. فحفر أحد السطور على الصفحة طريقه بالنار إلى عيني. وأجبرني شعور حاد بالاضطراب على أن أطوي الكتاب وأعيده إلى الرف.

في اليوم التالي وفي طريقي إلى المدرسة، سيطر عليّ شيء ما، فتوقفت عند نفس المكتبة، التي كانت قريبة من البوابة الرئيسية للجامعة، واشتريت الكتاب الذي نظرت فيه في اليوم السابق. وأثناء محاضرة عن « القانون المدني » ، أخرجت الكتاب خلسة ووضعته بجانب كراستي المفتوحة، والتقطت السطر ذاته. وكان يعطيني هذه المرة شعوراً بالاضطراب، أكثر قوة من اليوم السابق:

« ... مقياس قوة المرأة هو درجة العذاب التي يمكن أنِ تعاقب بها عشيقها.. »

كان لي صديق واحِد في الجامعة أتعامل معه بألفة. كانت أسرته تملك محل حلوى له مكانته منذ زمن. كان يبدو، لأول وهلة، طالباً مجدا غير مثير للاهتمام، وكانت نغمة السخرية التي يستخدمها مع الناس والحياة، اضافة إلى حقيقة أنه كان ضعيف البنية مثلي، تثير لدي انجذابا متعاطفا. ولكن بينما كانت سخريتي تنبع من رغبة في خلق انطباع ورغبة في الدفاع عن النفس، كان يبدو أن نفس الموقف لديه يضرب جذوره في شعور، أشد رسوخاً، بالثقة في النفس.

بعد فترة، خمّن أني ما أزال على عذريتي واعترف ، وهو يتحدث بمزيج من الاستعلاء الغامر واحتقار الذات، بأنه يتردد على المواخير. ثم استكشف مشاعري إزاء الموضوع.

« . . . إذنْ إذا كنت تريد أن تذهب ذات مرة، فاتصلْ بي تليفونيا فقط، سوف آخذك في أي وقت ».

أجبته: « هم. إذا أردت أن أذهب. لا بأس. . ربما. . . سوف أتخذ قراري قريباً ».

بدا خجلاً ، وإنْ كان منتصرا. وعكَسَ تعبيره شعوري أنا بالخجل، كان الأمر كما لو أنه فهم حالتي الذهنية تماماً وأنّ ذلك يذكِّره بعهد جرّب فيه، هو نفسه، هذه المشاعر ذاتها بالضبط. شعرت بالضيق. كان ذلك الشعور القلق، المترسِّب بداخلي بالفعل، بالرغبة في أن أمتلك فعلاً المشاعر التي تنسب إليّ. التحشّم نوع من الأنانية، وسيلة لحماية الذات تصبح ضرورية بسبب شدة رغبات المرء. ولكن رغباتي الحقيقية كانت سرية لدرجة أنها لم تكن تسمح ولو بهذا النوع من التساهل مع الذات. وفي الوقت ذاته فإن أي رغبات خيالية ــ أي فضولي البسيط والمجرد إزاء النساء ــ كانت تسمح لي بنوع من الحرية الباردة، حتى أنه لم يكن هناك مجال لهذه الأنانية فيها هي أيضا. لا توجد فضيلة في الفضول وهو يمكن أن يكون في الحقيقة، أكثر الرغبات لا أخلاقية لدى الانسان.

وقد ابتكرت ممارسة سرية مَرَضية. كانت تتمثل في اختبار رغبتي بالتحديق بثبات، في صور نساء عاريات. . . وكما يمكن تصوره بسهولة، فإن رغبتي لم تجب بلا أو نعم، فعند الانغماس في عادتي السيئة تلك، كنت أحاول تهذيب رغبتي، أولاً بالاقلاع عن أحلام يقظتي المعتادة، ثم باجبار نفسي على استحضار صور عقلية لنساء في أكثر الأوضاع شذوذا. وفي بعض الأحيان كان يبدو أن جهودي نجحت. لكن ذلك النجاح كان فيه زيف يسحق قلبي سحقاً.

وأخيراً قررت أن أعوم أو أغرق. اتصلت بصديقي تليفونيا وطلبت إليه أن يلقاني بعد ظهر أحد الأيام بأحد محال الشاي. كان ذلك حوالى منتصف يناير في السنة الثانية بعد الحرب.

« إذنْ فقد عزمت أخيراً؟ » ضحك مبتهجاً عبر التليفون. لا بأس، سأكون هناك، واسمعْ ــ سأكون هناك بالتأكيد، ولن أغفر لك إنْ لم تأتِ. . . »

بعد أن وضعت السماعة كان صوته الضاحك لا يزال يرن في أذني. وكنت أدرك أني لم أستطع أن أردّ على ضحكه بشيء أفضل من ابتسامة خفيفة ملتوية. ومع ذلك شعرت بشعاع من الأمل، أو بالأحرى ، باعتقاد غيبي. كانت غيبيته خطيرة. الغرور وحده يجعل الناس يخاطرون. في حالتي كان غروراً من النوع المعتاد، عندما لا يريد المرء أن يعرف أحد أنه على عذريته وهـو في الثانيـة والعشرين من العمر.

والآن وأنا أفكر في الأمر، وجدت أنه كان يوم عيد ميلادي عندما شجّعت نفسي على الاختبار. . .

صدقنا كل منا الآخر، كأن كلامنا يحاول أن يتحسس الآخر بالعقل. اليوم أدرك صديقي أيضاً أن الوجه الجاد أو الابتسامة العريضة، كلاهما يبدو ساذجاً بنفس الدرجة، وراح ينفث دخان السيجارة سريعاً مـن شـفتيه الخاليتين من التعبير. وبعد ألفاظ التحية بدأ يتحدث عن نوع الحلْوى السيئة التي تقدم في ذلك المحل، بأسلوب غير شخصي. لم أكن أستمـع إليه تقـريبا، وقـاطعت ملاحظاته قائلا:

« هل تُرَاك عقدت العزم أنت أيضاً؟ إني اتساءل ما إذا كان الشخص الذي يأخذ واحداً إلى مكان كهذا يصبح صديق العمر أو عدو العمر ».

« لا تثْر خوفي. أنت تعرف كم أنا جبان. لا أعرف كيف ألعب دور عدو العمر ».

« طيب أن تعرف كل هذا عن نفسك » تعمّدت أن أتحدث إليه بلهجة فوقيه مستعرضاً مجوني. .

« حسناً إذنْ » قال وهو يتخذ السمت الجاد لرئيس إحْدى اللجان « يجب أن نذهب لمكان ما ونأخذ شرابا. إن الأمر يكون صعبا على المبتدىء إنْ لم يكن ثملا ».

« كلا ، لا أريد أن أشرب » شعرت بوجنتي تبردان « إني سأذهب دون شراب واحد، لديّ ما يكفي من الشجاعة بدون ذلك ».

وبتتابع كئيب جاء ركوبنا للعربة ثمّ صعودنا إلى محطة كئيبة معلقة، غير مألوفة، ثم شارع غير مألوف، وركن تقوم فيه صفوف من البيوت المهدمـة،

وأضواء حمراء بدت وجوه النساء تحتها متورمة. كان الزبائن يمشون على امتداد الشارع الرطب الذي ذاب جليده، يمر أحدهم بالآخر في صمت، ووقْع أقدامهم مكتوم كأنهم يسيرون حفاة. لم أشعر بأدنى رغبة. لم يكن هناك ما يلح عليّ سوى شعوري بالاضطراب، كأني صبي يتوسّل من أجل وجبة الغداء.

قلت « أي مكان يفي بالغرض، أي مكان يفي بالغرض، أقول لك » شعرت كأني أريد أن أستدير وأفر من الأصوات ذات البحة المصطنعة للنساء اللاتي يقلن: « توقف لحظة، يا جميل، توقف لحظة واحدة يا جميل. . . »

« الفتيات خطيرات في هذا المنزل. . . هل تحب تلك الفتاة؟ يالله، ياله من وجه، هذا البيت آمن على الأقل ».

قلت « الوجه لا يهم مطلقا ».

« لا بأس اذن، ومن باب الاختلاف فقط سآخذ البنت الجميلة ولا تمسكها عليّ بعد ذلك ».

عند اقترابنا وثبت المرأتان واقفتين كأن شيطاناً تملكهما. دخلنا البيت الذي كان صغيرا حتى أن رأسينا بدا أنهما تلمسان السقف ونحن داخلان. وبابتسامة كشفت عن أسنانها الذهبية ولحمية أسنانها، أخذتني المرأة الهزيلة ذات اللهجة الريفية إلى غرفة صغيرة بها ثلاث حصر.

وبدافع من الاحساس بالواجب عانقتها. وبينما كانت بين ذراعي هممت بأن أقبلها. وبدأ كتفاها الثقيلان يهتزان بجنون من الضحك.

« لا تفعلْ ذلك، سوف يلوثك طلاء الشفاه. ها هي الطريقة ».

فتحت المومس فمها الكبير، وأسنانها الذهبية محاطة بطلاء الشفاه، وأخرجت لسانها القوي كالعصا، وحذوت حذوها، فاخرجت لساني أيضاً، وتلامس طرفا لسانينا. . .

قد لا أكون مفهوماً عندما أقول إنه يوجد خدر يشبه الألم الوحشي. شعرت بجسمي كله يشلّه ذلك الألم. كان ألماً كثيفا، لكني لم أكن أستطيع أن أشعر بها مطلقا. أسقطت رأسي فوق الوسادة.

بعد ذلك بعشر دقائق لم يكن هناك شك في عدم قدرتي. كانت ركبتاي ترتعشان خجلا.

افترضت أن صديقي لم يشك فيما حدث، ومن المذهل حقاً، أني أسلمت نفسي خلال الأيام التالية للشعور المعذب بالنقاهة. كنت كشخص يعاني من مرض مجهول في غمرات الخوف: فمجرد معرفة اسم مرضه، وإنْ كان لا يعالج، يعطيه شعورا مدهشا بالراحة المؤقتة. وهو يعرف جيداً ، رغم ذلك، أن الراحة مؤقتة فقط. وأكثر من ذلك فهو يستشرف في قلبة يأساً أكثر، بطبيعته ذاتها، سيعطيه شعورا أكثر ويميته بالراحة، وأنا أيضاً أصبحت أتوقع صدمة من المستحيل تحملها، أو بتعبير آخر، شعورا أكثر حتمية بالراحة.

خلال الأسابيع التالية قابلت صديقي مرات كثيرة في المدرسة، ولكن أحدنا لم يشرْ إلى الحادث. وبعد حوالى شهر جاء يزورني ذات مساء، في صحبة طالب آخر، معروف لكلينا. كان ذلك « ت »، زير نساء كبير، مليء بالغرور ودائم التبجح بأنه قادر على الايقاع بأي فتاة في خمس عشرة دقيقة فقط. وسرعان ما انحدر حديثنا إلى الموضوع المحتوم.

« لم أعد أستطيع الاستمرار دون ذلك ــ ببساطة، فأنا لا أستطيع السيطرة على نفسي » قال « ت » وهو يحدِّق فيِّ: « ولو كان بعض أصدقائي عاجزين لحسدتهم ، بل لانحنيت لهم ».

ورأى صديقي أن وجهي تغيرّ لونه، وحوّل الحديث إلى موضوع جديد مخاطباً « ت »:

« وعدت أن تعيرني كتاباً لمارسيل بروست، أتذكر؟ هل هو شيق؟ »

« أقول إنه شيق. هل كان بروست لوطياً؟ » واستخدم اللفظ الأجنبي. « كانت له علاقات مع الخدم ». .

سألته « ما هو اللواطي؟ » أدركت أنه بادعاء الجهل فإني أقبض على هواء، وأنا أتشبث بهذا السؤال الصغير لأستند إليه وأحاول أن أجد مفتاحاً ما لأفكارهم، اشارة إلى أنهم لم يشكوا في عاري.

« اللوطي لوطي. ألم تكن تعرف؟ إنه « دانشوكوكا ».

« أوه. . لكن لم أسمع أبداً أن بروست كان كذلك ».

كان بوسعي أن ادرك أن صوتي يرتعش. واظهار الارتباك كان يمكن أن يكون مماثلا لتقديم دليل اثبات لرفيقي. كنت خجلاً من قدرتي على مواصلة هذا

الاستعراض الظاهري الشائن للتماسك. كان واضحاً أن صديقي اشتمّ سري. وبدا لي، بشكل ما، أنه يفعل ما بوسعه ليتجنب النظر إلى وجهي.

وأخيراً انصرف زائراي الملعونان في الحادية عشرة، وأغلقت غرفتي على نفسي لأقضي ليلة مؤرقة. ظللت أشهق بالبكاء حتى جاءت أخيراً تلك الرؤى الغارقة في الدم لتريحني . ثمّ استسلمت لها، تلك الرؤى الوحشية بشكل مؤسف، عن أعزّ أصدقائي.

كان لا بدّ من تغيير ما. بدأت أتردد على اجتماعات تحدث في بيت صديق قديم، وأنا أعرف أنها لن تترك في عقلي إلّا ذكرى محادثات عقيمة وطعما ماسخا. كنت أذهب إلى هناك، لأن أهل المجتمع الظريف الذين كانوا يأتون إلى تلك الحفلات ، على خلاف زملاء دراستي، كانوا يبدون ودودين بشكل مدهش، ويسهل التعرّف عليهم. كان من بينهم عديد من الشابات الأنيقات بشكل متكلف، ومغنية « سوبرانو » شهيرة، وعازفة بيانو صاعدة، وزوجات شابات مختلفات، تزوجن حديثا. هناك يكون الرقص، وقليل من الشراب، وأداء ألعاب ساذجة، من بينها شكل جنسي بدرجة خفيفة من المطاردة، وأحياناً كانت الحفلات تستمر حتى الفجر.

وفي ساعات الصباح الباكر غالباً ما كنا نجد أنفسنا نغفو ونحن نرقص. ولكي نبقى مستيقظين كنا نلعب لعبة ، فنبعثر الوسائد على الأرض ونرقص حولها في دائرة حتى يتوقف الفونوغراف فجأة. عند هذه الاشارة كنا نجلس على الوسائد اثنين اثنين، ومَنْ يفشل في العثور على مقعد يكون ملزماً بأداء عمل بهلواني. وكانت تحدث اثارة هائلة بسبب ارتماء الراقصين، في أكوام، فوق الوسائد. ومع تطور اللعبة، وبعد تكرارها عدة مرات، لم تعد حتى النساء يهتممن بمظهرهن.

ربما لأنها كانت منتشية قليلًا! ، لكن أذكر كيف رأيت ذات مرة، أجمل الفتيات، وهي تضحك بانفعال، دون أن تلاحظ أنها أثناء فوضى الارتماء على الوسادة ارتفعت تنورتها فوق فخذيها بمسافة. لمع لحم فخذيها ناصع البياض، ولو حدث ذلك قبلها بوقت قصير، فربما كنت سأقلّد الطريقة التي يهرب بها الشبان الآخرون ــ خجلاً من رغباتهم في مثل ذلك الموقف، وباستخدام كل مهارتي لأداء دور لا أنساه لحظة واحدة. كنت سأسارع بتحويل ناظري بعيداً. ولكنني تغيرت منذ ذلك اليوم بالتحديد. وبدوت بلا أدنى شعور بالخجل. أي بدون أدنى

خجل من الانعدام الغريزي للخجل عندي ـ حدّقت في ذينك الفخذين الأبيضين بهدوء وكأني أتفحص قطعة من مادة غير حية.

وفجأة دهمني ذلك الألم القابض الذي يترتّب على اطالة التحديق في شيء ما. أعلن الألم: لست آدميا. أنت كائن غير قادر على الاتصال الاجتماعي. لست إلّا كائناً، لا ـ آدمي ومريض بشكل غريب.

لحسن الحظ فإن وقت التحضير لامتحانات الخدمة المدنية كان قد اقترب، وساعدني ذلك آلياً، من الناحية الجسمية والعقلية، أن أبعد المسائل الأكثر ايلاما، عن نفسي. ولكن حتى هذا التغيير كان فعّالاً لمدة قصيرة فقط، في البداية.

عاد إليّ بالتدريج الشعور بالخيبة الذي استيقظ في تلك الليلة منتشراً في كل أركان حياتي. صرت مكتئبا. ولأيام بطولها كنت أعجز عن أن أمدّ يدي لأفعل شيئا. وبدا لي أن الحاجة إلى أن أبرهن لنفسي أني أملك قدرة ما، أصبحت أكثر الحاحاً كل يوم. وبدا أني لن أستطيع مواصلة الحياة دون برهان كهذا. ومع ذلك فلم يكن بوسعي أن أكتشف في أي مكان مفتاحاً لتحقيق شذوذي الغريزي، لم تكن هنا فرصة لاشباع رغباتي الشاذة، ولا حتى في أكثر أشكالها اعتدالا.

وجاء الربيع، وقد تراكمت وراء واجهة الهدوء لديّ عصبية مجنونة. بدا أن الفصل ذاته كان يحمل لي ضغينة، معبّراً عن عدائه في رياحه المحمّلة بالغبار. ولو أوشكت سيارة أنّ تدهمني، كنت أوبخها ـ في سري ـ بصوتٍ عال، قائلا: «حسنا، لماذا لا تتقدمين وتصدميني!»

استعذبت الدراسة المضنية والعيش الاسبرطي اللذين فرضتهما على نفسي. وفي لحظات غريبة من الدراسة كنت أخرج للنزهة، وغالباً ما كنت أدرك أن الناس ينظرون، متسائلين، إلى عينيّ المحمرتين. وحتى عندما كان يظن مَنْ يرقبني أني أكوّم يوم الكد على يوم كد آخر، فقد كنت فقط أتعلم التعب المضني للقذارة والدعارة والكسل الكامل التعفن، وطريقة حياة لا تعرف الغد. ولكن ذات أصيل قرب نهاية الربيع، كنت أركب العربة العامة، وفجأة شعرت بنبض نقي في قلبي يكاد يُزهق أنفاسي.

كان ذلك لأني، وأنا أنظر بين الراكبين الواقفين، لمحت «سونوكو» تجلس على الجانب الآخر من العربة. وتحت رموشها الطفولية رأيت عينيها، مخلصتين

ومتواضعيتن برقتها العميقة عمقاً لا يوصف. كنت أوشك أن أنهض عندما ترك أحد الركاب الحزام المعلق في سقف العربة، والذي كان يتشبث به، متحركاً نحو باب الخروج. عندئذٍ أصبح وجه الفتاة مرئياً بالكامل. لم تكن « سونوكو ».

كان قلبي لا يزال يضج. كان من السهل أن أفسِّر لنفسي نبضات القلب هذه، على أنها ، ببساطة، نتيجة للمفاجأة أو لضمير مذنب، ولكن حتى مثل ذلك التفسير لم يكن ليدمِّر نقاء الشعور، الذي جرّبته للحظات. تذكرت فجأة العواطف التي شعرت بها عند مشاهدة « سونوكو » في صباح التاسع من مارس . الوقت الآن هو ذاته، والشيء هو ذاته. بل والشعور بالأسف أيضاً هو ذاته وهو يخترق قلبي.

أصبحت هذه الحادثة الصغيرة شيئاً لا يمكن نسيانه، فبعث في الأيام القليلة التالية صخباً حيا من الاثارة بداخلي. لا شك أنه لا يمكن أن يكون صحيحا أن أكون لا أزال عاشقاً لسونوكو، ولا شك أني عاجز عن أن أحب امرأة، وحتى اليوم السابق كانت هذه المعتقدات وكأنها من اتباعي المخلصين والموثوقين، الذين أشعر بالثقة المطلقة في ولائهم، أمّا الآن فحتى هم تمردوا عليّ.

بهذه الطريقة استعادت ذكرياتي، فجأة، سلطانها عليّ، كان انقلابا اتخذ شكل الألم الخالص. ذكريات « تافهة » كان يجب أن أغسلها وأتخلّص منها قبل عامين، كبرت الآن بشكل غريب، وعادت إلى الحياة أمام عيني ــ تماماً كطفل لقيط شمله النسيان ثم يظهر فجأة وقد اكتمل نموه. لم تكن هذه الذكريات مشوبة بطابع « العاطفة العذبة » الذي افتعلته في تلك المناسبات، ولا بالطابع العملي الذي استخدمته للتخلص منها فيما بعد، وبدلاً من ذلك كان يشملها جميعا طابع مفرد وملموس هو العذاب. ولو كان شعوري شعوراً بالندم، لوجدت طريقة لاحتماله، بمجرد اتباع الطريق الذي أضاءه بالفعل مَنْ سبقوني. ولكن ألمي كان عذبا واضح الملامح بشكل غريب، ليس ندما غائما، كان كحالة الاضطرار إلى النظر من النافذة إلى انعكاس قاسٍ لشمس الصيف وقد قسمت الشارع إلى تناقض ملتهب بين الشمس والظل.

وذات أصيل غائم خلال الفصل المطير حدث أن كنت أمر خلال « ازابو » في مهمة ما. كان ذلك جزءا من المدينة يندر وجودي به. وفجأة نادى شخص ما على اسمي، من ورائي. كانت «سونوكو». عندما استدرت ورأيتها لم أندهش كما حدث في تلك المرة بالعربة العامة عندما أخطأت وظننت أن الفتاة الأخرى هي

« سونوكو » وبدا لي هذا اللقاء بالمصادفة طبيعياً تماماً ، كأني كنت أتوقعه من قبل. وشعرت كأني كنت أعرف كل شيء عن هذه اللحظة قبل زمن طويل.

كانت ترتدي لباسا بسيطا عليه ورد منقوش كورق الحائط « الشيك »، دون أية زينة سوى شريط عند فتحة الرقبة، لم يكن فيها ما يوحي بأنها الآن امرأة متزوجة، ربما كانت عائدة من حيث جاءت بالتموين حيث كانت تحمل دلوا، وكانت تتبعها خادم عجوز تحمل دلوا آخر. أرسلت بالمرأة إلى البيت ومضت تتحدث إليّ:

« لقد نحلت قليلا، أليس كذلك؟ »

« آه، بفضل المذاكرة من أجل الامتحانات ».

« هكذا؟ أرجوك الانتباه لصحتك »

ثمّ صمتنا لبعض الوقت. بدأ ضوء الشمس اللطيف يتدفق على الشارع السكني الهادىء، الذي نجا من القصف بالقنابل. خرجت بطة مبللة من باب أحد المطابخ ومضت تبطبط على امتداد البالوعة أمامنا. شعرت بالسعادة.

سألتها: « ماذا تقرأين هذه الأيام؟ »

« تقصد الروايات؟ حسناً قرأت رواية « تاينزاكي »، « البعض يفضل القُرّاص(*) »، وأيضاً — »

قاطعتها: « أَلَمْ تقرأي — ؟ » سألتها ذاكراً اسم رواية كانت شائعة عندئذ.

قالت« تلك الرواية عن المرأة العارية؟ »

قلت مندهشاً « هه؟ »

« إنها مقرفة— تلك الصورة على الغلاف ».

قبل عامين لم تكن تستطيع أن تنظر في عينيْ أحد وتقول « امرأة عارية » ومجرد حقيقة أنها استخدمت هذه الكلمات على تفاهتها جاءت معها بادراك واضح، بشكل مؤلم، أن « سونوكو » لم تعد العذراء التي كنت عرفتها.

(*) القرّاص: نبات ذو وبر شائك — والمقصود اسم رواية. (المترجم).

توقفت عندما بلغنا منعطفاً وقالت:

« هنا أنعطف. بيتي عند نهاية هذا الشارع ».

شعرت بالألم بسبب فراقها ونكّست عيني، وتطلّعت إلى الدلو في يدها. كان مليئا بالكونيكو وهو كتلة هلامية رجراجه غارقة في ضوء الشمس، يشبه جلد امرأة لوّحتها الشمس على شاطىء البحر. قلت « سوف يفسد الكونيكو ولا يعود صالحا للأكل إنْ تركته طويلا في الشمس ».

« هذا صحيح » أجابت « سونوكو » بصوت عال مازح. « إنها مسؤولية كبيرة ».

« حسنا، وداعاً ».

« نعم، حظاً سعيداً » بدأت تمشي مبتعدة.

ناديتها وسألت عمّا إذا كانت تذهب لزيارة أسرتها، وأجابت بيسر أنه يتصادف أنها ستذهب إلى هناك يوم السبت التالي.

ثم افترقنا، وللمرة الأولى لاحظت شيئاً هاماً ـ بدا اليوم أنها غفرت لي. لماذا غفرت لي؟ هل يمكن أن تكون هناك اهانة أكبر من هذا الكرم؟ وقلت لنفسي، إن ألمي قد يُشفَى إذا أهانتني بوضوح، مرة واحدة أخرى.

وبدا أن يوم السبت يأتي بطيئاً. كان « كوزانو » يدرس بجامعة كيتو. ولكن شاء الحظ أن يكون في زيارة للبيت. وفي أصيل السبت ذهبت لرؤيته. وعندما كنا نتحدث سمعت صوتا جعلني أشك في أذني. كان صوت بيانو. لم يعد العزف غير ناضج بل أصبح كامل التجسّد، مليئاً بالذبذبات التي انسابت وانتشرت بحرية وهي ممتلئة ووهّاجة.

سألت « مَنْ الذي يعزف؟ ».

قال « كوزانو » وهو لا يعرف شيئا: « إنها « سونوكو » تزورنا اليوم ».

وفي ومضة مؤلمة عادت كل الذكريات القديمة، الواحدة تلو الأخرى.

أحزنني أنه بدافع حسن نيته تجاهي لم يقل كلمة واحدة مطلقاً، عن رفضي غير المباشر لـ « سونوكو » . كنت أريد برهاناً ما على أنها شعرت، على الأقل، بجرح بسيط في ذلك الوقت. أردت أن أكتشف لديها تعاسة تطابق تعاستي.

ولكن مرة أخرى تدخّل « الزمن » لينمو فجأة كالأعشاب بين « كوزانو » و « سونوكو » وبيني ــ وأصبح أي تعبير صريح عن المشاعر، غير ملون بالكبرياء أو الغرور أو التحشم مستحيلاً بالنسبة إلينا.

توقف البيانو. وكان « كوزانو » ذكياً بما يكفي، لأنه سأل عماً إذا كان عليه أن يأتي بها لتنضم إلينا. وخرج ليعود بها على الفور. بدأنا نحن الثلاثة في النميمة، حول معارفنا في وزارة الخارجية حيث كان يعلم زوج « سونوكو »، وأخذت تضحك كثيراً، بلا معنى.

ونادت الأم «كوزانو» فمضى إليها. وبقينا وحدنا « سونوكو » وأنا معاً في الغرفة ، تماماً كما كنا في ذلك اليوم، قبل عامين.

أخبرتني « سونوكو » بغير قليل من الافتخار الطفولي كيف أن جهود زوجها هي التي أنقذت بيت « كوزانو» من أن تستولي عليه قوات الاحتلال.

ومن البداية كنت دائمًا أجد تفاخرها جذابا. فالمرأة ذات التواضع الزائد هي بلا سحر، كالمرأة المتكبرة، وقد كانت هناك خصلة أنثوية بريئة ومحببة في تباهي « سونوكو » الهادىء والمحكوم.

قالت وهي لا تزال تتكلم بهدوء: « بالمناسبة، هناك شيء كنت أريد أن أسألك عنه لكن لم أتمكن من السؤال عنه من قبل. لقد ظللت أتساءل لماذا لم نتزوج. بعد أن تلقيت الاجابة التي أرسلتها إلى أخي لم أعد، ببساطة ، أفهم شيئاً عن العالم. ولم أعد أفعل كل يوم إلاّ أن أتساءل وأتساءل. وحتى الآن فلا أستطيع أن أفهم لماذا لم نستطع أن نتزوج. . . »

أدارت وجهها بعيداً عني، إلى حد ما، وقد بدا عليها الغضب، فظهرت وجنتاها المحمرتان، ثم واصلت الحديث كأنها تقرأ بصوت عال:

« هل كان ذلك لأني لم أعجبك؟ »

وبدا سؤالها مباشراً وبسيطاً كسؤال عملي، وردّ قلبي عليه بنوع من الفرحة العنيفة والشجية. وفي ومضة تحولت هذه البهجة الشريرة إلى ألم. كان ألماً خفيا حقا. قدر معين من الألم كان أصيلا، ولكن وراء ذلك كان هناك ألم الكبرياء المجروح واكتشاف أن انبعاث الأحداث « التافهة » لما قبل عامين يمكن أن يصيب

قلبي بهذا الوجع. لقد أردت أن أتحرر منها. لكني وجدت الأمر مستحيلا كما كان أبدا.

قلت لها: « لا تزالين جاهلة بكل شيء عن العالم » هذه إحدى خصالك الطيبة، جهلك بالأمور الدنيوية. ولكن اسمعي، لم يخلق العالم بحيث أن كل اثنين متحابين يمكنهما دائمًا أن يتزوجا. هذا هو بالضبط ما كتبته لأخيك. اضافة إلى ذلك ــ » شعرت أني أوشك أن أقول شيئا أنثويا، وأردت أن أمسك لساني، لكني عجزت عن التوقف. « إضافة الى ذلك، فإني لم أقل في أي موضع بذلك الخطاب، وبشكل محدد، أن الزواج مستبعد. وكما قلت، فلأني لم أكن بلغت الواحدة والعشرين، ولا أزال طالبا، وأن الأمر كان مفاجئاً للغاية، هذا كل شيء. وبينما كنت في ترددي مضيت أنتِ وتزوجت على عجل ».

« حسنا، بالنسبة لي لا يوجد سبب للأسف. فزوجي يحبني وأنا أيضاً أحبه. أنا سعيدة حقاً. لا أستطيع أن أطلب المزيد. ومع ذلك. وقد يكون شريراً أن أفكر هكذا، ولكن أحياناً ــ تُرَى ما هي أفضل الطرق لأقول ذلك ــ أحياناً أراني مختلفة وأعيش حياة أخرى. عندئذٍ أرتبك وأشعر أني أوشك أن أقول شيئاً لا يجب أن أقوله. أشعر أني أوشك أن أفكر بشيء لا يجب أن أفكر فيه، وأنزعج إلى درجة تفوق احتمالي. ويكون زوجي بالغ العون لي في مثل هذه الأزمات. فهو يعاملني بلطف، كالطفل تماماً ».

«قد يكون ذلك غروراً، لكن هل أقول لك ما أفكر فيه؟ في تلك الاوقات تكرهيني. تكرهينني بعنف».

«لم تكن « سونوكو » تعرف معنى الكراهية. وبلطف وجدية تظاهرت بالتجهم وقالت:

« لك أن تظن ما تشاء ».

« ألا نستطيع أن نتقابل مرة أخرى، نحن الاثنان فقط؟ ». فجأة وجدتني أتوسّل إليها كأن شيئاً يحثني على المضي قدما. « لن يكون هناك شيء مخجل سوف يكفيني أن أنظر إلى وجهك. لم يعد من حقي أن أقول أي شيء حتى ولو لم تقولي كلمة فلا بأس. بل وثلاثون دقيقة فقط تكفي ».

« وما جدوى اللقاء إذنْ؟ وعلى أية حال، إذا التقينا مرة، ألَنْ تقول دعينا نلتقي ثانية؟ حماتي في المنزل شديدة الحزم وكلما خرجت سألتني أين أمضي ومتى

أعود. . اللقاء بمثل هذا الشعور غير المريح ـ ولكن إذا » ـ تلعثمت للحظة « حسناً، هناك شيء يُسمَى القلب الانساني ولا أحد يدري ما الـذي يجعله يخفق ».

« هذا صحيح. ولكنك الآن جادة كما كنت دائمًا، أليس كذلك؟ لماذا لا تستطيعين أن تفكري في الأشياء بمرح أكثر وعفوية أكثر؟ » (كم كنت أكذب).

« هذا مناسب تماماً لرجل. لكن ليس لامرأة متزوجة. سوف تفهم تماماً عندما تكون لديك زوجة. لا أعتقد أن هناك مبالغة في الاهتمام بمثل هـذه الأشياء ».

« الآن تتكلمين كالشقيقة الكبرى لشخص ما ، وهي تبدي النصائح. . »

عندئذٍ بالضبط عاد «كوزانـو» وتوقف حديثنا.

وحتى أثناء محادثتنا كانت شكوك كثيرة لا تنتهي تملأ عقلي.

وأقسمت بالّله أن ميلي إلى لقاء « سونوكو » كان أصيلا. ولكن من الواضح أنه لم تكن فيه أدنى رغبة جنسية. إذنْ فأي نوع من الرغبة ذلك الذي جعلني راغباً هكذا في لقائها؟ ألا يمكن أن يكون صراع النفس مرة أخرى، هذه العاطفة التي من الواضح أنها ليست رغبة جنسية؟ أولاً هل يمكن أن يكون هناك شيء يُسمَى حباً ليس له أساس مطلقاً، من الرغبة الجنسية؟ أليس ذلك سخفا واضحا وجليا؟

ولكن فكرة أخرى خطرت لي: إذا قررنا بأن العاطفة الانسانية لديها القدرة على أن تعلو على كل عبث، كيف يمكن الادعاء بأنها لا تملك القدرة على سخافة العاطفة نفسها؟

منذ تلك الليلة الحاسمة، نجحت في تجنب النساء. منذ تلك الليلة لم ألمس شفتي امرأة واحدة ـ ناهيك عن الشفاه الصبيانية التي تؤثر في رغباتي تأثيراً أصيلا ـ ولو وجدت نفسي حتى في موقف يكون فيه الامتناع عن ذلك وقاحة. . وهكذا فإن وصول الصيف هدد عزلتي بأكثر مما فعل الربيع. وراح الصيف المكتمل يسوط خيول رغبتي الجنسية الجامحة. كانت تعذِّب جسدي وتستهلكه، ولكي أحتملها كان عليَّ أن ألجأ إلى عادتي السيئة، خمس مرات في اليوم، أحياناً.

واستنارت جهالتي بقراءة نظريات « هيرتشفيلد »، الـذي يفسِّر الشـذوذ

كظاهرة بيولوجية بسيطة تماماً. وأصبحت أدرك أنه حتى تلك الليلة الحاسمةكانت نتيجة طبيعية وأنه لا يوجد سبب للخجل. وقد اتخذت شهوتي الخيالية للفتيان، وإنْ لم تتحول، ولو لمرة واحدة إلى لواط، شكلا محدداً تماماً، أكّد الباحثون أنه وارد. ويُقال إن نفس الدافع الذي كنت أشعر به ليس قليل الانتشار بين الألمان. وتمثل مذكرات الكونت « فون بلاتف » مثالا دقيقا على ذلك. وقد كان فيلكمان حالة مماثلة أيضاً. وإذا رجعنا إلى ايطاليا عصر النهضة، فقد كانت لدى مايكل انجلو دوافع من نوع دوافعي.

ولكن ذلك لا يعني أن حياتي العاطفية قد استقامت بفهمي الذهني لهذه النظريات العلمية. فقد كان من الصعب أن يصبح الشذوذ واقعاً في حالتي، ببساطة لأن الدافع لديّ لم يتجاوز الجنس، لم يَعدُ أن يكون دافعاً معتما يصرخ دون جدوى، ويقاوم بيأس وعمى. بل إن الاثارة التي يخلقها لديّ فتى جذاب لم تتجاوز كونها رغبة جنسية فحسب. وإذا فسّرنا الأمر تفسيراً سطحياً، فقد كانت روحي لا تزال ملكا لـ«سونوكو»، ورغم أني لا أقصد أني أقبل بالمفهوم تماماً، فبوسعي أن أركن إلى استخدام الشكل البياني الخاص بالقرون الوسطى للصراع بين الروح والجسد لأوضح المعنى: بداخلي يوجد انفصال، بسيط وخالص، بين الروح والجسد. فقد بدت « سونوكو » بالنسبة لي تجسيداً لحبي للطبيعة ذاتها، حبي لأشياء الروح، حبي للأشياء الباقية أبداً.

ولكن مثل هذا التفسير البسيط لا ينهي المشكلة. فالعواطف لا تحب النظم الثابتة، ولكنها كجزئيات صغيرة في الأثير، تطيربحرية، تطفو بلا غاية وتفضّل أن تبقى متأرجحة على الدوام. .

ومرّ عام قبل أن أفيق أنا و « سونوكو » . نجحت في اختبارات الخدمة المدنية، وتخرجت من الجامعة ، وتوليت وظيفة ادارية باحدى الوزارات. خلال ذلك العام تمكنا من اللقاء عدة مرات، مرة كأنها مصادفة، ومرة بحجة أشغال تافهة، ولكن فقط كل شهرين أو ثلاثة، بل ولمدة ساعة تقريباً أثناء النهار نلتقي دون أن يحدث شيء ونفترق بنفس الطريقة. كان هذا كل ما في الأمر. ولم يكن بوسع أحد انتقاد مسلكي. ولا تجرأت « سونوكو » على شيء يتجاوز الذكريات أو المحادثات البسيطة، مازحة بتحشم من موقفنا الراهن. ولم يكن ممكناً أن تُسمَى علاقتنا سرية بل، ويتردد المرء في في أن يسميها « علاقة »، بل وعندما كنا نلتقي لم نكن نفكر إلاّ في جعل كل فراق انفصالاً قاطعا.

كان ذلك مُرضيا لي. وأكثر من ذلك، فقد كنت ممتناً لشيء ما، بسبب هذه العلاقة التي لا هدف لها. ولم يكن يمر يوم دون أن افكر في « سونوكو »، وكلما التقينا كنت أشعر بسعادة هادئة. كان يبدو كما لو كان التوتر الرقيق والسرية الخالصة للقاءاتنا تمتد إلى كل أنحاء وجودي وتضيف عليه نظاماً واضحا وإنْ متزايد الهشاشة.

ولكن عاماً مرّ وأفقنا. اكتشفنا أننا لم نعد نعيش في حضانة، بل أننا سكان « هيكل ناضج » حيث يجب المبادرة باصلاح أي باب ينفتح نصف انفتاحة فقط، كانت علاقتنا هي ذلك الباب بالتحديد. باب لا يمكن أن يُفتَح بما يتجاوز نقطة معينة، وكان من الضروري أن يلْزمه الاصلاح عاجلا أو آجلا. وبعد ذلك كانت هناك أيضاً حقيقة أن الكبار لا يستطيعون تحمل الألعاب المملّة التي تُسرّ الأطفال. ولم تكن اللقاءات الكثيرة التي فحصناها واحدا واحدا، إلاّ أشياء نمطية تتساوى كلها في الطول والسمك حزمة من ورق اللعب تبلغ حوافها جزءاً من البوصة عندما تترامى فوق بعضها البعض.

وأكثر من ذلك فقد كنت أجد في تلك العلاقة، وبمكرٍ ، لذة لا أخلاقية لم يكن يفهمها سواي، كانت لا أخلاقيتي خفية، تتجاوز آثام العالم المعتادة بخطوة وكالسم القوي التأثير، فقد كانت فساداً خالصا. وحيث أن اللاأخلاقية هي أساس طبيعتي ، ومبدؤها الأول، وجدت نكهة شيطانية حقاً من الاثم السري في سلوكي العفيف، في هذه العلاقة التي لا غبار عليها، مع امرأة، في مسلكي الشريف، وفي كوني يُنظر إليّ كرجل ذي مباديء سامية.

لقد مددنا أذرعنا أحدنا للآخر، وحملنا شيئا بين أيدينا المتعانقة، ولكن ذلك الشيء الذي كنا نحمله كان كنوع من الغاز الذي يوجد عندما تؤمن بوجوده ويختفي عندما تشك. وتبدو مهمة حمله سهلة لأول وهلة، لكنها تحتاج بالفعل حساباً متقنا بشكل مطلق ومهارة كاملة. وقد بعثت إلى الوجود « طبيعية » مصطنعة، في ذلك الفراغ الذي بين أيدينا، وأغريت « سونوكو » بالمشاركة في العملية الخطيرة المتمثلة في محاولة الابقاء على « حب » موهوم من لحظة لأخرى. وبدا أنها مُشاركة في المؤامرة دون أن تدرك ذلك. وافتقاد الادراك من جانبها كان، فيما يُحتَمل، السبب الوحيد في أن مساعدتها كانت بهذه الفعالية.

ولكن جاء وقت أصبحت فيه حتى « سونوكو » مدركة، بشكل غائم، للقوة

التي لا حدّ لها لهذا الخطر الذي بلا اسم، هذا الخطر المختلف تماماً عن الأخطار المعتادة غير المحددة في هذا العالم، من حيث أنه يمتلك كثافة محددة ويمكن قياسها.

وفي أحد الأيام في أواخر الصيف قابلت «سونوكو» التي كانت عائدة لتوّها من منتجع جبلي، في مطعم يُسمى «كولادور» وبمجرد لقائنا أخبرتها باستقالتي من الوظيفة.

«ماذا ستفعل الآن؟»

«أوه دعي المستقبل يهتم بنفسه».

«حسنا، إنها مفاجأة» لم يكن لديها شيء آخر تقوله حول الموضوع. وكان هذا النوع من تقاليد عدم التدخل راسخاً بيننا.

كانت شمس الجبل قد لوّحت «سونوكو»، وفقد جلدها بياضه المشع، هناك فوق نهديها. صارت اللؤلؤة الكبيرة في خاتمة غائمة، بشكل كئيب، بسبب الحرارة. وكان رنين صوتها العالي، وهو دائماً مزيج من الحزن والتراخي، مناسباً للموسم تماماً.

ومرة أخرى، واصلنا لبعض الوقت محادثة بلا مغزى، تدور بلا نهاية، ولا اخلاص فيها. في بعض الأحيان بدا أنها ليست سوى انزلاقا في الهواء الفارغ. أعطتنا الاحساس بأننا نستمع إلى حديث يدور بين اثنين من الغرباء.

كان شعورا كذلك الذي يُحسّ عند الخط الفاصل بين النوم واليقظة، عندما تؤدّي الجهود النافذة الصبر للعودة إلى النوم، دون الاستيقاظ من حلم سعيد، استعادة الحلم أكثر استحالة. اكتشفت كيف أن قلبينا وكأنهما اصيبا بفيروس خبيث يفتنهما الانتباه القلق الذي كان يقتحم الحلم بوقاحة، والمسرّة العقيمة لحلمنا واضحة على عتبة الوعي. وكما لو كان الأمر باشارة متفق عليها مسبقا، هاجم المرض قلبينا في نفس الوقت تقريبا. وكان رد فعلنا اظهار المرح. كان كلانا خائف مما يمكن أن يقوله الآخر في أية لحظة، فرحنا نرص المزحة فوق المزحة.

ورغم أن سمرتها الصيفية أدخلت عنصراً صغيرا من النشاز، فتحت تصفيفة شعرها الحديثة، كان نفس الهدوء يتدفق كما كان دائماً، من عينيها

المبللتين بللا خفيفا، وحاجبيها المليئين شبابا، وشفتيها الثقيلتين نوعا، وما مرت امرأة أخرى بطاولتنا إلاّ ولاحظت « سونوكو ». كان الجرسون يدور في الغرفة وهو يحمل صينية فضية عليها حلوى مثلجة مرتبة فوق كتلة كبيرة من الثلج، نُحتت على شكل بجعة. كانت « سونوكو » تعبث، بهدوء، بحقيبتها البلاستيكية وفي اصبعها يلمع خاتم.

سألتها « هل مللت هذا؟ »

« لا تقلْ ذلك »

كانت نغمة صوتها مشحونة باعياء غريب نوعاً، يمكن حتى أن يوصف بأنه ساحر. أدارت رأسها وراحت تنظر خارج النافذة إلى الشارع الصيفي.

وعندما تكلمت ثانية جاءت كلماتها بطيئة: « أنا أرتبك أحياناً. أتساءل لماذا نلتقي هكذا، ومع ذلك، ففي النهاية ألتقي بك دائمًا من جديد ».

« ربما لأن هذا في النهاية ليس ناقصاً بلا معنى. حتى وإنْ لم يكن بالتأكيد زائداً بلا معنى ».

« لكن لديّ شيء يُسمَى « زوج » تذكر. وحتى إذا كان الزائد بلا معنى، لا يجب أن يكون هناك مجال لأي زائد اطلاقاً ».

« هذا حساب مُتعب، أليس كذلك؟ »

تصورت أن « سونوكو » وصلت أخيراً إلى مدخل الشك. بدأت تشعر أن الباب الذي ينفتح نصف فتحة لا يمكن أن يبقى على حاله. وربما كان هذا النوع من الحساسية للفوضى. قد صار الآن يستهلك القسم الأكبر من المشاعر التي أشترك فيها أنا و « سونوكو». كنت أنا أيضاً لا أزال بعيداً عن العمر الذي فيه يقبل المرء بالأشياء على ما هي عليه.

ومع ذلك بدا كأني أواجه، فجأة، برهاناً واضحاً على أن خوفي الذي لا اسم له قد أصاب « سونوكو » على حين غرة، بل وأن ما نشترك في امتلاكه هو علامة الخوف. مرة أخرى عبّرت « سونوكو » عن هذا الخوف. حاولتُ الاّ أصغي، لكن فمي قدّم اجابات لا مبالية.

قالت: « لو استمرينا هكذا، فماذا تظنه يحدث؟ ألَنْ نُحصَر في زاوية لا نستطيعُ الفكاك منها؟ ».

« أظن أني أحترمك وليس هناك ما نخجل منه أمام أي انسان. ما الخطأ في أن يلتقي صديقان؟ »

« هذا هو الأمر حتى الآن. الأمر كما تقول. أحسب أنك تصرفت بكل شرف. لكني لا أدري شيئاً عن المستقبل، ورغم أننا لا نفعل أدنى شيء مخجل فإني أرى، رغم ذلك، أحلاما فظيعة. ثمّ أشعر كأن الرب يعاقبني على خطايا مستقبلية ».

الصوت القوي لهذه الكلمة «مستقبلية » جعلني أرتجف.

واصلت الحديث :« لو بقينا هكذا، فإني أخشى أن يحدث يوماً ما يؤذينا معاً، وبعد أن نُجرَح ألَنْ يكون الأوان قد فات؟ أوليس ما نفعله مشابها للعب بالنار؟ ».

« ماذا تعنين بقولك اللعب بالنار؟ »

« أوه، كل شيء »

« لكن ليس بوسعك اعتبار ما نفعله لعباً بالنار. إنه تماماً كاللعب بالماء ».

لم تبتسم. وخلال الوقفات، التي تحدث من وقت لآخر، في حديثنا كانت تضغط شفتيها معاً بوحشية.

« بدأت افكر مؤخراً باني امرأة فظيعة. لا يمكن أن افكر في نفسي إلاّ بوصفي امرأة شريرة، لها روح قذرة. فحتى في أحلامي لا يجب أن أفكر في أحد خلاف زوجي. لقد عقدت العزم أن أُعمَّد هذا الخريف ».

خّمنت أنه في هذا النوع العقيم من الاعتراف ، الذي تعد النشوة ، برنين كلماتها، مسؤولة عن جزء منه، كانت « سونوكو » تقترب من التناقض النسائي المتمثل في أنها تقصد عكس ما تقول، وأنها ــ دون وعي ــ تريد أن تقول مالا يجب أن يُقال. وبالنسبة لي لم يكن لديّ الحق في أن أبتهج بهذا أو أحزن له. وكيف يمكنني، أولاً، وأنا الذي لا أشعر بأدنى غيرة من زوجها، أن أمارس هذه الحقوق سواء بالمطالبة أو رفضها؟ صمت. ملأني مرأى يدين بيضاوين وضعيفتين، في ذروة الصيف، ملأني باليأس.

وأخيراً قلت: « والآن بالتحديد؟ ».

خفضت عينيها: « الآن؟ »

« أجل، منذ الذي تفكرين فيه الآن بالضبط؟ »

« . . . زوجي »

« إذنْ، فليس من الضروري أن تُعمِّدي، أليس كذلك؟ ».

« بل هو ضروري! . . . ». إني خائف، ما زلت أشعر كما لو كنت أرتجف بعنف.

« إذنْ ، الآن؟ ».

« الآن؟ »

رفعت « سونوكو » عينيها الصغيرتين الجادتين وهي تطلب مساعدتي وكأنها غائبة عن الوعي. اكتشفتُ في إنسانيْ عينيها جمالا لم أره من قبل، كانا عميقين وثابتين وقدريين كانهما نافورتان تتغنيان دائمًا بعاطفة متدفقة، ضاعت مني الكلمات، كما يحدث دائمًا عندما تقع عليَّ عيناها، وفجأة مددت يدي إلى منفضة السجائر على المائدة وأطفأت بعنف سيجارة دخنت نصفها، وبينما كنت أفعل ذلك ترنّحت الزهرية التي في منتصف المائدة وأغرقتها بالماء.

جاء الساقي ونظف هذه الفوضى، وانبعث فينا شعور بالتعاسة لمرأى مفرش المائدة الذي جعّده الماء والساقي يرفعه وكأن ذلك عذرا بالنسبة لنا لمغادرة المكان قبل الموعد بقليل.

كانت شوارع الصيف مزدحمة بشكل يبعث على الضيق، وكان العشاق الذين تبدو عليهم العافية يمرون بنا وقد برزت صدورهم وتعرّت أذرعتهم، وشعرت أن كل واحد منهم يسخر مني، وكانت السخرية كشعاع شمس الصيف القوية التي تشق طريقها باللهب إلى داخله.

تبقت ثلاثون دقيقة قبل أن نفترق، ولا أدري بالضبط إنْ كان ذلك بسبب ألم الفراق، ولكن ضيقاً عصبيا كئيبا يشبه نوعاً من العواطف ، ولَّد لديّ احساساً بالرغبة في أن أغرق نصف الساعة هذا بألوان ثقيلة كألوان الزينة. توقفت أمام صالة رقص حيث كانت نغماتُ « الرومبا » الوحشية يقذف بها مكبر الصوت إلى

الشارع، وفجأة تذكرت سطرين من قصيدة قرأتها منذ زمن طويل:

... ولكنها كانت دائمًا رقصة بلا نهاية...

لقد نسيت البقية ولكنها لا بدّ وأن تكون قصيدة لاندريه سالمون.. ورغم أن مكاناً كهذا كان خارج تجربتها فقد أومأت «سونوكو» بالموافقة وصحبتني إلى داخل صالة الرقص لثلاثين دقيقة من الرقص.

كانت الصالة مكتظة بعمال المكاتب الذين يأتون يومياً لساعة أو اثنتين من الرقص ويهدرون بذلك ساعات غدائهم بما يناسب هواهم، وصفعتنا حرارة رطبة في وجوهنا، كانت الحرارة المحمومة الخانقة التي جثمت على المكان تثير ضبابا حليبيا من ذرات الغبار أمام الأضواء العاكسة بعد أن ضاعفتها أجهزة التهوية المعطلة والستائر الثقيلة التي تسد منفذ الهواء النقي، لم يكن المرء بحاجة لَمنْ يخبره عن نوعية الناس الذين يرقصون هنا دون أن يلاحظوا الحرارة والروائح النفّاذة للعرق والعطور السيئة والفازلين الرخيص، وأسفت لأني أحضرت «سونوكو».

ولكن فات أوان التراجع، واندفعنا عبر الزحام الراقص دون أية رغبة حقيقية، ولم تكن المراوح الكهربائية القليلة تبعث أخف نسمة، وكان الفتيان يرقصون مع المضيفات وقد التصقت خدودهم المبللة بالعرق، وكانت الظلال تغطي أنوف الفتيات، بينما تحوّلت المساحيق على وجوههن إلى حبات عجينية صغيرة أشبه بالبثور فوق جلودهن، وبدت ثيابهن من الخلف أكثر قذارة وبللا مما كان يبدو مفرش المائدة قبل برهة قصيرة، وسواء كان المرء يرقص أم لا. فقد كان العرق ينتشر فوق جسده، وكانت «سونوكو» تأخذ أنفاساً قصيرة كأنها تختنق.

وبحثاً عن نسمة هواء نقي، مررنا عبر قوس مزين بزهور صناعية غير مناسبة، وخرجنا إلى الفناء لنجلس على اثنين من المقاعد الفجة. كان هناك هواء نقي، هذا صحيح، ولكن الأسطح الخراسانية كانت تعكس حرارة كثيفة بما يكفي لأن تصل إلى المقاعد في الظل، وكان فم كل منا لزجاً بسبب الحلاوة اللزجة للكوكاكولا، وبدا أن «سونوكو» أسكتها عذاب النفور الذي كنت أشعر به أنا أيضاً تجاه كل شيء، وبعد فترة لم يعد بوسعي تحمل هذا الصمت وبدأت أنظر حولنا، كانت هناك فتاة سمينة تستند بتراخ إلى الجدار وهي تروِّح على صدرها

بمنديلها. كانت الفرقة الراقصة تعزف لحناً سريعاً وقاهراً، وهناك في الفناء كانت بعض أوان زُرِعت فيها نباتات دائمة الخضرة شبت مائلة من التربة الظمأى التي انحصرت فيها، وكانت كل المقاعد الموجودة في الظل قد رُفعت بعد أن رغب الجميع عن مواجهة الشمس.

ولكن كانت هناك مجموعة واحدة تجلس في ضوء الشمس بكاملها، وهي تثرثر وكأنهم وحيدون تماما، كانت تلك المجموعة مكونة من فتاتين وشابين، وكانت احدى الفتاتين تدخن سيجارة بطريقة مفتعلة تنم عن عدم خبرة بالتدخين، إذْ كانت تسعل سعلة قصيرة مختنقة بعد كل نفثة من الدخان. ارتدت الفتاتان ثيابا غريبة يبدو أنها كانت مصنوعة من قماش الكيمونو الصيفي، كانت الثياب بلا أكمام، تكشف عن أذرع حمراء كزعانف السمك وقد تركت عليها عضات الحشرات علامات هنا وهناك. وكلما ألقى الغلامان بمزحة فجّة كانت الفتاتان تنظران الواحدة إلى الأخرى ثم تضحكان ضحكة متكلفة ولم يبد أن شمس الصيف القاسية التي تضرب رؤوسهم تضايقهم بشكل خاص.

كان أحد الفلاحين يرتدي قميصا من نوع « الوها » وهو رداء كان شائعاً عندئذٍ بين عصابات الفتوات الصغار في المدينة، كان وجهه شاحباً وبادي المكر، ولكن كانت له ذراعان قويتان، وكانت ترتعش فوق شفتيه بصفة دائمة ابتسامة داعرة ، تظهر وتختفي، وكان يدفع البنتين إلى الضحك بأن يغرس اصبعه في نهودهما.

ثم تحول اهتمامي إلى الفتى الآخر، كان شاباً في الواحدة أو الثانية والعشرين له ملامح غليظة لكنها منسقة وسمراء، خلع قميصه ووقف هناك نصف عار، وهو يثبت حزاماً يحيط بخصره، كان القماش القطني الخشن مشرّباً بالعرق وقد حال لونه إلى الرمادي الخفيف، وبدا أنه يتعمد التباطؤ في عملية لبس الحزام، وكان ينضم إلى رفاقه كلما ضحكوا أو تكلموا، وظهرت في صدره العاري عضلات بارزة، كاملة التكوين ومتماسكة بقوة، وكان شق عميق يجري بين العضلات الصلبة لصدره نازلا باتجاه حوضه، وكانت الأعصاب السميكة لجسده، والتي تشبه الأغلال تقترب من مختلف الاتجاهات إلى جانبي صدره حيث تتشابك في عُقدٍ محكمة، وكانت الكتلة الساخنة لجذعه الأملس تنحصر بشده واحكام تحت اللفّات المتتالية للحزام القطني القذر، ولمع كتفاه العاريان اللذان لوحتهما الشمس كأنما يغطيهما الزيت، وبرزت من شقي ابطيه خصلات سوداء

عكست ضوء الشمس وتجعدت ولمعت بومضاتٍ ذهبية، وعند مشاهدتي ذلك، وخاصة مشاهدة الوشم الذي على صدره الصلب في شكل زهرة، داهمتني رغبة جنسية. ثبت نظرتي الشغوفة على ذلك الجسد الخشن والوحشي وإنْ كان جميلا بشكل لا يُضَاهى، كان صاحبه يضحك تحت الشمس، وعندما رمى برأسه إلى الوراء أمكنني أن أرى عنقا عضليا سميكا، وسرَت رعدة غريبة في أعماق قلبي، فلم يكن بوسعي أن أرفع عينيّ عنه.

نسيت وجود « سونوكو »، لم أكن أفكر إلاّ في شيء واحد: في خروجه إلى شوارع عز الصيف كما هو ، نصف عارٍ، واشتباكه في قتال مع عصابة منافسة، وفي خنجر حاد يخترق ذلك الحزام نافذاً عبر ذلك الجذع، وفي ذلك الحزام القذر وقد صبغه الدم بصبغة جميلة وفي جثمانه الملون بالدم فوق نقالة صيغت على عجل من مصراع شباك، ليجيئوا به إلى هنا. . .

« تبقت خمس دقائق فقط ».

وصل صوت « سونوكو » الحزين المرتفع إلى أذني فاستدرت إليها مندهشاً، في هذه اللحظة تمزّق بداخلي شيء إلى نصفين، بقوة وحشية، وكأن صاعقة قد سقطت على شجرة حية وشقتها، وسمعت البناء الذي كنت أشيده ، قطعة قطعة، بكل قوتي حتى الآن ، وهو ينهار بتعاسة على الأرض، وشعرت كأني أشاهد اللحظة التي تحول فيها وجودي إلى نوع مخيف من اللاوجود. أغمضت عيني ثمّ استعدت بعد لحظة سيطرتي على احساسي البارد كالثلج بالواجب.

« خمس دقائق فقط؟ كان الخطأ أن آتي بك لمثل هذا المكان. هل أنت غاضبة!. لا يجب أن يرى شخص مثلك سوقية هؤلاء السفلة من الناس، لقد سمعت أن هذا المرقص ليس معتاداً على رشوة هذه العصابات من الأشقياء وأنهم بدأوا يشقون طريقهم عنوة إلى داخله للرقص مجاناً مهما كان الرفض الذي يُقابلون به ».

لكني كنت الوحيد الذي ينظر إليهم. لم تلحظهم « سونوكو » فقد تدّربت على ألاّ ترى الأشياء التي لا يجب أن تُرى، وببساطة فقد أبقت عينيها مثبتتين وهي شاردة اللب على صف من الزهور المبللة بالعرق للواقفين لمشاهدة الرقص. ورغم ذلك فقد بدا أن جو المكان أحدث نوعاً من التغيير الكيميائي في قلب « سونوكو » أيضاً دون أن تدرك ذلك، فقد ظهرت في هذه اللحظة على شفتيها

الخجولتين ما يشبه علامة على الابتسام، وكأنها كانت تستمتع قدماً بما توشك أن تقوله:

« من المضحك أن أسأل عن شيء كهذا ولكنك « فعلت »، أليس كذلك؟ إنك بالطبع قد فعلت « ذلك »، أليس كذلك؟ ».

كنت منهكا تماماً ولكن زنادا مرهفا كان لا يزال مستعدا داخل عقلي، ليجعلني أعطي اجابة مقبولة بأسرع من التفكير:

« همم... لقد فعلت ذلك، ويؤسفني أن أقولها ».

« متى؟ ».

« الربيع الفائت ».

« مع مَنْ؟ ».

أدهشني مزيج السذاجة والتعقيد في سؤالها، لم تكن تستطيع أن تتخيلني على علاقة بفتاة لا تعرف اسمها.

« لا أستطيع أن أخبرك باسمها ».

«هيا، مَنْ هي؟».

« أرجوك الّا تسأليني ».

وربما لأنها سمعت نغمة التوسّل البالغة الوضوح وراء كلماتي، فقد صمتت على الفور وكأنها ضائقة، كنت أبذل كل جهد ممكن لأمنعها من ملاحظة الدم يهرب من وجهي، كانت لحظة الفراق تنتظر بلهفة. كان لحن سوقي من الحان « البلوز » يلتصق لزجاً بالوقت، وسقطنا مشلولين داخل الصوت العاطفي الصادر عن مكبر الصوت.

نظرت أنا و « سونوكو » إلى ساعتي يدينا في نفس اللحظة تقريباً..

آن الأوان. وعندما نهضت، استرقت نظرة أخرى ناحية تلك المقاعد التي في الشمس، من الواضح أن المجموعة ذهبت للرقص، وبقيت الكراسي خالية في ضوء الشمس الوهّاج. كان مشروب ما قد انسكب فوق المائدة، كانت تصدر عنه انعكاسات لامعة مخيفة.



اعترافات قناع

تتحدث هذه الرواية عن اليابان في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية ومهّدت لها، ثم فترة الحرب، ثمّ الانهيار وما تلاه.

إنها تروي لنا تاريخ صعود الفاشية اليابانية وسقوطها من خلال انعكاس هذا التاريخ في التكوين الشخصي والسيكولوجي لشخوص الرواية وبالتالي في تحديد قيمهم وسلوكهم ومصائرهم.

إن المشهد الذي يفتتح به بطل الرواية تاريخه الوجداني يصور طفلاً لحظة مولده وهو يُغسَل بعد الولادة في حوض خشبي أملس، فيما يسقط النور على حافة هذا الحوض.

ومن النور والاغتسال في البداية، إلى الدم وعرق البلطجية والشذوذ في النهاية، تمتد عشرون عاماً يقطعها مجتمع ورجل في طريقهما إلى الهاوية.

الثمن ١٥ ليرة لبنانية أو ما يعادلها.

دار التنوير للطباعة والنشر ص. ب. ٦٤٩٩ ـ

دار أبعاد للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب. ٦٠٤٣ / ١١٣ هاتف: ٣٤٨٩٧٧ ـ